جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

صورة المغول في النثر العربي من القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجري

(دراسة موضوعية وفنية)

إعداد الطالبة

لبنى محمود دوينع متروك

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة

الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

MUTAH UNIVERSITY

Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا
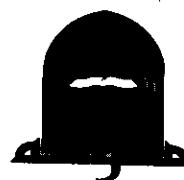
نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة لبنى محمود دوينع الموسومة بـ:

صورة المغول في النثر العربي من القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجري، دراسة موضوعية وفنية

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية وآدابها.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير الدروبي		2005/7/25	مشرفاً ورئيسا
أ.د. جهاد المجالي		2005/7/25	عضواً
د. فايز القيسي		2005/7/25	عضواً
د. نوفان رجا السوارية		2005/7/25	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد القطامين

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

الإهداء

إلى روح أُمِّي الطَّاهرة، ثمرة من ثمار غرسها، إلى والدي الحبيب، رمز العطـــاء اللامتناهي، إلى العمّ الحنون أبي أشرف، إلى أخواني: خالد، رائد، قيس، عامر، طارق، علاء، ميسَّر الذين تحمَّلوا معي شيئاً كبيراً من عناء هذا العمل. أقدِّم هذا الجهد عربـــونَ محبةٍ ووفاء.

لبنى محمود دوينع متروك

شكر وتقدير

أتقدَّم بجزيل الشُّكر إلى أُستاذي الجليل الأستاذ الدكتور سمير الدروبي الذي لم يألُ جهداً في متابعة الرِّسالة، وتصويب ما فيها من أخطاء، حتَّى خرجت إلى النُّور.

فجزاه الله عنَّا خير الجزاء.

كما أتقدَّم بالشُّكر والامتنان إلى كلٍّ من الأساتذة الكرام: الأستاذ الدكتور جهاد المجالي والدكتور فايز القيسي والدكتور نوفان الحمود لتفضُّلهم بقبول المناقشة العلميّة لهذه الرسالة.

وقال الرسول الكريم – عليه الصَّلاة والسَّلام – ((من أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فاشكروه حتَّى تعلَّموا أنْ قد كافئتموه))، ولهذا أُقدِّم شكري الجزيل إلى كلِّ من قدَّم لي عوناً حتَّى ولو كان قليلاً، وأخصُّ بالذِّكر: أخي الحبيب رائد دوينع، والسيد حسن بلاسي.

لبنى محمود دوينع متروك

فهرس المحتويات

الملخّص

صورة المغول في النثر العربي

(من القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجري)

- دراسة موضوعيّة وفنيّة -

لبنى محمود دوينع متروك

جامعة مؤتة، 2005م

تناولت هذه الدراسة موضوع (صورة المغول في النثر العربيّ من القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجريّ)، وقد نبعت أهميّة هذه الدراسة من الأثر الذي خلّفه الغزو المغوليّ على البلاد الإسلاميّة في تلك الفترة، وقد واكب النثر العربيّ في العصر المملوكي هذه المرحلة من الزّمن، فكان الكتاب اللسان المعبّر عن الأمّة ومصابها، فصوّروا فظائع المغول في المدن الإسلاميّة، وحثّوا على الجهاد، وتابعوا بنثرهم هزائم المغول، ومصيرهم الذي آلوا إليه. ومن هنا جاءت الدّراسة لتعطي صورةً عن المغول الذين غزوا بلاد المسلمين في حالتي النّصر والهزيمة، ولتوضيح التطوُّر الذي طرأ على تلك الصورة بعد دخولهم في الإسلام، كما أنّها رصدت أهم المراسلات التي دارت بين سلاطين المسلمين وملوك المغول، والتي تمثّلت بصورٍ عديدةٍ منها خطابات الوعيد والإنذار، وخطابات الصُّلح، والهدن، وغيرها.

وقد ظهر من خلال البحث أنَّ الأدباء قدَّموا تعليلات مختلفة لذلك الغزو، وصوّروا عنفه وقسوته، والأثر الذي خلّفه في نفوس المسلمين. وأعطوا صورةً للمغول قبل الهزيمة، فأشاروا إلى عقيدتهم، وتحدّثوا عن عددهم، وعدّتهم، وأطماعهم، وبعض خططهم وأساليبهم العسكريّة، وعن صفاتهم وأفعالهم في المدن الإسلاميّة المحتلة. كما كشفت الدّراسة عن الصورة التي رسمها الكتّاب للمغول بعد هزيمتهم أمام المسلمين، فقد تحدّثوا عمّا أصابهم من قتلٍ، وأسرٍ، وأشاروا إلى حالتهم النفسيّة بعد الهزيمة.

وعرضت الدّراسة للخصائص الفنيّة من تأثّر بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشّعر العربيّ. وتحدثت عن بعض المحسّنات البديعيّة، وبروزها في أدب تلك الفترة.

Abstract

The Image of Mongols in Arab Prose Between the 7th – 9th Hijri Centuries

Written by Lubna Mah'd Dweane' Matrouks
Mu'tah University, 2005

The study handles the image of Mongols in the Arab Prose between the 7th – 9th Hijri centuries. The importance of this study arises from the impact of Mogols' invasion on Islamic countries where many Muslims were slaughtered, captured, a lot of money was robbed and many scientific and civilized centres were destroyed. Mamluks had played a vital role in fighting the Mongols and in many battles succeeded in defeating them. During this period of conflict, many Mongols embraced Islam.

Arabic prose at the period of the Mamluks clearly reflects and draws a read picture of the sufferings and calamities of Muslims. It describes the atrocious deeds of the Mongols and calls for Jihad against them. The purpose of the present study flourishes here in that it describes the two conditions of the Mongols, when in victory of defeat, especially after embracing Islam. The study also covers the various types of correspondence between Muslim Sultans and Mongol Kings.

Throughout the study, different writers offered various accounts of the Mongol invasion. They also described the cruelty and negative impact of the invasion on Muslims, images of the Mongols before their defeat, their beliefs, numbers, goals, military plans and terrible conduct in Islamic cities. The study also revealed the image of the Mongols after defeat where they had been killed or taken captives. They had indicated the conquer of Mongols fortresses by Muslims, described their low spirit and the fate of their leaders.

The study emphasized the influence of the Holy Quran and Hadith on the prose besides the impact of poetry and eloquent forms.

الفصل الأول

نظرة في الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة

1.1 المقدّمة

تعرَّضت الأُمَّة الإسلاميَّة في العصر المملوكيّ لهجمةٍ مغوليّة، لعلّها كانت من أخطر المحن التي واجهتها هذه الأمَّة في صراعها مع أعدائها، فقد احتلَّ المغول بعض بلاد المسلمين، وارتكبوا فيها من عمليات القتل ما تقشعرُّ له الأبدان، وأبادوا الكثير من كتب العلوم، وهدموا صروح الحضارة والمدنيَّة هناك، وقد هيَّأ الله لهذه الأُمَّة بعد طول معاناة المماليك، الذين حملوا لواء الجهاد ضدّ المغول، ووقفوا بكل قوّتهم أمام المغول، فاستطاعوا بجهدهم الدَّؤوب دحرهم، وصدِّهم عن بقيّة بلاد المسلمين. وقد برز أثر ذلك الغزو في الناحية الأدبيّة، فكان للنثر دورٌ بارزٌ في الحثِّ على الجهاد، وفي وصف قسوة المغول وتدميرهم قبل الهزيمة، وتصوير ما آلت إليه جيوشهم بعدها، كما أنَّهُ هنَّأ بنصر المسلمين، ومدح قادتهم اللذين تصدُّوا لهذا الغزو، ولم يقتصر دور النثر على ذلك بل صوَّر جوانب من العلاقات بين المسلمين والمغول بعد اعتناقهم الإسلام، وانخراطهم في مجتمع المسلمين.

وقد عُني بعض الباحثين بدراسة أصداء الغزو المغوليّ في الشعر العربيّ، وصورة المغول في الشعر العربيّ، ولم تُعنَ دراسة علميّة موسَّعة مستقلّة بإظهار صورة المغول في النثر العربيّ، ممّا دفعني إلى إبراز ملامح تلك الصورة، وشجَّعني أيضاً قلّة الدِّراسات في مكتبتنا العربيّة التي تصدَّت لدراسة النثر الذي واكب الغزو المغوليّ، في حين أنَّ هذا الموضوع لا يقلّ خطورة عن موضوع الغزو الصليبيّ، الذي حُظي بدراساتٍ كثيرةٍ في مكتبتنا العربيّة.

وقد جاءت هذه الدِّراسة تحاول الإجابة عن تساؤلاتٍ منها:

أ- كيف تبدَّت صورة المغول في النثر العربيّ في حالتي النَّصر والهزيمة؟

ب- ما ملامح الصُّورة التي رسمها الكتّاب للمغول بعد اعتناقهم الإسلام، واندماجهم في مجتمع المسلمين؟ وهل بقيت الصُّورة كما هي عليه قبل إسلامهم، أم طرأ عليها تطوُّرٌ وتغيير؟

ج- ما الصُّورة التي رسمها الكتّاب للغزو المغوليّ؟

د- ما الأثر الذي تركه الغزو المغوليّ في النثر العربيّ في العصر المملوكي؟

هـ- ما سمات النثر الفنيَّة الذي تناول هذا المنحى؟

وقد وَجَدْتُ بعض الدّراسات الأدبيّة القيّمة التي أشارت إلى صورة الغزو المغولي، ودرست أصداءه في الأدب العربيّ، ومن تلك الدِّراسات رسالة جامعيّة بعنوان (أصداء الغزو المغوليّ في النثر العربيّ من القرن السَّابع إلى القرن التَّاسع) لذكريات الحمامرة، التي تناولت فيها الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي في تلك الفترة، وأبرزت صدى هذا الغزو في النثر العربيّ، وتحدثت فيها عن دور النثر في الحثّ على الجهاد، ورثاء المدن الإسلاميّة، وتصوير أسلحة المسلمين، وهنالك إشارات بسيطة تدلّل فيها على صورة المغول، لكنّها لم تعطنا صورة متكاملة للمغول الذين غزوا البلاد الإسلاميّة، في حالتي النَّصر والهزيمة، وبعد اعتناقهم الإسلام، واحتكاكهم بمجتمع المسلمين، وصورةً للغزو المغوليّ بشكلٍ عام. ومنها دراسة للباحث رائد مصطفى بعنوان (صورة المغول في الشّعر العربيّ)؛ الذي تناول فيه صورة المغول في الشّعر العربيّ قبل الهزيمة وبعدها. ومنها بحث بعنوان (من آثار الغزو التتريّ في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجريّ) لناظم رشيد، أشار فيه بلمحةٍ سريعةٍ موجزةٍ عن أثر الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، كما أشار الباحث خالد جبر في رسالته الجامعيَّة (الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي بمصر والشَّام)، إلى أثر الصِّراع المغوليّ والفرنجيّ في الرسالة الجهاديّة فقط. كما تحدَّث محمد التونجي في كتابه (التيارات الأدبيّة أثناء الزَّحف المغوليّ) عن التيارات الأدبيّة التي كانت سائدة إبَّان الزَّحف المغوليّ، ومنها التيَّارات الحماسيّة التي واكبت أحداث هذا الغزو.

فضلاً عن كتاب (الوثائق السياسيّة والإدارية للعصر المملوكيّ) للباحث محمّد ماهر حمادة الذي جمع به عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين المغول والمسلمين.

لم أجد دراسةً علميّة، وافية، عميقة تُظْهِر صورة المغول في النثر العربي بشكل جليّ؛ الأمر الذي دفعني إلى قراءة تاريخ تلك الفترة، والصِّراع الإسلاميّ والمغوليّ، والقيام بجمع المادَّة النثريّة من نصوصٍ ورسائلٍ وعهودٍ وخطبٍ وغيرها من مظانِّها المختلفة، وطفقت أدرسها، وأحلِّلها، وأُصنِّفها، لتتساوقَ وترتيب فصول الدّراسة، وتشكِّل الإطار الكليّ لموضوع (صورة المغول في النثر العربيّ من القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع الهجريّ).

لقد بُنيت هذه الدراسة على خمسة فصول وخاتمة، وقد أشرت في الفصل الأول إلى الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة التي نتجت عن الغزو المغوليّ للبلاد الإسلاميّة.

وتناول الفصل الثاني المراسلات المتبادلة بين سلاطين المسلمين وملوك المغول من رسائلٍ دبلوماسيّة، وهدنٍ، ورسائل أمان، فضلاً عن الحديث عن العلاقات التي تربط المسلمين بكلٍّ من مغول فارس والقفجاق بعد اعتناقهم الإسلام، ومدى التغيير الذي طرأ على تلك العلاقة.

وعالج الفصل الثالث صورة المغول قبل الهزيمة، فتحدّثت فيه عن أطماع المغول وتصوير الغزو، وعن أحلاف المغول الذين شاركوهم غزو بلاد المسلمين، وساعدوهم في السيطرة عليها، كما تحدَّثت عن عددهم وعدَّتهم، والخطط والأساليب العسكريّة التي كانوا يتَّبعونها في حروبهم، وأشارت إلى عنف غزوهم، والأثر الذي خلَّفهُ في نفوسِ المسلمين، فضلاً عن صفاتهم وأفعالهم في المدن الإسلاميّة المحتلّة، ومن ثمَّ التطرُّق إلى مسألة الدعوة إلى الجهاد، وصدّ العدوان المغوليّ، حيث أشارت إلى موقف العلماء منه، وحثّ الكتَّاب عليه.

أمَّا الفصل الرابع، فقد بحثت فيه عن صورة المغول بعد الهزيمة، فتحدَّثت عن سير المعركة ووصف الانتصارات؛ ثمّ اتبعتُ ذلك بحديثٍ عن المصير الـ ي

آلوا إليه من قتلٍ وأسرٍ، وفرارٍ من ساحة المعركة، وتحدثتُ عن سقوط بعض حصونهم، وحالتهم النفسيّة بعد الهزيمة، وعن تعريض الكتّاب بهم، ومن ثمّ عرضتُ للصورة التي رسمها الكتّاب لعددٍ من قوّادهم بعد الهزيمة، كما أفردت حديثاً عن صورة البطل المسلم، والجيش المسلم.

أمّا الفصل الخامس والأخير، فقد اشتمل على الدّراسة الفنيّة، حيث تناولت فيه بنية الرسائل التي كانت بين المسلمين والتّتار، وبنية افتتاحها، وحسن التخلُّص فيها واختتامها.

ثمّ تناولت الدراسة مقدّمات بعض النُّصوص النثريّة الأخرى كالعهود، وبحثت باللغة والأُسلوب الشائع المتّبع آنذاك، ومن ثمّ تطرّقت للصورة الفنيّة ومصادرها.

وأشارت إلى تأثير الطريقة الفاضليّة في الأسلوب المتّبع في الكتابة، ثمّ فصّلت الحديث عن المحسّنات البديعيّة، حيث تحدّثت عن السّجع والجناس والطباق والمقابلة، إذْ عرّفت كل فن بديعي، وذكرت أنواعه وآراء بعض النقّاد فيه.

ثمّ أتبعت ذلك بحديثٍ عن تأثُّر الكتّاب بالقرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف، والشُّعراء السابقين، والأمثال.

وتنتهي الدرّاسة بخاتمةٍ، أجملت فيها النتائج التي توصّلت إليها.

ولقد اعتمدت الدراسة على مصادر متنوِّعة أهمّها: (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي، و(السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي، و(الروض الزّاهر في سيرة الملك الظّاهر) لمحيي الدين بن عبد الظّاهر، و(حُسن التوسُّل في صناعة الترسُّل) للحلبيّ، و(ذيل مرآة الزّمان) لليونيني، و(عجائب المقدور في أخبار تيمور) لابن عربشاه، وغيرها.

2.1 التمهيد

3.1 الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة

تعرّض المجتمع الإسلاميّ للكثير من الأضرار المصاحبة للغزو المغوليّ للمدن الإسلاميّة، شملت جميع نواحي الحياة، فأصبح أهلُ تلك المدن في قلقٍ واضطرابٍ مستمر، كلّما تحرّكت جيوش المغول نحو بلادهم، فكان هذا الخوف أحد العوامل التي أثّرت بشكلٍ كبيرْ على سير الحياة الاجتماعيّة داخل المدن الإسلاميّة، ممّا أجبرهم على القعود عن ممارسة أعمالهم، كما ارتكبوا أبشع الجرائم بحقِّ المسلمين، ذهب ضحيَّتها العديد من أبنائهم، ومن نجا منهم كان العذاب والهوان في انتظاره، وحتّى يجعلوا من المدن الإسلاميّة خالية من سكانها، لجأوا إلى أخذ زهرة شبابها، ممّن يعتمد عليهم في بناء وإصلاح أحوالها، فقد سلَّط وضع المغول السَّيف على في أهلِ بغداد فقتلوا الكثير من المسلمين، وأسروهم، وعاقبوهم على الأموال، ((ووقع الوباء فيمن تخلَّف بعد الوقعة، من شمِّ روائح القتلى، وشرب الماء الممتزج بالجيف وكثرة الذُّباب، فإنَّهُ ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها))(1)، وسرى الوباء ((في الهواء إلى بلاد الشَّام، فمات خلقٌ كثير من تغيّر الجوّ، وفساد الرِّيح، فاجتمع على النّاس الغلاء والوباء والطَّعن والطَّاعون))(2).

وقد أعقب دخول غازان وجيشه المغوليّ دمشق عام 699هـ فزع النّاس ومخاوفهم، فيقول المقريزي: ((هذا وأهلُ دمشق قد وقع بينهم وقت الظهر من يوم السبت أول ربيع الآخر ضجّة عظيمة، فخرجت النِّساء باديات الوجوه، وترك النّاس حوانيتهم وأموالهم، وخرجوا من المدينة فمات من الزُّحام في الأبواب خلقٌ كثير،

---

(1) ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق البغدادي (ت723هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية – بغداد، 1932م، ص329-335؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ الدمشقي (ت774هـ): البداية والنهاية، تدقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية – بيروت، ط3، 1987م، 13/228-229.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/230.

وانتشر النّاس برؤوس الجبال وفي القرى، وتوجّه كثير منهم إلى جهة مصر، وفي ليلة الأحد خرج أرباب السجون، وامتدّت الأيدي لعدم من يحمي البلد))[1].

وإذا كان دخول الجيش المغوليّ دمشق قد أثار عدم الاستقرار في المدينة، وفزع الأهالي، وبكاء النِّساء، فإنَّ بعضاً من العامّة وجد في هذا الموقف الصَّعب، وشرود النّاس عن المحافظة على ممتلكاتهم فرصةً مناسبة لنهب الدُّور، وسلب الحوانيت، وسرقة الأموال، وتعلّل حياة الحجي تلك الظاهرة إلى عدم وجود جهاز أمني يعمل على توطيد عناصر الاستقرار والسَّلام والأمان داخل المدينة، فتلك الظاهرة نتيجة طبيعيّة لحالة عدم الاستقرار في البلاد، ومعاناة أعداد كثيرة من طوائف العامّة من الجوع والفقر[2].

ومن جانبٍ آخر كانت أموال العامّة في وقت الشدّة عرضةً للمصادرة على يدِّ أصحاب السلطة، وكذلك في أثناء الأزمات السياسيّة؛ فحينما وقع الغزو المغوليّ لدمشق ((اشتدَّ الطلب للمال على أهلِّ دمشق))[3]، بل بلغ الأمر بالتتار أن ((نبشوا على الخبايا فظهر لهم منها شيء كثير حتّى كأنَّهم كانوا يعلمون أماكنها))[4].

ويفصِّل المقريزي تفاقم وطأة الغزو المغوليّ في دمشق، فيقول: ((واشتدَّ الأمر في طلبِ المال، وغلت الأسعار حتّى أُبيع القمح بثلاثمائة وستين درهماً الغرارة، والشعير بمائة وثمانين درهماً، والرطل الخبز بدرهمين، والرطل اللحم باثني عشر درهما، ...، ورسم على كلِّ طائفة جماعة من المغل، فضربوا النّاس وعصروهم

---

(1) المقريزي، تقيّ الدِّين أحمد بن علي (ت845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمّد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة، 1939م، ج1، ق2، ص889.

(2) انظر الحجي، حياة ناصر: أحوال العامّة في حكم المماليك، شركة كاظمة للنشر والتوزيع – الكويت، ط1، 1984م، ص123.

(3) ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن الأتابكي (ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، ط1، 1933م، 125/8؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص892.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 125/8–127؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص892.

وأذاقوهم الخزي والذل، وكثر مع ذلك القتل والنهب في ضواحي دمشق، حتّى يُقال إنَّهُ قتل من الجند والفلاحين والعامّة نحو المائة ألف إنسان))[1].

وهكذا كان من نتيجة وقوع دمشق تحت وطأة حكم العدو المغوليّ أن تمادى التتار في جمع المال عن طريق مصادرة أموال النّاس، وما لديهم من نفائس ممّا أدّى إلى غلاء الأسعار إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث تعذَّر على النّاس الحصول على أقواتهم، بالإضافة إلى أنّ الحكّام التتار قرَّروا على الأسواق جميعها مبالغ معيّنة يلتزمون بدفعها، علاوةً على تعرّض طوائف عديدة من النّاس للضرب والتعذيب على يد المغول، فذاقوا شتّى أصناف العقاب والذل والمهانة.

وقد كان الغلاء وما ينتج عنه من سوء التغذية من أكثر الظواهر الاقتصاديّة إضراراً بالعامّة، فيقاسون الجوع والمرض، حيث ينتشر الوباء بين فئاتهم المختلفة، وينالهم أوخم العواقب. ففي سنة 622هـ ((كثر الموت والمرض في النـاس، فكان يحمل على النعش الواحد عدّة من الموتى))[2]. وفي سنة 695هـ اشتدّت الأزمة بقدوم طائفة من التتار لمصر، ويعبِّر عن ذلك المقريزي بقوله: ((وانكشف حال كثير من النّاس، وشحّت الأنفس حتّى صار أكابر الأمراء يمنعون من يدخل عليهم من الأعيان عند مدِّ أسمطتهم. وكثر تعزير محتسب القاهرة ومصر لبيّاعي لحوم الكلاب والميتات، ثمَّ تفاقم الأمر فأكل النّاس الميتة من الكلاب والمواشي وبني آدم، وأكل النّساء أولادهنَّ الموتى))[3].

وهكذا نلاحظ شُحَّ بعض الأمراء ومنعهم دخول الجياع من النّاس إلى بيوتهم وقت مدِّ الأسمطة حرصاً على الطعام والاقتصاد في الصَّرف، في حين لجأ بعض بياعي اللحوم إلى بيع لحوم الكلاب والقطط الميتة للنّاس على أساس أنّها من لحوم

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص893-894.

(2) ابن الأثير، عز الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ): الكامل في التاريخ، مراجعة محمّد الدقّاق، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1987م، 448/12.

(3) ابن إياس، محمّد بن محمّد الحنفي (ت930هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 1982م، 134/1؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 60/8.

الماشية إلى درجة أنَّ محتسب القاهرة اجتهد في مراقبة دكاكين القصَّابين للحيلولة دون الإقدام على ذلك، ولكنَّ المجاعة اشتدَّت، والوباء انتشر واستفحل إلى درجة بالغة حتّى أقدم النّاس على أكل لحوم الكلاب الميتة من أجل البقاء، بل بلغ الأمر إلى أكل لحوم الأموات من النّاس.

وقد اجتاح المجتمع الإسلاميّ كوارث طبيعيّة جمّة من زلازل وفيضانات، وغرق وقحط وجراد، وهذه الكوارث بمجملها أدّت إلى ارتفاع عظيم بالأسعار. يُضاف إلى هذه الكوارث ما كان في المجتمع من ظلمٍ وتبذيرٍ وإسرافٍ لا سيَّما في الحفلات[1] والهدايا والعطايا التي كان يغدقها أولو الأمر على الأتباع، وتشمل السيوف المذهَّبة والملابس الحريريّة[2]، بالإضافة إلى الفتن التي اشتدّت في دور الخمر وأماكن الزّنا[3]، ومظاهر الظلم والاضطهاد، وكثرة المكوس، ممّا دعا الشيخ شرف الدّين النوويّ (ت676هـ) يكثر المكاتبات إلى السلطان الظاهر بيبرس ويعظه في أُمور المسلمين، فكتب إليه رسالةً تتضمّن العدل في الرعيّة وإزالة المكوس، وكتب إليه رسالةً أُخرى لمَّا احتيط على أملاك دمشق[4].

4.1 الحياة الثقافيّة

كان للغزو المغوليّ الذي دكَّ العالم الإسلاميّ، وأسقط خلافتها بعد نكبة بغداد سنة 656هـ أثرٌ كبيرٌ على الحياة الثقافيّة في البلاد المحتلّة، أُصيبت الحركة العلميّة فيها بخسارة هائلة، فقد قتل المغول مئات العلماء والأدباء في تلك البلاد، وأنزلوا بهم

---

(1) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص72، 77.

(2) انظر المصدر نفسه، ص43، 49، 52.

(3) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 13/96-97.

(4) انظر السيوطي، جلال الدّين عبد الرحمن (ت911هـ): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1968م، 2/97-103.

عقوبات مختلفة، ومات الكثير منهم تحت وطأة التعذيب(1)، فضلاً عن العدد الهائل من العلماء الذين أسروهم وأخذوهم معهم إلى بلادهم(2).

واعتدى المغول على الكتب العلميّة في البلاد الإسلاميّة؛ وذلك بالنَّهب والسَّلب والحرق، ويروى أنَّ المغول ألقوا تلك الكتب في نهر دجلة(3)، ومنهم من يقول أنَّهم أحرقوها(4).

إلى جانب ذلك أحرق المغول العديد من المدارس، ففي سنة 679هـ هجم التتار على حلب فأحرقوا بعض المدارس فيها(5)، كما أحرقوا دور الحديث في دمشق سنة 699هـ مثل: دار الحديث النورية(6)، والمدرسة العادلية، والمارستان النوري(7).

بعد سقوط بغداد عاصمة المسلمين، تطلَّع العلماء في كلِّ قطرٍ إسلاميّ إلى ملجأ يحميهم، ويوفِّر لهم الأمان، فأصبحت القاهرة محطّ أنظار العلماء وطلبة العلم، ففرَّت جماعات كثيرة من العلماء تحمل علمها وكتبها إلى مصر، ليلجأوا إليها بذلك

---

(1) انظر أبو الفداء، عماد الدِّين إسماعيل (ت732هـ): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصريّة – القاهرة، ط1، 4م، 1907م، 194/3؛ وانظر اليونيني، قطب الدِّين أبو الفتح موسى (ت726هـ): ذيل مرآة الزَّمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن – الهند، ط1، 1954م، 89/1.

(2) انظر ابن عربشاه، أحمد بن محمّد بن عبد الله (ت854هـ): عجائب المقدور في أخبار تيمور، المطبعة العثمانيّة – مصر، 1305هـ، ص291-294.

(3) انظر ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ): تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ط2، 1961م، م5، ق4، ص1150.

(4) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 51/7.

(5) انظر المصدر نفسه، 299/7؛ انظر المقريزي: السّلوك، ج1، ق3، ص682.

(6) دار الحديث النوريّة بدمشق، أنشأها الملك العادل نور الدِّين زنكي المتوفّى سنة 569هـ. انظر النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت927هـ): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسين، مكتبة الثقافة الدينيّة – القاهرة، 1988م، 2م، 99/1.

(7) أنشأه نور الدِّين محمود بن زنكي. انظر محمد كرد علي: خطط الشّام، مكتبة النوري – دمشق، ط3، 6م، 1983م، 187/6.

التراث الذي تقدّسه، وتحافظ عليه، ولقي أولئك العلماء بمصر كلَّ تشجيعٍ من أهلها وحكّامها على السّواء.

وحملت مصر لواء المعرفة بعد بغداد[1]، ودول المشرق الإسلامي والأندلس[2]، وإلى هذا أشار ابن خلدون في قوله: ((وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة، إلاَّ أنَّ الله تعالى قد أدال منها بأمصارٍ أعظم من تلك، وانتقل العلم منها إلى القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة، وعمرانها متَّصلاً، وسند التعليم بها قائماً))[3]، ((وبذلك ورثت مصر العراق في الزعامتين الدينيّة والسياسيّة في العالم الإسلامي والعربي، كما عُقِدَ لها لواء الزعامة الفكريّة والحضاريّة))[4].

وقد أظهر بعض السلاطين المماليك جانباً من اللِّين والعطف والتقدير نحو العلماء، وهذا بدوره أدَّى إلى ازدهار الحياة الثقافيّة ورفع سويتها، فمن ذلك احترام السُّلطان حسام الدِّين لاجين (ت698هـ) للعلماء وتوقيرهم، فروى الصفدي (ت764هـ) في حقٍّ ابن سيِّد النّاس اليعمريّ (ت734هـ) – الذي قصد القاهرة من الأندلس برفقة والده – إذْ ((كان الأمير علم الدِّين الدواداري يحبّه كثيراً، ويقضي أشغال النّاس عنده، ودخل به إلى السُّلطان الملك المنصور حسام الدّين لاجين، وقد امتدحه بقصيدة، وقال: أحضرت لك هذا، وهو كبير من أهل العلم، فلم يدعه السلطان يبوس الأرض، وأجلسه معه على الطرّاحة))[5].

---

(1) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 86/7.

(2) انظر جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربيّة، مراجعة شوقي ضيف، طبعة دار الهلال- القاهرة، 213/3.

(3) ابن خلدون، عبد الرّحمن بن محمّد الحضرميّ (ت808هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشره مؤسسة الأعلمي – بيروت، 1971م، ص361.

(4) سلاّم، محمّد زغلول: الأدب في العصر المملوكيّ، نشر منشأة المعارف، جلال حزى وشركاه- الإسكندرية، 124/1.

(5) الصفدي، صلاح الدّين خليل بن أيبك (ت764هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، علي أبي زيد وآخرون، دار الفكر – دمشق، ط1، 1998م، 207/5.

ومن مظاهر الاهتمام بالثقافة تسابق السلاطين في بناء المدارس، وتخصيص الأموال الطائلة لها، وإقامة الاحتفالات عند الانتهاء من بنائها، وكان من أشهر مدارس القاهرة المدرسة الظاهريّة القديمة، بناها الظاهر بيبرس، ورتّب فيها دروساً للشافعيّة والحنفيّة والحديث والقراءات، والمدرسة المنصوريّة بناها المنصور قلاوون، ورتّب فيها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير ودروساً للطب، والمدرسة الناصريّة بناها النّاصر محمّد بن قلاوون، وقد قال المقريزي عنها: ((إنَّها محترمة للغاية))[1]، ومدرسة السلطان حسن بن النّاصر قلاوون، قال عنها السيوطي: ((لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذه المدرسة))[2]، والمدرسة الظاهريّة الجديدة، ومدرسة السلطان برقوق، والمدرسة الجماليّة نسبة إلى جمال الدِّين محمود، وصفها المقريزي بأنَّها من أحسن مدارس مصر[3].

وكان بعض السلاطين مغرماً باقتناء الكتب النفيسة؛ كالملك النّاصر حسن ابن النّاصر بن قلاوون، وروى ابن إياس أنَّ القاضي نجم الدِّين يحيى ابن حجر (ت888هـ) من أعيان الرؤساء بمصر والشّام، لمّا مات وجِدَ عنده زيادة عن ثلاثة آلاف مجلّد من الكتب النفيسة[4].

وقد كان للمساجد دورٌ هام في حلقات الدرس إلى جانب الوظيفة الدينيّة، فكانت تُلقى فيها الدروس، وخاصة العلوم الدينيّة، كما أسهمت البيمارستانات في نشر الثقافة الطبيّة، إذْ كانت إلى جانب الخدمات الطبيّة، وتقديم العلاج للنّاس تدرِّس الطب[5].

---

(1) المقريزي، تقيّ الدِّين أحمد بن علي (ت845هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر – بيروت، 2م، د.ت، 406/2.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 236/2.

(3) انظر المقريزي: الخطط، 395/2-397؛ وانظر السيوطي: حسن المحاضرة، 238/2.

(4) انظر ابن إياس: بدائع الزهور، 218/2.

(5) انظر الحداد، محمّد حمزة إسماعيل: السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط1، 1993م، ص55-56.

وقد أشارت مناهل فخر الدّين في مقالٍ لها إلى أهميّة رحلة الحج في كلّ عـــامٍ ينتظم فيها الكثير من العلماء، يمرُّون بمقتضاها ببلاد مصر والشّام، يمكثون فيها فترة زمنيّة ليست بالقصيرة يُخرجون فيها إبداعاتهم ونتاجهم العلمي[1].

نشطت في العصر المملوكي حركة الترجمة والتعريب، إذ ((كانت ضـــروريّة لتحقيق التجانس الثقافي، والتواصل المعرفي، ولبقاء لغة العرب حيَّة فـــي مؤســسات الدولة المختلفة، وبخاصةً ديوان الإنشاء الذي صدرت عنـــه جميـــع المكاتبـــات فـــي التعيينات والاقطاعات إلى المماليك))[2]. وقد ساعدت الترجمة علـــى جمـــع أخبـــار الأعداء، ومراقبة تحرُّكاتهم، والاستعداد للتعامل معهم، وكشف جاسوسيتهم المـــضادّة، فضلاً عن استخدامها بصورةٍ فعّالة في ميدان المعركة[3].

ونتيجة للعوامل السابقة التي ذكرت، ازدهرت العلوم بـــشتَّى ألوانهـــا، وفـــي الحقول المختلفة، وغلب على المؤلِّفين والدَّارسين الاتجاه الدينيّ واللغـــويّ والأدبـــيّ والتاريخيّ، واتَّسمت بحوثهم بالشُّمول والموسوعيّة، وكثـــرت المجـــاميع والـــشروح والمعاجم[4]. وقد كان عصر الموسوعات الكبرى والمتون العلمية المنظومة، وكتـــب التاريخ والطبقات الشهيرة، والشروح المبسوطة على النصوص التراثيّة المهمّة، وليس كما يُذكَر بأنَّهُ عصر الظلمة[5].

5.1 الحياة السياسيّة

كان العالم الإسلاميّ إبَّان الغزو المغوليّ مقسَّماً بين قوى سياسيّة رئيسة هـــي: دولة الخلافة العباسيّة – التي تقلَّص نفوذها – وحاضرتها بغداد، الدولة الخوارزميّـــة

---

(1) انظر فليح، مناهل فخر الدّين: التعليم في ظلّ دولة المماليك، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن جامعة الموصل، ع10، سنة 1979م، ص386.

(2) الدروبي، سمير محمود: حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمـــع اللغة العربيّة الأردنيّ، ع62، سنة 2002م، ص16.

(3) انظر المرجع نفسه، ص20.

(4) انظر مناهل فخر الدّين: التعليم في ظلّ دولة المماليك، ص387.

(5) انظر ناجي، هلال: سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجريّ، مجلـــة مجمـــع اللغة العربيّة الأردنيّ، ع 63، السنة 26، 2002م، ص196.

في البلاد التي تمتدّ من العراق حتّى حدود التركستان[1]، ودولة المماليك في مصر، والدولة الأيوبيّة في أجزاء من الشّام.

واجه العالم الإسلامي في تلك الآونة أخطاراً سياسيّة داخليّة وخارجيّة، أمّا الداخليّة فتمثّلت بالضعف والانقسام بين الدول الإسلاميّة، وتبدّل الحكّام وضعفهم، فضلاً عن الفتن التي كثرت بين النّاس؛ هذا بمجمله أدّى إلى حدوث الأخطار الخارجيّة والتي تتمثّل بخطرين كبيرين هما: خطر الغزو الفرنجي، وخطر الغزو المغولي للأراضي الإسلاميّة.

فقد عُدَّ عصر المماليك بحقٍّ عصر مقاومة وجهاد، وهو من هذه الناحية امتداد لما بدأه الزنكيُّون والأيّوبيون، غير أنّه يمتاز بكثرة المتكالبين على الأمّة الإسلاميّة، إذْ واجه المماليك بقايا الصليبيين الذين كانوا قد ثبّتوا لأنفسهم وجوداً قويّاً عزّزوه بكثيرٍ من القلاع والحصون والموانئ، ومكّنوا لاستعمارهم بأعدادٍ كبيرةٍ من الغزاة. كما واجه المماليك هجمة المغول العاتية التي نكبت الأمّة بإسقاط الخلافة، وهدمت ركناً من أركان الحضارة الإنسانيّة بما أدت إليه من حرقٍ وإتلافٍ للكتب والمكتبات.

تتبّعت الآثار الأدبيّة أخبار التتار بالتفصيل، فقد وصفت المصادر تحرُكات التتار وصفاً كاملاً، كما اشتركت في ذلك كتب الأدباء أنفسهم ولا سيّما الذين لازموا السّلاطين والحكّام، وكذلك كتب التراجم والسِّير.

لقد كان الغزو المغوليّ عنيفاً، وكارثةً عامّة استطاعت أن تغيّر وجه البسيطة بأجمعه، وأصابت الجنس البشري بكثيرٍ من الشُّرور[2]، وهذا العنف هو الذي دفع ابن الأثير إلى القول عند تأريخه لهذا الغزو ((لقد بقيتُ عدّة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدّم إليه رِجْلاً وأؤخِّر أُخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمّي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها وكنت نسياً منسيّاً))[3].

---

(1) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 126/12، 371.

(2) انظر براون، إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب العربيّ في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربيّة إبراهيم أمين شواربي، مطبعة السعادة – مصر، 1954م، ص546.

(3) ابن الأثير: الكامل، 358/12.

وعمل الأدباء على ذكر هذه الحادثة الأليمة، يقول ابن خلكان: ((فإنّ لله وإنّا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتفتّ في العضد، وتوهي الجلد، وتضاعف الكمد، وتشيب الوليد، وتنحب لبّ الجليد، وتسود القلب، وتذهل اللّب...))[1].

ففي سنة 650هـ أرسل القائد المغولي منكوقان[2] حملة عسكريّة بقيادة أخيه هولاكو[3] لفتح بقية الممالك التي لم تخضع لسيطرة جنكيزخان[4] في إيران والعراق والشّام ومصر[5]، وفي سنة 651هـ غادر هولاكو ثكناته إلى تلك الديار[6]، فبدأ بالسيطرة على قلاع الإسماعليّة في إيران سنة 654هـ[7]، ثمّ تهيّأ لقصد العراق، وفي

---

(1) ابن خلكان، شمس الدّين أحمد بن محمّد (ت681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر – بيروت، 1977م، 186/5.

(2) منكوقان بن تلي خان بن جنكيزخان: هو الرابع من ملوك المغول، توفي سنة 658هـ. انظر النويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمّد محمّد أمين وآخر، مركز تحقيق التراث، 1992، 346/27.

(3) هولاكو بن تلي خان بن جنكيزخان ملك التتار، ويسمّى هلاون وهلالو، جلس على تخت الملك سنة 658هـ، توفي في مدينة مراغة سنة 663هـ. انظر العيني، محمود بن أحمد (ت855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، تحقيق محمّد محمّد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، 1987م، 413/1-414.

(4) جنكيزخان: يُعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة المغولية سنة 599هـ، ولم يكن للمغول ذكر قبله، أزال الدولة الخوارزمية وقتل الكثير من المسلمين، وكانت مدة ملكه 25 سنة، توفي سنة 624هـ. انظر الكتبي، محمّد بن شاكر (ت764هـ): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر – بيروت، 1973م، 301/1-303.

(5) انظر الهمذاني، رشيد الدّين فضل الله (ت716هـ): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، 1960م، م2، 234/1؛ انظر النويري: نهاية الأرب، 379/27؛ انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص383.

(6) انظر الهمذاني: جامع التواريخ، م2، 238/1.

(7) انظر المصدر نفسه، م2، 254/1-256؛ انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 85/1-86؛ انظر الكتبي، محمّد بن شاكر (ت764هـ): عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد – بغداد، 1980م، 131/20.

ذلك الوقت كان الخليفة العباسي المستعصم بالله[1] آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان يصفه المؤرِّخون قليل المعرفة والتدبير والتيقّظ، وقام بأمره أهل الدولة حسَّنوا له جمع الأموال[2]، ويبدو أنَّ هذا الخليفة لم يكن يلقي بالاً لِمَا يدور حوله في داخل البلاد وخارجها[3]، ففي الداخل كانت الفتن منتشرة وبخاصةً بين أهل السنّة والشيعة[4]، وكانت الأحقاد تأكل قلوب كبار المتنفّذين[5]. وقد وُصِفَ المستعصم بأنّهُ كان ضعيف الرأي، جعل مقاليد الأمور بيد كبراء دولته الذين أساءوا ولم يحسنوا فيما أشاروا به ودبّروه[6]. وكانت الوزارة في عهده للوزير ابن العلقمي[7]، الذي أشار

---

(1) ولد سنة 609هـ بويع بالخلافة سنة 640هـ، قتله هولاكو بعد دخول بغداد في آخر محرم سنة 656هـ. انظر الذهبي، أبو عبد الله شمس الدِّين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ): العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدِّين المنجد، وزارة الإرشاد والأنباء – الكويت، 1966م، 3/280-281.

(2) انظر ابن الطقطقا، محمّد بن علي بن طباطبا (ت709هـ): الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة، دار صادر – بيروت، 1966م، ص333؛ انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص312.

(3) انظر ابن العبري، أبو الفرج نمر غريغوريوس الملطي (ت685هـ): تاريخ مختصر الدول، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني – لبنان، 1983م، ص254؛ انظر ابن الطقطقا: الفخري، ص333.

(4) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص524، 277؛ وانظر ابن كثير: البداية والنهاية، 196/13.

(5) انظر المصدر نفسه، ص294، 305.

(6) انظر السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ): تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة – مصر، 1952م، ص466؛ انظر أبو الفداء: المختصر، 171/3.

(7) هو محمّد بن محمّد بن علي، أبو طالب الوزير مؤيّد الدِّين بن العلقمي، ولي الوزارة أربع عشرة سنة، وقع بينه وبين الدوادار وابن الخليفة ضغائن، جعلته يسعى إلى خراب بغداد بمكاتبة التتار، وقد مات سنة 657هـ. انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 212/13؛ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 20/7.

عليه بتسريح قسم كبير من جيشه، وقطع المال عن الجند ممّا اضطرهم إلى الرّحيل عن العراق، واستجراء النّاس في الطرقات[1].

وقد حاول المستعصم تدارك الأمر، ولكن بعد فوات الأوان، فعندما استيقن من قصد التتار بلاده، أرسل إلى الأيوبيين مستنجداً، إلاّ أنَّ بغداد سقطت قبل تحرّك العساكر الشاميّة[2]. وقد بلغ ضعف الهمّة بالمستعصم إلى الحدِّ الذي جعله يقول لمن حذّره من اقتراب المغول: ((أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها عليَّ، إذْ نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليَّ وأنا بها، وهي بيتي ودار مقامي))[3].

سار هولاكو في جحفل عظيمٍ قاصداً بغداد، فاستولى عليها وقتل الخليفة سنة 656هـ[4]، وبذلك سقطت دولة الخلافة، وعلى إثر ذلك حمل الخوف من المغول بعض الحكّام على تقديم الولاء والطّاعة للمغول، ومنهم بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل الذي سار إلى هولاكو مهادناً ومعه الهدايا، ومفاتيح القلعة والمدينة[5]، وبعد ذلك أخذ المغول يعدُّون العدَّة للاستيلاء على الشّام التي كانت خاضعة في قسمٍ كبيرٍ منها للأمراء الأيوبيين، وعلى رأسهم الملك الناصر صلاح الدِّين يوسف[6] صاحب حلب ودمشق، وأكثرهم قوةً واقتداراً، إلاَّ أنّه لم يعمل على منع المغول من التوغُّل في الشّام، وذلك عندما استعان به الأشرف بن الملك غازي بن الملك العادل صاحب

---

(1) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص320-321؛ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 48/7.

(2) انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 173/1.

(3) الهمذاني: جامع التواريخ، م2/ ق1، ص269.

(4) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص322.

(5) انظر ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص482-483؛ انظر العيني: عقد الجمان، 178/1-179.

(6) الناصر صلاح الدِّين يوسف بن غازي بن أيوب، آخر ملوك بني أيوب، ولد سنة 627هـ، وتولى السلطنة سنة 634هـ، كان ملكاً جواداً، حسن الأخلاق، ومحبّباً إلى الرعية، أسره التتار بعد دخولهم الشّام سنة 658هـ ثم قتلوه بعد عين جالوت سنة 659هـ. انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 140/2.

ميافارقين(1)، بل على خلاف ذلك استعان بأعداء الإسلام والمسلمين ليأخذ مصر من المماليك، وقدّم الخضوع والتبعيّة لهولاكو، وبالرّغم من ذلك تحرّك هولاكو بجيشه يريد احتلال بلاد الشّام؛ لذا أصبح موقف الملك النّاصر صلاح الدِّين يوسف حرجاً فهو لا يقوى بمفرده على قتال التتار، فهرب إلى قلعة دمشق وتفرّقت عساكره، وهكذا أصبحت الشّام فريسةً سهلةً للمغول(2).

كانت حملةُ التتار على البلاد الإسلاميّة حملة قاسية لم يعرف التاريخ مثلها، ففي دخول التتار بغداد سنة 656هـ ((أغلقت أبواب مدينة بغداد وأحاط بها التتار، وضايقوها بالحصار، فاقتحموها عنوةً ودخلوها غدوةً في العشرين من المحرم من هذه السنة، فبذلوا في أهلها المناصل، وأوردوهم من حياض الموت أمرَّ المناهل، وأكثروا ... واليتامى والأرامل، ولم يرحموا شيخاً كبيراً ولا طفلاً صغيراً...))(3).

لم تكتفِ أصحاب المصادر الأدبيّة والتاريخيّة الذين عاصروا الغزو فقط بالإشارة إلى الغزو، بل حتّى بعض المتأخّرين أكّدوا كونها فادحة عظيمة، ومرضاً جسيماً للإسلام ((وكانت بليّة عظيمة لم يُصب الإسلامُ بمثلها))(4).

وفي سنة 657هـ سار هولاكو إلى البلاد الواقعة شرقي الفرات، ونازل حرّان(5) وملكها، واستولى على البلاد الجزيريّة(6)، ونزل التتار على مدينة حلب في سنة 658هـ، حيث حاصروها ونهبوا أموالها وقتلوا أهلها(7)، ثمَّ تصدَّى لهم أبطال

---

(1) ميافارقين: هي أشهر مدينة في ديار بكر. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة (ميافارقين).

(2) انظر أبو الفداء: المختصر، 200/3؛ انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 248/13.

* لفظة غير واضحة من المصدر.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص41.

(4) القرماني، أحمد بن يوسف (ت1019هـ): أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب – بيروت، 1992م، 198/2.

(5) من مدن الجزيرة، تقع على طريق الموصل والشام والروم. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة (حرّان).

(6) انظر أبو الفداء: المختصر، 199/3؛ انظر ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص486.

(7) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص422.

أشاوس حقّقوا أنبل الانتصارات، فقد خرج قطز وعساكره مجتمعين على إعلاء كلمة الله، مصمّمين على دحرِ العدو وطرده، فكان النصرُ حلْيفاً للمسلمين بتأييد من الله عزَّ وجل ((وكشف الله هذه الكربة بعزم الترك، وأرغم ببأسهم أُنوف الشِّرك، فهي أول الوقائع التي هموا بتلافيها والملاحم التي أبلوا فيها...))[1].

لقد كان انتصار المسلمين في وقعة عين جالوت سنة 658هـ من أهم الانتصارات التي قضت على الاعتقاد السائد بأنَّ التتار قوم لا يغلبون، فضلاً عن أنّها أنقذت مصر من الوقوع تحت سيطرة المغول. فقد كانت هزيمة التتار على يد المسلمين ضربةً قاصمةً بعدما كانت القلوب قد يئست من النصرة عليهم ((لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلاّ فتحوه، ولا عسكراً إلاّ هزموه))[2].

وفي سنة 659هـ كسر المسلمون التتار في وقعة حمص، حيث خرج المسلمون للقاء التتار الذين بلغ عددهم ستة آلاف فارس، بينما كان عدد المسلمين ألفاً وأربعمائة فارس، واستعان المسلمون بقوة الله، ((وحملوا عليهم حملة رجلٍ واحدٍ حقّق الله بها سؤالهم، وحسن عاقبتهم ومآلهم...))[3].

واستولى التتار على مدينة سِنْجار[4] في سنة 660هـ، حيث خرّبوا سورها وقلعتها[5]. وفي سنة 672هـ فتح الظاهر بيبرس قيسارية[6] من بلاد الروم، واقتلعها

---

(1) بيبرس المنصوري، ركن الدّين الخطائي (ت725هـ): التحفة الملوكيّة في الدولة التركيّة، قدّم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية – القاهرة، ط1، 1987م، ص44.

(2) أبو الفداء: المختصر، 205/3.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 435/10.

(4) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيّام، معجم البلدان، 262/3.

(5) انظر ابن شدّاد، عزّ الدّين محمّد بن علي (ت684هـ): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهّان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية – دمشق، 1953م، ج3، ق1، ص155.

(6) بلد على ساحل الشّام وهي أيضاً مدينة كبيرة في بلاد الروم. انظر الحموي: معجم البلدان، 421/7.

من أيدي التتار، فكانت غزوة عظيمة حطّمت التتار وأبادتهم ((وتالله ما وُرِّخ مثلها في التواريخ الأول))[1].

وفي سنة 674هـ جرَّد الملك أبغا[2] جيشاً إلى مدينة البيرة[3] واحتلها[4]، وفي سنة 699هـ سار القائد المغولي غازان[5] بجيوشه إلى بلاد الشام، فالتقى بالجيش الإسلامي بقيادة الملك النّاصر محمّد بن قلاوون[6] في وادي الخزندار[7]، فكانت الهزيمة على المسلمين، واحتلّ غازان حمص ودمشق[8]، مع العلم أنّ النّصر في بداية

---

(1) القلقشندي، أبو العبّاس أحمد بن علي (ت821هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلّق عليه محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1987م، 158/14.

(2) أبغا بن هولاكو خان، حكم بعد والده ثمانية عشر عاماً، ويقال: إنّهُ كان ذا كفاية وعلم ودراية، توفي مسموماً عام 680هـ على يد بعض أهله. انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 297/13؛ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 348/7.

(3) بلد بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة. انظر: الحموي: معجم البلدان، 526/1.

(4) انظر ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، منشورات الجامعة الأمريكية – بيروت، م7، ص41.

(5) محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو، تولى الملك سنة 693هـ، وحسن له نائبه نوروز الإسلام فأسلم سنة 694هـ، توفي بالقرب من همذان سنة 703هـ. انظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ): تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير الصمصام، منشورات وزارة الثقافة – سوريا، 1992م، 202/2.

(6) التاسع من سلاطين المماليك، ولد في محرم سنة 684هـ، وكان ابتداء ملكه سنة 693هـ، خُلِعَ من السلطنة ثلاث مرّات، ثمّ استقرّ في الحكم، توفي سنة 741هـ. انظر الذهبي، شمس الدين محمّد بن عثمان (ت748هـ): ذيول العبر في خبر من ذهب، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت، 124/4.

(7) وادٍ بين حمص وسَلَمَية. انظر الذهبي: العبر، 394/3.

(8) انظر الصفدي: تحفة ذوي الألباب، 195/2.

الأمر للمسلمين إلاّ أنّهُ تحوّل إلى هزيمة؛ لأنّه ((لم يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار، ولا كأنّهم عندهم عدوّ))(1).

ويظهر لي أنَّ استهانة المسلمين بالعدو كان سبباً هاماً في تحويل النصر إلى هزيمة، وانتصار الطغاة الباغين ((فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وذلك بعد الهصر*، وحصل للمسلمين حصر، وأيّما حصر...))(2).

لقد كانت قاسية على المسلمين ولكن لا بُدَّ من تدارك الأمور ومحاولة الإصلاح والظفر: ((فإنَّ هذه الفتنة التي جرت، وإن كانت مؤلمة للقلوب، فما هي إن شاء الله إلاّ كالدواء الذي يُسقاه المريض ليحصل له الشفاء والقوة))(3).

وفعلاً تدارك المسلمون الهزيمة التي ألمَّت بهم ليسجّلوا انتصاراً عظيماً في سنة 702هـ في واقعة مرج الصُّفر(4) فكانت غزوة عظيمة زرعت الثقة في النفوس من جديد وغيَّرت الأحوال، ((هذه الغزوة المبرورة، والحركات التي عدّت حسناتها في صحائف القبول مسطورة، والسفرة التي أسفرت بحمد الله عن الغنيمة والسلامة...))(5)، وقضي على أغلب جيش التتار في هذه الموقعة، وعلم غازان بهزيمة جيشه، فانتشر الحزن في بلادهم، وأرسل الملك النّاصر محمّد إلى غازان بعد

---

(1) الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك: كنز الدُّرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت رويمر، إصدار قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار – القاهرة، 1960م، ص15.

* الهصر: الكسر. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم (ت711هـ): لسان العرب، دار صادر – بيروت، د.ت، م5، ص309.

(2) الدوادراي: كنز الدُّرر، ص17؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص886.

(3) ابن تيميّة، تقيّ الدّين أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ): رسالة إلى السلطان الملك النّاصر في شأن التتار، نشرها صلاح الدّين المنجد، دار الكتاب الجديد – بيروت، ط1، 1976م، ص12.

(4) مرج الصُّفر: بالضم وتشديد الفاء، موضع بدمشق. انظر الحموي: معجم البلدان، 101/5.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1028.

هزيمة جيشه في وقعة مرج الصُّفر رسالةً أخبره فيها بما جرى على جيوشه التي امتلأ من قتلاهم فسيح الأرض، والفضاء حتَّى عافت لحومهم الوحوش[1].

وفي سنة 795هـ استولى تيمورلنك[2] على بغداد ((وفعل بها فعالاً قبيحة من القتل والأسر والنَّهب))[3]. وقد أشار ابن عربشاه إلى توجّه تيمورلنك نحو بغداد بقوله: ((ثمَّ انحدر إلى بغداد بعساكر كالذر والفِرَاس كالجراد))[4]. لقد خرَّب تيمورلنك مدينة بغداد، هذه المدنية البهيَّة التي طالما تعرَّضت للغزو المغولي، حيث قتل أهلها وحرق مبانيها، وحلَّ الخوف والحزن على من بقي من أهلها على قيد الحياة[5].

قصد تيمورلنك بلاد الشّام سنة 803هـ، حيث اقتحمت عساكره مدينة حلب، وأشعلوا النيران بها، ونهبوا وأسروا وسفكوا الدِّماء، بحيث أصبحت حلب مظلمة كالليلة الدهماء[6].

نجد أنّ جميع الحملات المغولية على العالم الإسلامي تمتاز بالقسوة والعنف، ممّا جعل الأمّة تنسى كلَّ المصائب قبلها، فضلاً عن أنَّها حقّقت أهدافها في تعطيل سير الحياة الاجتماعيّة بتدمير سكان المدينة وتشريدهم، وإجلائهم عن أماكن سكناهم، فأصبح من المتعذّر جداً على أهلها الذين هجروها أن يعودوا إليها بسهولة، بعد أن

---

(1) انظر المصدر السابق، ج1، ق3، ص939.

(2) مغلي الأصل من طائفة جغتاي، ولد سنة 728هـ، وأصبح أميراً عند السلطان حسين صاحب بلخ، وتزوّج ابنته، ثمَّ خرج عليه وقتله، وعَظُمَ أمره فملك ما وراء النهر، وسمرقند وخراسان، والهند، وامتدَّ ملكه إلى الجزيرة وديار بكر والعراق، وحلب ودمشق، توفي أثناء غزو بلاد الصين سنة 807هـ. انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 201/12.

(3) ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين ابي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الدمشقي (ت851هـ): تاريخ ابن قاضي شهبة تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية – دمشق، 1977م، 475/3.

(4) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص117.

(5) انظر المصدر نفسه، ص119.

(6) انظر ابن الصيرفي، نور الدين علي بن داود الجوهري (ت900هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزَّمان، تحقيق حسن حبشي، وزارة الثقافة – القاهرة، 1970م، 75/2.

أصبحت أطلالاً بالية، خالية من السكّان، والأمراض متفشّية فيها لكثرة ما بها من جثث القتلى. وقد كان النثر الفني العربي مواكباً لمعظم الوقائع بين المسلمين والمغول، مسجِّلاً الانتصارات والهزائم، وأعمال الدَّمار والعنف وسفك الدِّماء.

الفصل الثاني

المراسلات والعلاقات بين سلاطين المسلمين وملوك المغول

1.2 المراسلات بين سلاطين المسلمين وملوك المغول

1.1.2 الرسائل الدبلوماسيّة

اتّسمت العلاقة بين المماليك والتتار بالعداوة المستحكمة، وقد مثّلت تلك العداوة المراسلات بين الطرفين، حيث شكّلت تلك المراسلات ما يسمّى بأدب الحـــرب، فقـــد اتّخذ التتار من رسائلهم لسلاطين المماليك وسيلة للوعيد والتهديد والترهيب، وحـــرق الأعصاب. فقد تباهى التتار بكثرتهم، وشجاعتهم، وحاولوا أن يُدخلوا في نفس المرسل إليهم الفزع والرَّهبة، ودعوهم إلى الدخول في طاعتهم، والانقياد لِمَا يطلبوه منهم. وقد قُوبلت تلك الرسائل بالغضب والتهديد من جانبِ المماليـــك، والاســـتهزاء والـــسُّخرية أحياناً.

ومن الجدير ذكره، أنّ الحملة المغوليّة على بلاد الإسلام لم تكن مكوَّنـــة مـــن المغول وحدهم، فقد كان يسعى إلى أن ينضوي تحت لوائها كلُّ من امتلأ قلبه بالخشية منهم، أو كلُّ طامعٍ في حليف يعينه على تحقيق مآربه(1). وقد ظهر في النثر العربـــي صورة جيش المغول بأخلاطه وأحلافه، ومن كان ينضمّ إليهم من أعداء الإسلام مـــن فرنج، وأرمن، وكرج، وروم، وغيرهم، وكذلك من المسلمين الذين ضعفت نفوســـهم، ووجدوا في المغول قوة يستطيعون من خلالها أن يحقّقوا مآربهم السياسيّة، والدينيّـــة، والاقتصاديّة التي كانوا يطمعون بها، ومنهم من كان يخشى بأس المغـــول وعـــنفهم، فلجأوا إلى مهادنتهم، ومعاونتهم كي ينجوا من القتل المحقّق إذا ما ظفرت بهم عساكر المغول. وقد صوَّر النثر الجرائم التي ارتكبها بعض أحلاف المغول بحقّ المـــسلمين، وعمل على إثارة همم المسلمين للتصدّي لتلك الأحلاف، ودعا إلى ضربها ضـــرباً لا هوادة فيه.

لقد طمح التتار إلى ضمِّ دولة المماليك في مصر والشام إلى بـــاقي ممـــالكهم، فكان من أُولى المراسلات بين المماليك والتتار الرسالة التي بعث بها الملك هولاكـــو

---

(1) انظر جرّار، مأمون فريز: أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن الـــسابع إلـــى التاسع الهجري، نشر وتوزيع مكتبة الأقصى – عمّان، ط1، 1983، ص89.

إلى السلطان قطز، مبدياً فيها صنوفاً من التهديد والوعيد، فقد حشد فيها منشئها ما يستطيع من عبارات التهديد والوعيد.

بدأ هولاكو رسالته بتذكير المماليك بكونهم عبيداً هربوا من سيوف المغول، مدَّعياً بأنّه وجيشه جند الله يسلِّطهم على مَن يشاء من عباده الظالمين، كما ذكَّرهم بما حلَّ بالبلاد التي رفض أهلُها النزول على ما يريده من قتل وتدمير، زاعماً أنَّ ذلك تطهير لتلك البلاد من الفساد. قال: ((يعلم الملك المظفَّر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم ... إنّا نحن جُندُ اللهِ في أرضهِ، خُلقنا من سخطه وسلَّطنا على من حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد مُعتبر، وعن عزمنا مزْدجَر، فاتَّعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقُّ لمن شكا. وقد سمعتم أنّنا فتحنا البلاد، وطهَّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب"[1].

وبعد هذه المقدّمة خاطب هولاكو قُطز محاولاً إدخال الرَّهبة في نفسه مستعرضاً قوَّته، وقدرته بما يملكه جيشه من عدَّة للحرب، وبما له من جيوش تندفع كالسُّيول، مذكِّراً إيَّاه بأنّ لا جدوى من الهرب أو التحصُّن، قال: ((فأيّ أرضٍ تؤويكم، وأيّ طريقٍ تنجِّيكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع))[2].

والطريف في هذه الرسالة أنّ هولاكو حاول إدخال الوهن إلى نفوس المسلمين عن طريق الدِّين، فادَّعى أنَّ المماليك لا يمتُّون إلى الإسلام بصلة، فهم لا يتناهون عن منكر؛ يحرِّمون الحلال، ويحلُّون الحرام، ويسفكون الدِّماء، ولا يوفون بالعهود على حدِّ زعمه، وهو بذلك يحاول أن يخفِّفَ من ثقتهم بنصر الله لعبادهِ المؤمنين، وغير خفيّ أنّ لذلك ما له من الأثر في المعركة. وللوصول إلى هذا الأثر حشد الكاتب كثيراً من الآيات القرآنيّة في سياق رسالته. قال: ((دعاؤكم علينا لا ينفع، فإنَّكم أكلتم الحرام، ولا تعفّون عن الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص427.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص428.

بالمذلّة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون**))[1].

ثمّ عاد هولاكو إلى التهديد المباشر، عارضاً على المماليك التسليم له والدخول في طاعته، حاضّاً لهم على ذلك بما يوفّره لهم من منع سفك دمائهم، والتساوي معهم في الحقوق، وحسن المعاملة إنْ أذعنوا. قال: ((فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذّر من أنذر))[2].

وأنهى هولاكو رسالته إلى قطز بتذكيره أنّ المواجهة لا تفيد، والقوة لا تنفع، مطالباً بسرعة ردّ الجواب، مهدّداً بأنّهم إنْ لم يُذعنوا لمطالبه فليس لهم إلاّ الذلّة والهوان، وجاء في ختامها بيتان من الشعر فيهما اللهجة ذاتها، وقال: ((فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا بردّ الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منّا جاهاً ولا عزّاً، ولا كافياً ولا حِرزاً، وتُدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذْ راسلناكم، وأيقظناكم إذْ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم))[3].

إنّ الكتابَ السابق الذكر، مليءٌ بالوعيد والتهديد، وهدفه تحطيم الثّقة بالنّفس لدى المسلمين. ((لقد كانت جمل الكتاب قصيرة، متتابعة، ذات نسق موسيقي مخيف، ألفاظها متوعّدة، منذرة، تشير إلى قوة المغول وغرورهم، وتقليلهم من شأن خصمهم. اتّكأ كاتب الرسالة على الأسلوب الشائع آنذاك من التزويق والصنعة والاستشهاد بالآيات القرآنيّة والشّعر))[4].

---

* سورة الأنعام، الآية (93).

** سورة الشعراء، الآية (227).

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص428.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص428-429.

(3) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص427-429.

(4) الحمامرة، ذكريات سليمان موسى: صدى الغزو المغوليّ في النثر الفنيّ العربيّ من القرن السابع الهجريّ حتى أوائل القرن التاسع الهجريّ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1996م، ص28.

والنَّاظر في تلك الرسالة يجد غلظة الحرب ومكرها، فاستعراض القوى العسكرية، وخشونة التعامل، والتهديد والوعيد تضعف قوى الخصم، لكنَّ الأمرَ ليس كذلك بالنسبة للمماليك، حيث أثارت هذه الرسالة ثائرة قطز، وحفَّزته إلى أن يحفِّز النّاس لدفع شرّ التتار عن بلادهم. وقد اكتفى قطز بالردّ على تلك الرسالة بالفعل لا بالقول، فبعد أخذ رأي أُمرائه قام بقتل رُسل هولاكو جميعاً، مقدّماً السيف على اللسان.

وأرسل هولاكو رسالة أُخرى سنة 659هـ إلى الملك النَّاصر[1] يوسف يقول فيها: ((إنَّا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ... وقتلنا فرسانها، وهدّمنا بنيانها، وأسرنا سكّانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز*: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. واستحضرنا خليفتها، وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم. استوجب منّا العدم. وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرِّجال...، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال... إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك، وأموالك وفرسانك إلى طاعةِ سلطان الأرض ... تأمن شرّه، وتنل خيره ...))[2].

كان كتاب هولاكو قويّاً يحمل التهديد والإنذار والإرعاد والوعيد ككتابه السابق، فقد هدَّد هولاكو الملك النّاصر يوسف بتسليم الشّام؛ لبسط نفوذه عليها، وإلاَّ كان مصيره كمصير الخليفة المستعصم.

والكتاب – في جملته – رصين الأُسلوب، محكم البناء، سديد العبارات، اتَّكأ فيه الكاتب على السَّجع والمقابلة، ومزاوجة الألفاظ، وتوشية الكلام بالآيات القرآنيّة، والأبيات الشعريَّة. تلك الأبيات التي بدا فيها أُسلوب التحذير وأخذ الحيطة والحذر وتوقِّي زوال النعمة.

---

(1) الناصر يوسف: هو الملك النّاصر صلاح الدِّين يوسف بن محمّد بن الظاهر بن غازي بن السلطان صلاح الدِّين، ولد سنة 627هـ، صاحب الشّام، قتله هولاكو سنة 659هـ. انظر الذهبي: العبر، 256/5.

* سورة النحل، الآية (34).

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص415.

وفي قوله: ((فسارع برجالك وأموالك وفرسانك))[1] تنبيه، وكأنّما يريد أن يقول كاتبها للملك النّاصر يوسف: خذْ أُهبتك لملاقاة عدو غاشم، وتهيّأ لردّ عاتٍ آتيك لا محالة.

((وقد شرع هولاكو رسالته بالتركيب ((إنّا نحن))، الذي يوحي بالإجلال والعظمة، العظمة التي نسبها هولاكو لنفسه غروراً وإكباراً))[2]. ويختتم هولاكو رسالته ببيتين من الشِّعر يلاحظ من خلالهما أيضاً الغرور والتجبُّر والاعتزاز بالنَّفس، وبثّ الرُّعب في قلوبِ المسلمين وتحطيم الرُّوح المعنويّة لديهم:

أيْنَ النَّجَاةَ وَلا مَنَاصَ لِهَارِبِ ... وَلِي البَسِيطَانِ: الثَّرَى والمَاء

ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنَا الأُسُودُ وأصْبَحَتْ ... في قَبْضَتِي الأُمَرَاءُ والوُزَرَاء[3]

ويبعث هولاكو رسالة إلى أهلِ حلب لمّا اقترب منها قبيل احتلاله إيّاها – يُلاحظ فيها التجبُّر والغرور– قائلاً: ((إنّكم تضعفون عن لقائنا ونحن نقصد سلطانكم، فاجعلوا لنا عندكم شحنة*، فإنْ كانت النصرة لنا فالبلادُ كلُّها في حكمنا، وإن كانت علينا، فإنْ شئتم قبلتم الشحنة وإن شئتم أطلقتموه))[4].

فردَّ عليه أهل حلب ردّاً قصيراً من حيث عدد الكلمات، قويّاً في فحواه، حيث قالوا: ((ما له عندنا إلاّ السّيف))[5].

وفي رسالة أُخرى من هولاكو إلى الملك النّاصر – صاحب حلب – يقول فيها: ((أمّا بعد: فنحن جنود الله بنا ينتقم ممّن عنّا تجبّر وطغى وتكبّر، وبأمرِ الله ما ائتمر. إنْ عُوتب تنمّر، وإنْ رُوجِعَ استمرّ وتجبّر. ونحنُ قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النسوان والأولاد، فأيُّها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيُّها

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص415.

(2) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص31.

(3) المصدر نفسه، ط1، ق2، ص415.

* الشحنة: جماعة من العسكر الشرطة يسمّى قائدها رئيس الشحنة. انظر: دهمان، محمّد: معجم الألفاظ التاريخيّة، دار الفكر، دمشق، 1990م، ص96.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 218/13.

(5) المصدر نفسه، 218/13.

الغافلون أنتم إليه تُساقون، ونحن جيوش الهلكة لا المملكة، مقصودنا الانتقام، ومُلْكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفرّ ...، دمَّرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب، وجعلنا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً، أتحسبون أنَّكم منّا ناجون أو متخلِّصون؟ وعن قليل سوف تعلمون على ما تقدمون. وقد أعذر من أنذر. والسَّلام))(1).

يؤكِّد هولاكو في كتابه على حقيقةٍ متأصِّلة في ذهنه أنَّهُ مبعوثٌ من عند الله لعقاب كلِّ من تكبَّر وتجبَّر، ومن ثمّ يسترسل في تهديده والإقرار بقوَّته وعنفوان حُكمه، ويطلب من المسلمين – بصورة غير مباشرة – العظة من غيرهم قبل أن يقعوا في تجبّر هولاكو، وذلك بعرضه لأعمال الدَّمار والتخريب من قِبَل جيشه، وأعمال الموت والقتل بلا رحمة، فهم وحوش كاسرة تفتك بالفريسة دون رأفة.

وقد بعث قوّاد جيش هولاكو رسالةً باسمه للملك السعيد ملك ماردين لمَّا حاصروه في قلعته وقبل أن يبدأ القتال الفعلي بين الطرفين، يقول فيها: ((اهبط من القلعة وقدِّم الطَّاعة والولاء لملك العالم ليبقى لك رأسك ومالك ونساؤك وأبناؤك.

مهما تكن قلعتك مرتفعة

فلا تغترّ بأبراجها وارتفاعها

ولو بلغت رأسك السماء فإنَّها ستصير تراباً تحت أقدام جيش المغول، فإنْ كان الإقبال والسعادة حليفين لك، فعليك أن تستمع لنصحي وتعمل بموجبه. أمّا إذا لم تستمع وخالفت أوامري، فالله المتعال أعلم بما يحدث))(2).

إنَّ الغرور والتجبُّر والاستعلاء والقسوة سمة واضحة، ومميزة تسيطر على ملوك التتار أجمعين، ولا سيَّما في رسائلهم. ففي الرسالة السابقة يطلب من الملك السعيد أن يقدِّم الولاء والطَّاعة حتّى يأمن حياته وما قد يؤول إليه مصيره.

---

(1) ابن العماد، شهاب الدِّين أبو الفلاح عبد الحيّ الحنبلي الدمشقي (ت1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي – القاهرة، 1351هـ، 5/272-273.

(2) الهمذاني: جامع التواريخ، ج2، ق1، ص324-325.

وكان جواب الملك السعيد عليه بقوله: ((كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنّكم قد عاهدتم الآخرين ثمّ قتلتوهم بعد أن اطمأنوا إلى عهدكم ووفائكم، فإنّي الآن لا أثق بكم، وإنّ القلعة – بحمد الله – مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد))[1].

انهارت عزيمة الملك السعيد، وارتعشت فرائصه، وأخذ الخوف منه مأخذاً، فعزم على التسليم والانقياد لأوامر هولاكو، لكنَّ بعدما علم أنّ هولاكو ينقض عهده لمن يؤمنه صمَّم على المقاومة.

ومن رسائل التهديد التي وجّهها المغول إلى المماليك، رسالة ملكهم أبغا، إلى بيبرس بعد أن هزمهم الأخير في وقعة الأبُلُسْتَيْن[2] وقتل منهم عدداً كبيراً، وكانت رسالة أبغا تشتمل على التعريض بجُبن بيبرس وخشيته من المواجهة. فقد قال ساخراً: ((إنَّكم تنقضُّون فجأة كاللصوص، وتطاردون فرساننا وطلائعنا، وتقتلون بعضهم، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحرّكنا لصدّكم تفرُّون كاللصوص، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا، فادخلوا الميدان كالرجال، وثبّتوا الأقدام))[3].

وعلى الرغم ممّا في هذه الرسالة من وعيد شديد اللّهجة، يُتوقّع منه خوف بيبرس، فإنّ ردّه كان أشدُ وقعاً، فأرسل إليه يهدّده بأنّه سيظلُّ يقاتلهم حتّى يحرّر جميع ما استولوا عليه من بلاد المسلمين. قال بيبرس: ((لا أزال حتّى أنتزع منه جميع البلاد التي استحوذ عليها، من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض))[4].

وبقيت علاقة التتار مع السلطان الظاهر بيبرس تدور في فلك الحرب والمطاردة، حيث تابع فلولهم حتّى ضفاف الفُرات، وقد بعث أبغا برسالة أُخرى إلى السلطان الظاهر يهدّده فيها، مذكِّراً إيَّاه بمقتل الرُّسل، متوعِّداً له بسوء العاقبة، فجاء فيها: ((بقوة الله تعالى وبإقبال قاآن فرمان أباقا يعلم السلطان ركن الدِّين أنّه لأجل أن

---

(1) المصدر السابق، ج2، ق1، ص324-325.

(2) مدينة كانت ببلاد الروم مشهورة، قريبة من آبسُس التي يُزعم أنّها مدينة أصحاب الكهف. الحموي: معجم البلدان، 75/1.

(3) الهمذاني: جامع التواريخ، ج2، ق2، ص63.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 324/13.

عرض على رأينا كُتب إلى عند التكفور، أنّ الرُسل الذي أنفذهم أيلخان ما قـتلهم إلاّ قطز، والملوك يطلبون التوسُّط؛ حتّى يصيروا إيل))[1].

وقد جاء في تلك الرسالة تأنيب للسلطان الظاهر لعدم إرساله في تلك السفارة لأحد أبنائه أو إخوانه، وقد زعم أبغا سلامة هؤلاء الرُّسل وأنّه لن يغدر بهم، فقد كفل قانون شريعتهم ذلك، فالإبن لا يؤخذ بذنب أبيه ولا أخ بذنب أخيه[2]، ولعلّهُ يرمي إلى طمأنة الظاهر بإرسال أحد أبنائه أو إخوانه ليقتصَّ منهم.

وتظهر الرسالة إلى جانبِ ذلك اللِّين لوناً من الوعيد والتهديد، حيث يدلُّ على ذلك قوله في الرسالة: ((فمن مطلع الشَّمس إلى مغيبها في جميع العالم من الذي استقبل وأطاع ودخل في العبوديّة))[3]، فهذه العبارة لا تدل إلاّ على منطق القوة والسّطوة والطاغوتيّة والتقريع، حيث لا مفرَّ لكم إلاّ إلى ملجأ العبودية، فجاء ردّ السلطان على تلك الرسالة أكثر حزماً وقوةً، مفنِّداً تلك المزاعم، فجاء في ردِّه: ((وقد أعطانا الله ملك أربعين ملكاً، وأمّا ذكره من أنّهُ من مطلع الشمس إلى مغيبها أطاعوه، فأي شيءٍ جرى على كتبغا نوين؟ وكيف كان دماره))[4]، وقد أظهر السلطان كذلك زيف زعمه، وسوء نيَّته، حيث لم يبعث إلى السلطان أحد خواصّه، وهذا ما دعا السلطان إلى عدم بعث أحد أقربائه في تلك الوفادة[5].

وتبادل غازان والسلطان النَّاصر محمّد (700/703هـ) رسائل التهديد والترهيب، ولم تتغيّر سياسته بل ظلّت أسيرة الخطاب الآمر، الذي ينظر إلى المماليك من أعلى، ويعدّهم طغمةً خارجة على الدين، ظالمةً للنّاس، متسلِّطةً على حقوقهم، ولم يكن هذا الوصف خاصاً بالطبقة الحاكمة، بل كل من رضي بطاعتهم يُعدُّ مفسداً، عاصياً لله. وقد جاء هذا الوصف في رسالة بعثها غازان للنّاصر محمّد يهدِّده فيها،

---

(1) ابن عبد الظاهر، محيي الدِّين بن عبد الله (ت692هـ): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م، ص34.

(2) المصدر نفسه، ص340.

(3) المصدر نفسه، ص340.

(4) المصدر نفسه، ص341.

(5) المصدر نفسه، ص342.

ويتوعَّده جرّاء ما قام به عسكره، فجاء في تلك الرسالة: ((ليعلم السلطان الملك النّاصر أنّه في العام الماضي بعض عساكركم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كماردِين[1] ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي، فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أُمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة))[2]. وفي موضعٍ آخر من الرسالة يظهر لنا صنوفاً من التهديد، بل يتعدَّى ذلك إلى أُسلوب الشتم المباشر للسلطان والتقليل من شأنه، فجاء في هذا المعنى قوله: ((وخالفتم سُنن الملوك وحُسن السُّلوك، وصبرنا على تماديكم في غيِّكم، وخلودكم إلى بغيكم))[3]. وبلغ التحدِّي والاستخفاف بالسلطان النّاصر أن يعدَّ له الهدايا والتُّحف مع حامل تلك الرّسالة على ما هي عليه من التهديد والتوبيخ والتقريع[4].
وأجاب النّاصر عن تلك الرسالة بأُخرى نقض فيها مزاعم غازان، وبيَّن فيها سوء نيَّته، وفساد عقيدته، فجاء في تلك الرّسالة: ((لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة على اختلاف الأديان، وتطئوا البقاع الطّاهرة بعبدة الصُّلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدَّس الذي هو ثاني بيت الله الحرام))[5].

لم تكن رسائل الوعيد والتهديد مقتصرةً على المسلمين والمغول، وإنَّما دخل في دائرة الصراع الأحلاف الصليبيون، فقد دارت بعض هذه الرسائل بين المماليك والصليبيين، وبخاصة في عهدي بيبرس وقلاوون اللَّذين بلغ الصراع مع الصليبيين أوجهه إبَّانَ حكمهما. وقد أثبت المسلمون بقيادة بيبرس وقلاوون براعة نادرة في

(1) ماردِين: بكسر الراء والدال، قلعة مشهورة مشرفة على نصيبين، وقُدّامها ربضٌ عظيم، فيه أسواق كثيرة ومدارس، وقد ذكرها جرير بقوله (بسيط):

يَا خُزْرَ تَغْلِبَ، إنَّ اللُّؤمَ حالفكم ... ما دَامَ في مَارِدِينِ الزَّيْتُ يُعْتَصَرُ

انظر الحموي: معجم البلدان، 39/5.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 69/8.

(3) المصدر نفسه، 69/8.

(4) انظر المصدر نفسه، 70/8.

(5) المصدر نفسه، 244/7.

التعامل مع الغزاة، واعتمدوا على المفاجأة، والحيطة والحذر، والقدرة على التخطيط، والسرعة في التنفيذ[1].

أرسل الفرنج في عكّا عام 661هـ رسالة إلى الظّاهر بيبرس يتّهمونه فيها بنقض الهدنة معهم، ويهدّدون المسلمين ويتوعّدونهم بالتتار، وكان بيبرس قد عقد معهم هدنة عام 659هـ من شروطها: أن لا يجدّدوا بناء داخل عكّا وما يتبعها، غير أنّهم خرقوا الهدنة، وشرعوا في بناء أبراج لتحصين أرسوف[2]. وادَّعوا أنّ ذلك لحمايتهم من ((صعاليك المسلمين والتتار))[3]، وأرسل بيبرس إلى الصليبيين رسالة تهديدٍ دعاهم فيها إلى إحسان الجيرة، وكفِّ الأذى، وأوضح في رسالته أنّ المسلمين لا يخشون التتار ولا غيرهم، وأكّد أنّهُ قادر على الوصول إلى قلاعهم، والاستيلاء عليها متوعّداً بكثرة عساكره، فجاء في هذا المعنى قوله: ((أمّا تجديد الربض لحفظ الصعاليك؛ فالبلاد ما تحفظ بالأسوار، ولا تحفظ الرعية بالخنادق، ولا تحفظ إلاَّ بأحد أمرين: إمّا بالسيوف والعزائم، وإمّا بحسن الجيرة، وبذل الإحسان، وكفِّ الأذى، ومن يخاف من اللصوص لِمَ لا يخاف من غيرهم؟ وأمّا أمر التتار، فقد علم كلُّ أحد أنّا عندما تحصَّنتم بالأسوار والخنادق خرجنا إلى التتار، وما جعلنا حصوننا إلاَّ خيولنا، ولا خنادقنا إلاّ سيوفنا، ولا أسوارنا إلاَّ رجالنا))[4].

---

(1) انظر أسعد، بهاء الدّين محمّد: العسكريّة الإسلاميّة وقادتها العظام، مكتبة المنار – عمّان، 1981م، ص162-165؛ انظر حمادة، محمّد ماهر: وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط3، 1986م، ص59.

(2) أرسوف: مدينة ساحلية بين قيساريّة ويافا، احتلّها الصليبيون عام 494هـ. انظر الحموي: معجم البلدان، 153/1. وظلّت بأيديهم حتى حرّرها بيبرس عام 663هـ. انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 318/2.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص117-118؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 54/14.

(4) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص153.

وبعد معركة مرج الصّفر عام 702هـ، وانتصار المماليك فيها على المغول، أرسل الملك النّاصر رسالة توبيخٍ وتهديد إلى متملك سيس[1] الأرمنيّ، حيث كان يقف إلى جانب المغول في تلك المعركة، وهي من إنشاء شهاب الدّين محمود الحلبيّ.

بدأ الشهاب الحلبيّ هذه الرسالة بدعاءٍ ساخرٍ له، قال فيه: ((بصَّره الله برشده، وأراه مواقع غيّهِ في الإصرار على مخالفتهِ ونقض عهده، وأسلاهُ بسلامة نفسه عمَّن روَّعته السيوف الإسلاميّة بفقده))[2].

ثمّ انتقل إلى وصف ما حلَّ بالعدو المغولي من قتلٍ وأسرٍ مذكِّراً الملك الأرمنيّ بخداع المغول ونواياهم السيِّئة، وأنّهم خدعوه ووعدوه بمعسول الأمانيّ، وبصّره بحال الجيوش الإسلاميّة في النصر على المغول في كلِّ مواجهةٍ، محاولاً أن يحيِّده ويُرجعهُ عن الوقوف إلى جانبهم، وبعد توبيخٍ عنيفٍ لهُ، حاول استمالته بتذكيره بحسن معاملة المماليك له ولآبائه ورعيَّته، ثمَّ قال مهدِّداً: ((ونحنُ نتحقّق أنّه ما بقي ينسى ملازمة رِبقة الحتف خناقه، ولا يرجع يوردُ نفسه في موارد الهلاك، وهل يرجع إلى الموت من ذاقه؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يُغلق دونه، ويصون نفسه وأهلهُ قبل أن تبتذل السيوف الإسلاميّة مصونه، ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل، ويتمسّك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تُسْبل))[3].

وحاول استمالته بمزيدٍ من الوعود الحسنة بعد أن ذكَّره بغدر غازان، فقال مهدِّداً: ((والسيوف الآن مصغية إلى جوابه؛ لتكفَّ إن أبصر سبيل الرَّشاد، أو تتعوّض برؤوس حُماته وكماتهِ عن الأغماد إن أصرَّ على العناد))[4].

ومن آثار تلك التحالفات في الرسائل ما نقف عليه من تقريع لمن ساعد الأعداء، وسخرية منه، وتذكير بما قد يصيبه جرّاء ذلك. قال الشهاب محمود في

---

(1) كانت عاصمة مملكة أرمن (أرمينيا الصغرى)، وهي الآن إحدى مدن تركيا في الجنوب منها. أطلق عليها ياقوت سيسيّة، وقال: ((بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرطوس)). الحموي: معجم البلدان، 297/3.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 259/8.

(3) المصدر نفسه، 259/8.

(4) المصدر نفسه، 262/8.

رسالته إلى ملك الأرمن بعد هزيمة التتار عام 702هـ، وكان قد ساند المغول: ((ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطوتها في أمان، ووثق بما ضمن له التتار من نصرة، وقد رأى ما آل إليه أمر ذلك الضمان، وجرَّ لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه في غنى، وأوقع روحه بمظافرة المُغل في حومة السيوف التي تخطّفت أولياءه من هنا ومن هنا، واقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبيه، واغترَّ هو وقومه بما زيَّن لهم الشيطان من غروره))[1].

وتدلُّ هذه الإشارات، على الرَّغم من قلَّتها، على وعي الكتاب لِمَا كانت تواجهه الأمّة الإسلاميّة في صراعها مع الغزاة، وعلى تنبُّه القادة إلى طبيعة الصراع، واطلاعهم على أبعاده المختلفة، ويمكن رفض المظفّر قطز طلب الصليبيين في عكّا السماح لهم بالمشاركة في معركة عين جالوت ضد المغول بهديٍ ممّا تقدّم، وقد صدق حدسهُ، حيث كاتبوا المغول ليعلموهم بوصول جيش المماليك إلى غزّة في طريقه لحربهم[2].

وفي سنة 796هـ بعث تيمورلنك كتاباً إلى برقوق، تكشف ألفاظه عن القسوة والتجبُّر والتهديد: ((اعلموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلَّطون على من حلَّ عليه غضبه، لا نرقُ لشاكٍ، ولا نرحمُ عبرةَ باكٍ، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا...))[3].

وقد وُفِّقَ السلطان برقوق بالردِّ على خصمه قائلاً: ((حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانيّة، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة، وسيرة الكفرة، وبأنَّكم مخلوقون من سخط الله، ومسلَّطون على من حلَّ عليه غضب الله، وإنَّكم لا ترقُّون لشاكٍ، ولا ترحمون عبرةَ باكٍ، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، وذلك من أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وهذا من أقبح ما

---

(1) المصدر السابق، 261/8.

(2) انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 93/2.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 49/12؛ ابن صصري، محمّد بن محمّد: الدرّة المضيئة في الدولة الظاهريّة، تحقيق وترجمة ونشر وليم، م، بريز، مطبعة جامعة كاليفورنيا – بركلي، 1963م، ص146.

وصفتم به أنفسكم، ويكفيكم بهذه الشهادة واعظاً إذا اتّعظتم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[1]، ففي كتاب ذكرتم، وبكل قبيح وصفتم، وزعمتم أنّكم كافرون، ألا لعنة الله على الكافرين. من تشبَّه بالأصول، لا يبالي بالفروع. نحن المؤمنون لا يصدُّنا عيب، ولا يداخلنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو رحيم بنا لم يَزَل، وقد عمَّنا ببركة تأويله، وقد خصّنا بفضل تحريمه وتحليله. إنَّما النّار لكم خُلقت، ولجلودكم أُضرمت ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[2] ...))[3].

ويهدِّد تيمور السلطان برقوق قائلاً: ((فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنّتنا بوارق، وسيوفنا صواعق ... فمن سالم سَلِم، ومن نال حربنا ندم، ومن تكلَّم فيها بما لا يعلم منّا جهل ...))[4].

((وتبدو قوة إيمان السلطان برقوق، وثقته بنصر الله وتأييده واضحةً في ردِّه على تيمور، حيث أشار إلى أنّه رجل لا يهاب ولا يخاف))[5]، رجل يخوض الحروب ولا يعمل حساباً لخصمه وندّه: ((ومن أعجب العجيب، تهديد الرتوت* بالتوت**، والسِّباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربيّة، وسيوفنا يمانيّة، وليوثنا مصريّة...))[6].

---

(1) سورة الكافرون، الآيتان (1، 2).

(2) سورة الانفطار، آية (1).

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص157-158.

(4) المصدر نفسه، ص156.

(5) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص32.

* الرتوت: مفردها الرَّت وهو الرئيس من الرجال في الشرف والعطاء. ابن منظور: لسان العرب، م2، ص34.

** التوت: واحدته توته، وهو الفرصاد وهو شجر معروف. ابن منظور: لسان العرب، م2، ص18.

(6) ابن فرات: تاريخ ابن فرات، م9، ق2، ص373.

ويستمر تيمور بتهديده بكثرة عددهم وشدّة بأس جنوده، فيقول: ((﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾*، وذلك لكثرة عددنا، وشدّة بأسنا ... وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرّمال، ونحن أبطال وأقيال، ومُلكنا لا يُرام...))[1].

والسلطان برقوق لا يهاب كثرة جيوش تيمور، إذ يقول: ((فكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة، والقصّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم...))[2].

2.1.2 الهدن

شكّلت الحملات الصليبيّة خطراً عظيماً على العالم الإسلامي، حيث تضافرت مجموعة من العوامل أدّت إلى زيادة رغبة الصليبيين في ضمّ الكنائس في ممالك بلاد الشّام ومصر إلى البابويّة في أوروبا[3]، وقد تميّزت علاقة المماليك مع الصليبيين بالجانب الدينيّ العقديّ، حيث نظر المماليك إلى تلك الحملات على أنّها غزوٌ يهدف إلى اقتلاع جذور المسلمين من تلك الممالك، ولذا أخذت الحرب معهم صفة الجهاد المقدّس.

وقد وقع العالم الإسلامي حينذاك بين خطرين داهمين: التتار من الشرق، والصليبيين من الغرب، وهذا الأمر جعل سلاطين المماليك يفكّرون في إقامة بعض الهدن ليتسنّى لهم الخلاص من أذى التتار الفتّاك.

ورسائل الهدن ذاعت ذيوعاً واسعاً في الدولة المملوكيّة نظراً لحاجتهم إليها؛ وذلك لمجاورتهم لمعاقل الصليبيين المتحفّزين للغدر بالمسلمين.

---

* سورة النمل، آية (34).

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص156.

(2) ابن فرات: تاريخ ابن فرات، م9، ق2، ص374.

(3) انظر زقلمة، أنور: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط1، 1995م، ص38-39.

والهدنة رسالة تكون بين ملك المسلمين وملك آخر، أو من ينوب عن أحدهما، يتكفّل فيها أحدهما للآخر بحفظ النفوس والذمم، وكل ما يجب حفظه خلال المدّة المضروبة لتلك الهدنة وبالشروط التي تمَّ الاتِّفاق عليها[1].

وهناك محاور أساسيّة تتضمّنها رسائل الهدن القائمة بين المسلمين وغيرهم، ومن هذه المحاور تقديم اسم السلطان المسلم على الملك الكافر، ويستشفّ من هذه الصيغة إظهار عزّة المسلمين، ونفوذ سلطانهم، وتأكيد قدرتهم على إملاء شروطهم على من يهادنونهم، وتؤكِّد كذلك حاجة المهادنين لهذه الهدن، واعترافهم الضمنيّ بسطوة المسلمين وشدّة بأسهم.

ومن المحاور الأساسيّة كذلك في كتابة الهدن حفظ حقوق المسلمين بحيث لا تخلّ أو تضيِّع حقّاً من حقوقهم بل تكفل لهم حفظ نفوسهم وتبعاتهم، لا بل تكون في مصلحتهم، ولذلك جاءت رسائل الهدن متضمّنة حقوقاً كثيرةً للمسلمين. فنجد في الهدن التي سأعرضها لاحقاً أنّ المستفيد الأوّل منها المسلمون قبل الطرف الآخر، فنبرة الخطاب صادرة عن المسلمين إلى من يهادنونهم، فالشروط لهم، والقبول على الطرف الآخر، وهذا يؤكِّد الهدف الذي من أجله عُقدت الهدنة وهو الأخذ بمصلحة المسلمين.

وهناك محور آخر في كتابة الهدنة، ويتمثّل هذا الأساس في بيان البلاد التي تشملها الهدنة بدقّة بالغة، وذلك لرغبة المماليك في زيادة الحيطة والحذر من غدر الصليبيين والفرنجة والتتار، ومن جهة أُخرى الرغبة في تحديد الأماكن التي ينالها سلطان المسلمين ليتسنّى للتجّار القادمين لدولة المماليك من المرور بها.

بالإضافة إلى ذلك، يشار إلى مدّة الهدنة من حيث بدئها باليوم وإلى آخر مدّتها، وتتضمّن أيضاً شروطاً يتّفق عليها الطرفان كمنع الفرنجة من التوسُّع خارج حدود ممالكهم، وحماية أمن التجّار، وتحمّل أهل تلك الممالك الدفاع عن المسلمين إذا حصل لهم ما يروِّعهم من عدوٍّ.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 14/3-8.

لقد كانت كتب الهدن بين المسلمين وحلفاء التتار (الصليبيين) كثيرة، ((ويبدو السبب في ذلك أنّ كثرة المراسلات بين المسلمين وحلفاء التتار تزيد وتقوي العلاقات السياسيّة بين الطرفين، ليكونوا لهم عيناً قوية على عدوّهم اللعين، وإنَّ تقوية مثل هذه العلاقات بين المسلمين وحلفاء عدوّهم لا بُدَّ أن تقلِّل من شأن التتار لدى حلفائهم))(1).

ومن رسائل الهدن التي دارت بين المماليك وحلفاء التتار تلك الهدنة التي عُقدت بين المنصور قلاوون وابنه، وبين حكّام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشّام سنة 682هـ. والتي حدّد من خلالها البلاد التي تشملها الهدنة بدقّة بالغة، وكافة الشروط التي أملاها المنصور قلاوون على حكّام الفرنج، ومن تلك الشروط التي تتعلّق بحليفهم التتار قوله: ((... ومتى تحرّك عَدُوٌّ من جهة البرِّ من التتار وغيرهم، فأيُّ من سبق الخبر إليه من الجهتين يُعَرِّفُ الجهة الأُخرى بما سبق الخبرُ إليه من أمرهم...))(2). وفي موضعٍ آخر يقول: ((وعلى أنّهُ إنْ قصدَ البلاد الشاميَّة – والعياذ بالله – عَدُوٌّ من التتار وغيرهم في البرِّ، وانحازت العساكرُ الإسلاميّة من قدَّامِ العدوِّ، ووصل العدوُّ إلى القرب من البلاد الساحليّة الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرَّةٍ، فيكتب إلى كفيل المملكة بعكّا، والمقدَّمين بها أن يدرؤوا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصلُ قدرتهم إليه. وإنْ حصل – والعياذ بالله – جفلٌ من البلاد الإسلاميّة إلى السَّاحليّة الداخلةِ في هذه الهدنة، فيلزم كفيل المملكة بعكَّا، والمقدّمين بها حفظهم والدَّفع عنهم، ومنعُ من يقصدهم بضررٍ، ويكونون آمنين مُطمئنين بما معهم))(3).

وفي سنة 684هـ، عُقدت هدنةٌ بين السلطان المنصور قلاوون وبين الملك لَيْفُون بن الملك هيوم ابن كسطنتين ملك الأرض لمدّة عشر سنين، أكدَّ فيها ألاَّ يقدِّمُ نجدةً أو معاونة لأعداء المسلمين: ((تستقرُ هذه الهدنة بشروطها وقواعدها المحرّرة

---

(1) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص38.

(2) ابن عبد الظاهر، محيي الدّين بن عبد الظاهر (ت692هـ): تشريف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الجمهورية العربيّة المتّحدة، د.ت، ص42.

(3) المصدر نفسه، ص42.

إلى انقضاء مدّتها لا تنتقض بموتِ أحدٍ من ملوك الجهتين ولا بعــزل نائــبٍ أو والٍ وتولية غيرهم، ولا بدخول رجُلٍ غريبة ... ولا بيدِ غالبة من التتار ولا من غيــرهم، بل تكون أحكام هذه الهدنة مستمرّة على حالها، وإنّنــي التــزم الوفــاء بهــا بجميــع شروطها، ولا أخرج عن حكم من أحكام هذه الهدنة، ولا أغمز علــى بــلاد مولانــا السلطان الملك المنصور، ولا على عساكره ولا على رعاياه من يقصدهم بغــارةٍ ولا بمضرَّةٍ ولا بأذيَّةٍ، ولا أدخل في مُشورة تؤدِّي إلى اعتماد سوء أو مكروه، ولا أُحسن لأحد من أعداء مولانا السلطان الملك المنصور، ولا أنجده ولا أساعده ولا أوافقه عليه برمز ولا خَطٍّ ولا مراسلة، ولا مكاتبة، ولا مشافهة، بل أكون مدارياً عن نفسي وعن بلادي، وأجتهد كلَّ الاجتهاد في حفظ بلاد مولانا السلطان الملك المنصور ومنع مــن يتخطَّى إليها من بلاد بأذيَّةٍ أو عدوان ...))(1).

وفي موضعٍ آخر يحذِّر من احتواء التتار وكلّ من يتعلّق بهم في بلاد الأرمن: ((... وعلى أنّه من دخل إلى بلد الأرمن من بلد الــروم وبلــد المــشرق والمغــرب والعراق وبغداد والعجم وسائر البلاد قاصداً البلاد السلطانيّة مــن التجّــار والرعيّــة والوافدين، وسائر النّاس أجمعين يَفْسح لهم في الحضور إلى الــبلاد الــسلطانيّة، ولا يعوّقهم ولا يمنعهم. ولا يقَوِّ هؤلاء من رعيَّة التتار، ولا من أولادهم، ولا ممَّن يتعلَّــق بهم، ...))(2).

وقد ورد في صبح الأعشى نصٌّ لهدنةٍ* عن صاحب الدِّيار المصريّة لمتملــك سيس الذي كان يماليء التتار، ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين، ويُكثِّر في سَوادهم: ((وعليه أن لا يكون عَيْناً للكفّار، على بلاد الإسلام وإن دَنَتْ بــه أو بعُــدتِ الدَّار، ولا يواطيء على مولانا السلطان فلانٍ أعداءه وأوّلُهم التتار، وأن يلتــزم مــا يلزَمُه من المُسْكَةِ بالمسكنة، ويفعل ما تسكتُ عنه الأسِنَّة وما أشبهها مــن الألــسنة،

---

(1) المصدر السابق، ص101-102.

(2) المصدر نفسه، ص99-100.

* لم يذكر القلقشندي سنة عقد الهدنة ولا اسم ملك الديار المصرية، وإنما وضعها تحت عنــوان نسخة هدنة كتب بها عن سلطان قوي، لملك مضعوف، باشتراط مالٍ يقوم بــه المــضعوف للقوي في كل سنة أو حصون يسلِّمها له.

وعليه أن يُنْهي ما يتجدَّدُ عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل مِلَّتِه، ويُنبِّه على سُوءِ مقاصدهم، ويعرِّف ما يُهِمُّ سماعةُ من أحوال ما هُمْ عليه ...))[1].

وفي سنة 689هـ، عُقِدَت هدنة بين الملك المنصور قلاوون والملك البرشنوني[2] الريدراغون، تكفل فيها الثاني على عدم معاونة أعداء المسلمين لا سيَّما التتار وأن يخبر الملك المنصور بتحرُّكاتهم، والجهة التي اتَّفقوا على قصدها: ((... وعلى أنَّه متى طلب البابُ بروميةِ، وملوكُ الفرنج والرُّوم والتَّتار وغيرهم من الملك الريدراغون أو من إخوته، أو من بلاده إنجاداً، أو معاونةً، أو خيَّالةً، أو رجَّالةً، أو مال، أو مراكب، أو شواني * ، أو سلاح، لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سرٍّ، ولا في جهرٍ، ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى اطّلع على أن أحداً منهم يقصد بلاد مولانا السلطان بمحاربةٍ أو بمضرَّةٍ يسير يعرِّف مولانا السلطان بخبرهم وبالجهة التي اتّفقوا على قصدها في أقرب وقتٍ قبل حركتهم من بلادهم))[3].

وبعد ثلاث سنوات من الهدنة السابقة عُقدت هدنةٌ بين الملك الأشرف، صلاح الدِّين خليل بن الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصريّة والبلاد الشّاميّة، والريدارغون صاحب برشلونة من بلاد الأندلس، وقد كان النصّ مطابقاً تماماً لنصّ الهدنة السابقة، ولعلّهُ تجديد لتلك بسبب انتقال الحكم إلى الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 20/14.

(2) نسبة إلى برشنونه، ويقال (برشلونه)، وهي بجهة شرق الأندلس، وهي مملكة كبيرة وعمالات واسعة تشتمل على برشوله وأرغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 334/5.

* المقصود بها المراكب البحريَّة.

(3) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص160.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 75/14.

3.1.2 الأمانات

تعدُّ رسائل الأمان من المكاتبات الشائعة في أغلب العصور لحاجة النَّاس إليها أفراداً وجماعات، ويكثر تداولها في الحروب والنزاعات والفتن لِمَا فيها من بعث الأمن والطمأنينة والسكينة، وحفظ النُّفوس.

ورسائل الأمان توجَّه للمسلم ولغير المسلم، ولكن يشترط أن تكون صادرة عن مسلم ((فالعاقد للأمان من المسلمين))(1)، ويجب فيها كذلك قبول المؤمَّن، وأن لا يشكِّل عقدها ضرراً للمسلمين(2).

وقد يُمنح الأمان من غير طلب من المؤمِّن، وقد يكون بطلبٍ مسبقٍ من الرَّاغب في الأمان(3)، وفي الأمرين كليهما تكون المصلحة في منحه أو عدم منحه بتقدير من المانح سواء بطلبٍ أو بدون طلب، وأن لا تتجاوز مدّته السّنة الواحدة بخلاف الهدنة(4).

ويتعهَّد مانح الأمان ((بحفظ النُّفوس والأهل والأموال وسائر الأملاك، وكافة تبعات المؤمَّن))(5)، وبما أنّ كتب الأمان تحمي الأفراد والجماعات من بنات الدهر، وتمنحهم لذّة التمتّع بالحياة فإنَّ كاتبها يعيد النظر فيها مرّة بعد أخرى، متفحِّصاً كل عبارة شُكِّل منها ذلك الأمان؛ لأنَّ أمن ذلك الفرد يتوقَّف على صياغة عباراته.

ارتبطت الدولة المملوكية بعلاقات متشابكة مع القوى الخارجيّة المؤثِّرة آنذاك، وتراوحت ما بين الغزو العسكري والفتح، والملاينة والمسالمة، وعقد الاتفاقيّات وما إلى ذلك ممّا يطرأ على علاقات الدول. ويشير هذا بوضوح إلى أنّ الدولة المملوكيّة كانت في بؤرة السياسة العالميّة آنذاك، لجملةٍ من الأسباب، يأتي في مقدِّمتها موقعها

---

(1) المصدر السابق، 322/13.

(2) انظر المصدر نفسه، 322/13.

(3) انظر الغريب، سلامة هليّل: الرسائل الفنية في العصر المملوكي (648/784هـ)، رسالة دكتوراه – جامعة مؤتة، 2003م، ص33.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 322/13-323.

(5) الدروبي، محمّد محمود: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، ط1، 1999، ص47.

الجغرافي بين أوروبا والشرق الأقصى، والإرث التاريخي الذي جعل السلطان المملوكي يتقدّم كافة الحكّام المسلمين؛ لأنّه يحكم بتفويض من الخليفة العبّاسي القائم إلى جواره في القاهرة، ولأنّه حامي الحرمين الشريفين، وهو اللقب الذي تمسّك به السلاطين المماليك ونازعهم عليه غير واحد من الحكّام المسلمين.

ولقد كانت التجارة من أهم أسباب ثراء الدّولة المملوكيّة وقوّتها الاقتصاديّة، ((فقد كانت إحدى ساحات الحرب بين المماليك والباباوات الذين ما توقّفوا عن إصدار قرارات الحرمان والتحريم ضدّ الأُوروبيين الذين نشطوا في التجارة مع المماليك، وخاصةً بعد استرداد المماليك لعكّا من الصليبيين سنة 691هـ/1291م، فقد قام أحد خبراء الكنيسة وهو مارينو سانودو تورسيللو بتأليف كتاب (أسرار حماة الصليب) في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي محاولاً إقناع الأُوروبيين بأنّ قطع التجارة مع المماليك هو السبيل إلى نضوب موارد ثروتهم وبالتالي إضعافهم وهزيمتهم عسكرياً))[1].

وبما أنّ التجارة مع المماليك كانت تدرُّ أرباحاً وفيرة على التجّار الأوروبيين سمح البابا بالتبادل التجاري بين الأُوروبيين والمماليك في شتّى السلع باستثناء ما يقوّي المماليك عسكريّاً[2].

وقد عمل السلاطين المماليك على تنشيط حركة التجارة مع أغلب الدول والإمارات والشعوب القائمة آنذاك، وتمثّل جهدها في تقدير التجّار واحترامهم وبخاصةً الكبار منهم؛ لِمَا لديهم من ثروات ماديّة ضخمة، بالإضافة إلى ذلك قامت سياستها الاقتصاديّة على استجلاب التجّار، واستقدامهم من كلِّ الأُمم والأجناس والإحسان إليهم[3]، فقد كتب المنصور قلاوون أماناً للتجّار المسلمين من غير حدود دولته من الصّين والهند والسّند واليمن، والعراق وبلاد الرُّوم[4]، وهذا الأمان لا يجد فيه القارئ روح الأمان، بل هو أشبه بمرسوم تجاري، الغاية منه التبادل التجاري مع

(1) الدروبي: حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، ص22.

(2) انظر المرجع نفسه، ص22.

(3) انظر المرجع نفسه، ص22-24.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 13/340-342.

الدول المختلفة لجلب المصالح الاقتصاديّة، والاستفادة من الموقع الجغرافي لدولة المماليك، وجاء في هذا الأمان ((فمن وقف على مرسومنا هذا من التجّار المقيمين باليمن والهند والصّين والسّند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها، والقدوم عليها؛ ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر، ويحلُّ منها في بلدة طيّبة وربٍّ غفور، ولهم منّا كل ما يؤثرونه من معدلة نجيب داعيها وتحمد عيشتهم دواعيها، وتبقى أموالهم على مخلّفيهم ...))[1].

والمتفحّص لهذا الأمان يجدُ فيه ((وثيقةً سياسيّة مهمّة))[2]، فوصول هذا النصّ إلى آفاق تلك الدول المذكورة في غرّة ذلك الأمان دليلٌ على حاجة الدولة المملوكيّة لإقامة علاقات وثيقة مع تلك الممالك، فما التجّار إلاّ رسلُ بلادهم ولسانُ حالهم؟! والأمان يؤكِّد على رغبة المماليك في التبادل التجاري مع الدول الأُخرى؛ وذلك بترغيبهم في البلاد من حيث إنّها شامةُ الله في أرضه للدلالة على كثرة خيراتها، وسيادة العدل فيها ممّا جعلها مقصداً للتجار من شتّى الأماكن ((والمقيم بها في ربيعٍ دائم، وخير ملازم؛ ويكفيها أنّ من بعض أوصافها أنّها شامةُ اللهِ في أرضه، وأنّ بركة اللهِ حاصلة في رَحْلِ من جعل الإحسان فيها من قِراضه والحسنة من قَرْضه، ...، وقد عَمَّر العدلُ أوطانها، وكَثَّر سُكّانها، واتّسعت أبنيتها، ...، وسائر النّاس وجميع التجّار، لا يخشون فيها من يَجُور فإنَّ العدل قد أجار))[3].

كما يؤكِّد الأمان على رغبة المماليك في الحصول على مصادر قوّتهم العسكريّة المتمثّلة في المماليك الصغار - من الجواري والغلمان - الذين يجلبون لدولتهم تمهيداً لتربيتهم تربيّة عسكرية، وتعريبهم، ثمّ إدخالهم للجيش المملوكي[4]، وينصّ الأمان صراحةً على رغبة المماليك في شرائهم ((ومن أحضر معه منهم مماليك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد، والمسامحة بما يتعوّضه بثمنهم

---

(1) المصدر السابق، 341/13.

(2) الغريب: الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأول، ص139.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 339/13.

(4) انظر هايد، ف: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، عرَّبه من الترجمة الفرنسيّة: أحمد محمّد رضا، الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة، ط1، 1994م، 40/3.

على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب، فكيف من البعيد؟ لأنّ رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقّاً على الجود، فليستكثر من يقدر على جلبهم، ويعلم أنّ تكثير جيوش الإسلام هو الحاثّ على طلبهم))[1].

نجد ممّا سبق أنّ كتب الأمان الموجَّهة لغير المسلمين أو المسلمين الذين لا يخضعون لسلطان دولة المماليك، هي أشبه بالمراسيم السياسيّة والتجاريّة، فلا يظهر فيها حاجة المؤمَّن للأمان بقدر حاجة المماليك لهؤلاء المؤمَّنين، والتقرُّب منهم، والرّغبة في إقامة علاقة معهم.

وقد بعث غازان سنة 699هـ نصّ أمان لأهالي مدينة دمشق، بعد هزيمة المسلمين في الخزندار، وقد فتك جيش غازان بالمدينة وخرّبوا وسفكوا الدّماء، وأذاقوا أهل دمشق شتّى صنوف العذاب، وفعلوا الأفعال القبيحة. وقد جاء في هذا النص: ((فصدرت مراسمنا العالية ألاّ يتعرّض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها، وتباين أجناسها، واختلاف لغاتها لدمشق وأعمالها وساير البلاد الشاميّة الإسلاميّة...))[2].

وقد خصّ ابن تيميّة هذه الحادثة بالذِّكر في كتابه (فتاوى ابن تيميّة)، حيث قال: ((إنّ هؤلاء القوم جاروا على الشّام في المرّة الأولى عام تسعة وتسعين، وأعطوا النّاس الأمان، وقرؤوه على المنبر بدمشق، ومع هذا فقد سَبوا من ذراري المسلمين قريباً من مائة ألف، أو يزيد، وفعلوا ببيت المقدس، وبجبل الصالحيّة، ونابلس وحمص، وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمه إلاّ الله. حتّى يُقال أنّهم سبوا من المسلمين قريباً من مائة ألف، وجعلوا يفجرون بخيار نساء المسلمين في المساجد وغيرها، كالمسجد الأقصى والأموي، وغيره))[3].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 341/13.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1011.

(3) ابن تيميّة، تقيّ الدّين أحمد عبد الحليم (ت728هـ): مجموعة فتاوي ابن تيميّة، مطبعة كردستان العلمية – القاهرة، 1329هـ، 281/4.

2.2 العلاقات بين المسلمين والمغول بعد اعتناقهم الإسلام:

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشّام أن تثبت أنّها أعظم قـوّة معاصرة في الوطن العربي من المحيط الأطلسي إلى الخليج؛ فنظـر إليهـا حكّـام وشعوب الدول الإسلاميّة والعربيّة نظرة إكبار وإجلال، في حين نظرت إليها القـوى الأخرى – خارج المحيطين العربي والإسلامي – نظرة خوف واحترام. وحسبُ دولة المماليك أنّها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجيّة التي هدّدت الوطن العربي فـي الشرق الأدنى في شجاعةٍ وبأس، فحمت الشّام ومصر من خطـر التتـار، وطـردت الصليبيين كليّة من أرض الشّام، بل لاحقتهم في مراكـزهم القريبـة مثـل أرمينيّـة الصغرى وقبرس ورودوس. هذا فضلاً عن أنّ نجاح سلاطين المماليك فـي إحيـاء الخلافة العباسيّة في مصر – بعد سقوطها في بغداد – جعل لهـم ولـدولتهم مكانـةً مرموقة في العالم الإسلامي أجمع، إذْ جعلهم يبدون في صورة الزعمـاء الحقيقيـين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتّعين ببيعتها.

وهكذا غدت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلَـة الأصـدقاء والأعـداء جميعاً؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها، والأعـداء يبغـون ملاطفتهـا ومسالمتها، أو مهادنتها اتّقاءً لبطشها. فصارت مركزاً لشبكة واسعة مـن العلاقـات الخارجيّة مع الدول الصديقة وغير الصديقة، بحيث إنّنا لا نبـالغ إذا قلنـا إنَّ ديـوان الإنشاء في عصر المماليك غدا يمثّل أضخم وزارة خارجيّة شهدها العالم أجمـع فـي ذلك العصر.

ارتبط المماليك بعلاقات دبلوماسيّة مع المغول بعد إسلامهم، وقد ارتأيتُ فـي بحثي هذا أن أُوضّح علاقة المماليك مع كلٍّ من مغول القفجاق، ومغول فارس.

1.2.2 مغول القفجاق

عندما قسَّم جنكيزخان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعـة قرب بحر قزوين، وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنكيزخان[1]، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبيّة نسبة إلى اللون الـذهبي

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 313/4.

الذي اشتهرت به مخيّماتها[1]. ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام[2]؛ الأمر الذي ترتّب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلاميّة المجاورة وبخاصةً دولة المماليك من ناحية؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أُخرى.

ولعلَّ أهمّ أسباب التقارب وقيام علاقات وديَّة بين الدولتين يرجع إلى عدّة عوامل من أهمّها[3]:

أولاً: الجانب الديني، حيث كان بركة خان قد أشهر إسلامه، وجعل الإسلام الدين الرسمي للدولة، ومن الواضح هنا أنّه لا بُدَّ أن تقوم هناك علاقات مبنيّة على الودّ والإخاء بين هذه الدولة الإسلاميّة الجديدة وبين أكبر قوة إسلاميّة في ذلك الحين، وهي قوة المماليك التي تَعدُّ نفسها الحامية للدِّين الإسلامي وأهله.

ثانياً: أنّه لا بُدَّ أن يقوم خلاف وشقاق بين مغول فارس، ومغول القفجاق حول الأراضي، وحقّ كلّ منهما في تزعّم العالم المغولي، ومن ثمَّ كان لا بُدَّ من حدوث الشقاق والخلاف بين دولتي المغول في الشرق، والشمال وبحث كلّ منهما عن حليف، فكانت الفرنجة في تحالف مع مغول الشرق والمماليك حلفاء لمغول الشّمال.

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتتار فارس، كان طبيعيّاً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أنَّ السلطان الظاهر بيبرس لم يكد يعلم بإسلام بركة خان حتّى كتب إليه ((يغريه بقتال هولاكو ويرغِّبه في

---

(1) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص394-395، حاشية (4).

(2) قيل إنَّ سبب إسلام بركة خان أنّه تلاقى يوماً مع قافلة تجاريّة آتية من بخارى، فاختلى بتاجرين منهم، وسألهما عن الإسلام، فشرحاه شرحاً مُقنعاً، بحيث اقتنع بركة خان به، وأخلص له، وأخفى ذلك وأوّل ما كاشفه في ذلك أخوه الأصغر، ثمَّ أعلن بعد ذلك اعتناقه للإسلام.
سرور، جمال: الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة، 1960، ص110.

(3) عاشور، فايد حمّاد: العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى، دار المعارف – مصر، د.ت، ص205-206.

ذلك))[1]، فقد أقام في كتابه الدليل عليه ((أنّه يجب عليه جهاد التتار، لأنّـه تـواترت الأخبار بإسلامه، ويترتّب على ذلك جهاد الكفار، ولو كانوا أهله، فإنَّ النبي ﷺ قاتـل عشيرته الأقربين، وجاهد قريشاً، وأمر أن يقاتل النّاس حتّى يقولوا: (لا إلـه إلاّ الله)، وليس الإسلام قولاً باللّسان والجهاد أحد ما له من الأركان، وقد توالت الأخبـار بـأنّ هلاون لأجل زوجته، وكونها نصرانيّة، أقام دين الصليب، وقدَّم مراعاة دين زوجتـه على دينك، وأسكن الجاثليق الكافر مواطن الخلفاء إيثاراً لزوجته عليك))[2]. ففي كتاب الظاهر إغراء كبير بقتال هولاكو، وأقام الحجّة على بركة خان بسيرة الرسـول ﷺ الذي قاتل أهله الأقربين في سبيل نشر دعوة الإسلام.

وفي سنة 661هـ قَدِمَتْ رسل بركة خان إلى السُّلطان الظاهر ومعهم رسـالة له يقول فيها: ((قد علمتَ محبَّتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين فاركـب أنت من ناحية حتّى آتيه من ناحية حتّى نصطلمه، أو نخرجه من البلاد، وأعطيك مـا كان بيده من البلاد))[3]، ((فاستصوب الملك الظـاهر ذلـك وشـكره، وخلـع علـى رسله))[4]، وجاء في الرسالة أيضاً: ((... فيعلم السلطان أنَّني حاربت هولاكو الـذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العُليا تعصبُّاً لدِّين الإسلام، لأنَّهُ باغي والباغي كافر بالله ورسوله، وقد سيرتُ قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان، ووجّهت ابن شهاب الدِّين غفازي (صاحب ميافارقين) معهم لأنَّهُ كان حاضراً في الوقعة ليحكي للـسلطان ما رآه بعينه عن عجائب القتال ثمَّ ليوضّح لعلـم الـسلطان أنَّـهُ موفـق بـالخبرات والسعادات لأنَّه أقام إماماً من آل عبّاس في خلافة المسلمين وهو الحـاكم بـأمر الله، فشكرت همَّته وحمدت الله تعالى على ذلك، لا سيَّما لَمَّـا بلغنـي توجُّهـه بالعـساكر الإسلاميّة إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفّار))[5].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص465.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص88-89.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 238/13.

(4) المصدر نفسه، 238/13.

(5) المصدر نفسه، 238/13.

إنَّ الرسالة السابقة توضِّح لنا أنَّ العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرَّد علاقة شخصيّة بين رجلين، وإنّما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحيّة قويَّة، وأحسَّتا بخطرٍ واحدٍ مشترك هو خطر مغول فارس، فضلاً عن إرادة المماليك إلى تأمين طريق التجارة الآتية من الشرق الأقصى، وهكذا لم تؤدِ وفاة بركة إلى انقطاع صلات الودِّ بين مغول القفجاق ودولة المماليك، إذْ تبودلت السفارات والكتب بين بيبرس ومنكوتمر – خليفة بركة خان – بقصد توجيه القوى ضدّ مغول فارس وزعيمهم أبغا(1).

ففي سنة 669هـ أرسل بيونوغاي – قريب الملك بركة وهو أكبر مقدَّمي جيوشه – كتاباً إلى الظّاهر بيبرس يُنْبئَهُ فيه أنَّهُ آمن بالله ورسوله، واستنَّ بسنَّة بركة خان فهو متمسكٌ برسالة الإسلام ومجدّدٌ للعهد مع الظاهر بيبرس، يقول: ((... وبعد، فإنَّ كتابنا هذا محتمل على معنيين؛ أحدهما: التحيّة والسَّلام، منّا إليك؛ والثاني أنَّا سمعنا من أربوغا أنّه لصدق عهده مع أبينا بركة خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومن أسلم منهم، فلمَّا خبَّر هذا الخبر أخلصنا المحبّة للملك الظاهر، الوفيّ بالعهود، وقلنا ما استخباره عنَّا إلاَّ لحميّته في الإسلام، وصدق نيَّتهِ في تجديد العهود. وكتبنا هذا الكتاب على يد أرتيمو وتوق بوغا، معلِّماً أنَّا دخلنا في الإسلام، وآمنا بالله، وبما جاء من عند الله، وبرسول الله محمّد ﷺ فيثق بما قلناه، وإنّا نستنّ بسنّة أبينا بركة خان، ونتَّبع الحقّ، ونجتنب البطلان، فلا تقطع إرسال المكاتبة عنَّا، فنحنُ معك كالأنامل لليد، نوافق من يوافقك، ونخالف من يخالفك))(2).

فكتب السُّلطان الظّاهر بيبرس جواباً على كتابه يقول فيه: ((... نُعلمُ بورود كتاب منه سرَّ السَّمع والقلب، وحكم للتوفيق بالغلب، ووجدناه مقصوراً على إفهام ما هو عليه من صحّة الاعتقاد، والاقتفاء لأثر الملك بركة خان، في اجتهاد في الدِّين وجهاد، وهذا كان عندنا منه أمر لا يُترك مثله ولا يُلغى، وقد تلونا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ

---

(1) انظر العيني: عقد الجمان، م3، 357/20.

(2) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص371-372.

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾*. وحمدنا الله تعالى على أنَّ كثَّر به حزب المؤمنين، وجعله في ذلك متبتِّلاً لقتال الكافرين. وقد علم أنَّ رسول الله ﷺ جاهد عشيرته الأقربين، وأنكر على من رضي أن يكون مع القاعدين، والقصد التذكار بذلك، وإبلاغ التحيّة لمن في الجانب المحروس، فمن نوَّر الله بصيرته حتّى اهتدى للحقّ، واقتدى بالملك بركة خان في جهاده، وداوم على الجهاد، الذي كتب الله لنا أجره في الغرب، ولهم أجره في الشرق حتى تنكسر شوكة الكفَّار، ويَعلمَ الكافر لِمَن عُقبى الدَّار، ويخذل أنصار المشركين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾**))[1].

قابل السلطان الظّاهر كتاب بيو بالفرح والسُّرور لسيرهِ على نهج بركة خان في جهاد أعداء الإسلام، وأكدَّ الظاهر في جوابه على قضيّة جهاد الرسول ﷺ لأهله الأقربين في سبيل إعلاء كلمة الله، متَّخذاً من تلك القضية حجَّةً دامغة على مغول القفجاق، وذلك للسير دوماً لنصرة المسلمين.

واستمرَّت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس، إذْ حدث أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارةً إلى السُّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون تحمل هديةً ورسالةً خلاصتها استعداده لمشاركته في محاربة غازان ايلخان مغول فارس، فأجابه النّاصر محمّد بأنَّ الله قد كفاهم شرَّ غازان، وأنَّ أخاه أولجاتيو رضي بالصُّلح[2].

وقد عقد العمريّ في كتابه (التعريف بالمصطلح الشَّريف) حيِّزاً لا بأس به لبيان كيفيّة الكتابة لهؤلاء الملوك[3]، وهذا دليل على كثرة الرسائل المتبادلة بين المماليك وتلك الممالك، وقد توطَّدت تلك العلاقات حتّى بلغت درجة المصاهرة، فقد تزوَّج السلطان الملك النَّاصر محمّد بن قلاوون من ابنة السُّلطان أزبك خان ((وقد

---

* سورة الكهف، آية (64).

** سورة البقرة، آية (270).

(1) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص372-373.

(2) انظر سرور، محمّد جمال الدّين: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، 1947م، ص218.

(3) انظر العمريّ، أحمد بن يحيى (ت749هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط1، 1993م، ص56-73.

خطب إليه السلطان فزوّجه بنتاً تقرُّباً إليه))[1]. وواصل السلطان إرسال الرُسل والهدايا إلى أزبك خان، ولا شكَّ أنَّ مثل هذه الهدايا المتبادلة ساهمت في توطيد العلاقة، ورصّت الصُفوف في وجهِ الخطر القاتل آنذاك وهم التتار.

ولقد أرسل السلطان النّاصر محمّد بن قلاوون كتاباً إلى أزبك خان يدلّل فيه على أصالة المحبَّة بين الطرفين واستمرارها، يقول: ((... فإنَّ قلوب الأولياء وإن تناءت الأجسام متعارفة بالائتلاف، متقاربة على بُعد الدّيار حيث لا تناكر بينها ولا اختلاف، ...، هذا والمحبة لبيته الكريم قديمة، والموَّدة بين الأسلاف لم تزل مستديمة؛ فلم نكن ورثنا ذلك عن كلالة[2]، بل تبعنا فيه سبيل السّلف الصَّالح على أحسن حالة))[3].

ويعلّل السُّلطان أسباب تأخُّر رسله ومراسلته للملك أزبك خان انشغاله بمعاركهِ مع الفرنج، وما أن تمَّ له النَّصر حتّى بعث بهذا الكتاب يؤكّد فيه على صدق الاتحاد والوفاء والوداد بين الطرفين، حيث يقول: ((وكان لنا مدَّة مديدة وقد تأخَّرت رسلنا عن حضرته، ولم تصدر من جهتنا الشريفة كذلك، ولا وردت رسل من جهته، ولم يشغلنا عن ذلك إلاَّ مواقعةُ الفرنج المخذولين أعداء الدِّين، ومقارعتهم في سائر السَّواحل بشدَّة البأس والتمكين، إلى أن أمكن الله عزّ وجلّ من نواصيهم وصياصيهم بنصر من عنده، ... والآن فقد صدرت هذه المكاتبة إلى المقام العالي السلطاني ... تخصُّ مقامه بسلامٍ أرقَّ من النَّسيم، وألطف مزاجاً من التَّسنيم[4]، وثناء قد أزرى نشره بالعبير، وسرى بشره فغدت تتهلّل به الأسارير، ... وقد قصدنا مفاتحته بهذه المكاتبة، وأردنا بُداءته بهذه المخاطبة، ليعلمَ ما نحنُ عليه من صحيح الوداد، وأكيد الاتِّحاد، وجميل الاعتقاد وحسن الموالاة الخالصة من شوائب الانتقاد ...))[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 316/7.

(2) الكلالة: أن يموت المرء وليس له والد أو ولد يرثه، بل يرثه ذوو القرابة. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 319/7، حاشية رقم (3).

(3) المصدر نفسه، 319/7.

(4) التسنيم: ماء في الجنّة. انظر المصدر السابق: 320/7، حاشية (2).

(5) المصدر نفسه: 319/7-320.

ومن أجل إعلان هيبة دولة المماليك؛ حملت تلك الرسائل البشارات بالانتصارات، وخذل العدو، وغالباً ما تأتي مثل هذه البشارات عرضاً في الرسائل. والواضح من الرسالة أنَّ المماليك هم البادئون في تسطير تلك الرسائل لحاجتهم إلى خطب ولاء هذه الممالك وجعلهم في صفهم؛ لترجح كفَّتهم على مناوئيهم من المسلمين وغيرهم.

وظاهر من هذه الرسالة مدى العلاقة الودّيّة التي تربطهم بتلك المملكة الشرقيّة، ولا حاجة لهم في كسب ودّها إلاَّ ما أُشير إليه كما تقدّم من الوقوف إلى جانبهم في مواجهة التتار، وتأمين الأمن والطمأنينة لتجّارهم والتجّار الوافدين إلى دولتهم من الشرق، وقد اعتنت تلك الرّسالة بذكر التجّار وبضائعهم، وحمايتهم وتوفير الأمان لهم، فقد جاء فيها ((ويأمر المقام العالي لا زال عالياً بتردّد التجّار من تلكم الدّيار، والمواصلة بالأخبار على حسب الاختيار، ومتابعة الرُّسل والقصّاد، على أجمل وجه معتاد))(1).

فالمصلحة التجاريّة في مثل إقامة تلك العلاقات بارزة أيّما بروز، حيث مواصلة المودّات مع مثل هذه الممالك ضمانٌ لحريّة التجارة، وزيادة العائدات الاقتصاديّة.

وتُضمَّن مثل تلك السفارات عادة الهدايا؛ لأنَّ فيها حفظاً للصّلات، وإدامة المودّات، وكسب الثقات، فجاء في تلك الرسالة ((وقد وجّهنا إلى المقام العالي – أعلى الله شأنه – صحبة رسلنا المذكورين من الأقمشة السكندري وغيرها على سبيل الهديّة والمواهب السنيّة))(2).

واستمرّت المراسلات بين دولة المماليك ومغول القفجاق لتأكيد العلاقات المتينة بين الدولتين، وأواصر المحبّة والمودّة التي تجمع بينهما. ففي سنة 812هـ أرسل السلطان فرج بن الظاهر برقوق رسالةً إلى مغول القفجاق من إنشاء القلقشندي، بيَّن فيها أنَّ القلوب مؤتلفةٌ على المحبة وإن بعدت الدّيار، ومهما طالت المسافة فلا تنقص المحبة، والوداد مستمرٌ بين الطرفين، ومن ناحيةٍ أخرى عاتب فيها بصورةٍ محبَّبة

---

(1) المصدر نفسه، 298/7.

(2) المصدر السابق، 298/7–300.

تأخُّر قدوم الرُّسل من قِبَل ملوك القفجاق ممّا أثار لواعج الاشتياق، إذ يقول: ((أمّا بعد، فإنَّ الأرواح إذا تمازجت تناجت بالضمائر، والقلوب إذا تآلفت اغتنت بشواهد الحال عن إبراز ما في السَّرائر، والأجساد إذا تباعدت تعلَّلت بالمكاتبات في بُلوغ الأوطار، والدِّيار إذا تناءت اكتفت بالمراسلة عن تقارب الدَّار، والمودّة إذا صفت لا يؤثِّر فيها البعاد، والمحبَّة إذا صدقت لا تزال كلَّ يومٍ في ازدياد، والأُذن تعشق قبل العين أحياناً، والوصف يُحرِّك من الشَّوق أغصاناً وأفناناً ....، والمملكة القانيّة المرفوعة الذِّكر رفع نار القِرى، لم تزل ملوكهم مجتمعةً مع تنائي الدِّيار، مؤتلفة على المحبَّة وإن شطَّ المزار، محافظين على تتابع الرُّسل وإن حال دونهم الصِّفاح، مثابرين على توارد الكتب ولو على أجنحة الطَّير ومتون الرِّياح، وقد مضت مدَّةٌ مديدة لم يقدم علينا من المقام الشّريف رسولٌ يُطفئ لواعج الاشتياق، ولا وردَ كتابٌ عنهُ يتعلَّل المحبُّ بتلقِّيه عن حقيقة التَّلاق، بل سُدَّ باب المكاتبة حتّى كأنَّ المكاتبة لم تُخلق، وأُغلق بابُ المراسلة وإن كان بابُ المحبة – بحمد الله – لم يُغلق، فطمح بخاطرنا الشريف أن تُفاتح المقام العالي دامت معدلته بهذه المفاوضة؛ لتجدِّد من العهود القديمة رُسومها، وتُطلِع من مشارق المخاطبة نجومها، وتنسخ آية الهجران وتمحوها، وتصقل مرآة المصافاة وتجلوها))[1].

وقد حفظت لنا بعض المصادر التاريخيّة أخبار تلك السفارات التي دارت بين المملكتين مشيرةً إلى الحفاوة التي ينعم بها الرُّسل القادمون من تلك الدِّيار، حيث يذكر محيي الدِّين بن عبد الظّاهر الحفاوة التي يستقبل بها رُسل الملك بركة خان من قِبَل السُّلطان الظّاهر بيبرس ((وحمل إلى الرُّسلِ من الأنعام ما لا يُحصى، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركة من كلِّ شيءٍ على اختلافه، وعمل لهم في اللوق دعوة، واستمرَّ تفقّدهما في كلِّ يومي سبت وثلاثاء بأصناف الأنعام والأقمشة))[2].

وفي أحداث سنة 704هـ قال بيبرس المنصوريّ: ((وفيها وصل من جهة طقطا ملك التتار رسول إلى الأبواب العالية اسمه قرقجي، فأُكرم غاية الإكرام، وأُنزل

---

(1) المصدر السابق، 7/223-224.

(2) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص171.

بمنظرة الكبش في خير مقام، ووُصِلَ بكثيرٍ من الأنعام، وتفرَّج في الجيزة والأهـــرام، وأُعيد جوابه، وجهَّز إلى مرسله بأنواع التُّحف والهدايا واللُّطف))[1].

ومن خلال الخبر السابق يتأكَّد لنا مدى الحفاوة والتقدير الــذي يقــدَّم للرُّســل القادمين من المملكة القفجاقيّة، وهكذا استمرَّت العلاقات أقوى ما تكون صــفاءً بــين سلطنة المماليك وهذه المملكة من أيَّام الظَّاهر بيبرس، حتّى أواخر الحكم القلاووني.

2.2.2 مغول فارس

في أواخر القرن السابع الهجري حدثت حادثةٌ مهمّة ألا وهي اهتــداء القــسم الأكبر من المغول إلى الإسلام. ولقد أثبت المغول، سواء أكــانوا وثنيــين كهولاكــو وجنكيزخان وأولادهما، أم مسلمين كغازان وتيمورلنك، أنّهم أعداء ألــداء للحــضارة وللإنسانيّة، وللجنس البشري. وإنّ أفعال غازان وتيمورلنك في بــلاد الــشّام تــذكِّرنا بأعمال هولاكو، بل تفوّقهما همجيّة ووحشيّة.

لقد اتّخذ التتار من الإسلام غطاءً لتنفيذ مآربهم، وبسط سيطرتهم على ممالــك المسلمين، وخاصّة دولة المماليك؛ لذلك كانت الرسائل بعد إسلام المغول فيها موقفــان متقاربان، إذ يُكفِّر المغول صراحةً في قسم منها، وبخاصةً في البشارات بالنصر، أمّا القسم الآخر ففيه تشكيك بنواياهم، وطلب لتأكيد تمسكهم بالإسلام، وهذا الأخير كــان في الرسائل المتبادلة بين الطرفين. وربَّما أنّ السّلطة كانــت تحــاول أن تفيــد مــن إسلامهم، فتتّقي بذلك حروباً أُخرى.

اتّخذت علاقة التتار – بعد اعتناقهم الإسلام – مع أُسرة قلاوون طابعاً آخــر، يتمثّل في الخداع حيناً والتهديد حيناً آخر، فهم لم يتركوا الحرب والنضال والفساد في الأرض[2]. وكان أوّل من اهتدى من ملوك المغول إلى الإســلام وأعلــن ذلــك هــو

---

(1) المنصوري، ركن الدِّين بيبرس (ت725هـ): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالــد س. ريتشاردز – بيروت، ط1، 1998م، ص381.

(2) انظر أبا زهرة، محمّد: الدعوة إلى الإسلام، دار الفكر العربي – القاهرة، 1992م، ص62-63.

السلطان ايلخان أحمد تكدار[1]، الذي أعلن ذلك في منشور أصدره لمّا جلس على العرش سنة 680هـ، ووجّهه إلى أهل بغداد خاصةً[2].

وتبادل الملك المنصور قلاوون والسلطان أحمد تكدار خطابات الصُّلح بينهما، ومنها: نصّ خطاب ايلخان أحمد تكدار إلى الملك المنصور قلاوون سنة 681هـ، حيث يبدأ كتابه مبشِّراً الملك المنصور قلاوون باعتناقه الإسلام وسروره بانضمامه إلى الملَّة المحمّديّة، وموضّحاً له السياسة الجديدة في ظلِّ الإسلام: ((فإنّنا ابتدأنا بتوفيق الله تعالى بإعلاء الدين وإظهاره في إيراد كلِّ أمرٍ وإصداره تقديماً، وإقامة نواميس الشِّرع المحمّديّ على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيماً...))[3].

وقد سُرَّ السُّلطان قلاوون بنبأ إسلام ايلخان تكدار، حيث قال في نصّ الردِّ عليه: ((فالحمدُ لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام كحمدنا لله على أنه جعلنا من السابقين الأوّلين إلى هذا المقال والمقام ...))[4].

ويلاحظ من خلال مقدّمة ردِّ الملك المنصور على كتاب أحمد تكدار أنّ السلطان مبتهج بنبأ إسلام السلطان أحمد تكدار، وقد يُشكّ في أمر هذا النبأ، فهل إسلام تكدار صادق النيّة، أم هو ذريعة وستارٌ لأعماله[5].

وقد أشار أحمد تكدار إلى إسلامه في كتاب آخر جاء فيه ((بسم الله الرحمن الرحيم وإنّا جلسنا على كرسي الملك ونحن مسلمون، فيتلقون أهل بغداد هذه البشرى، ويعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البرّ ما كان يُعتمد في أيّام الخلفاء

---

(1) كان اسم هذا السلطان في الأصل تكدار، وقد اتخذ اسم أحمد عندما اعتنق الإسلام قبل سلطنته، وهو الذي خلف أبغا على مملكة ايلخانات المغول بفارس. انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص707.

(2) انظر ابن عبد الظّاهر: تشريف الأيّام والعصور، ص4.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 65/8.

(4) المصدر نفسه، 65/8.

(5) انظر سلاّم: الأدب في العصر المملوكي، ص7.

العباسيين، ويرجع كل ذي حقٍ إلى حقّه في أوقات المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلاميّة ...))[1].

وقد طلب الصلح في كتابه إلى السلطان قلاوون، موضّحاً له السياسة الجديدة في ظلِّ الإسلام، طالباً منه الانقياد والطّاعة، وترك الحرب والقتال؛ حتّى تحقن الدِّماء والأرواح وتسكن الحروب والفتن، فجاء في تلك الرسالة: "فإن وفَّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم، وانتظام أُمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسُّك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المُثلى، بفتح أبواب الطّاعة والاتّحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمرُ تلك الممالك وتِيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتُغمدُ السُّيوف الباترة، وتحلُّ العامةُ أرض الهُوينى وروض الهُدُون[2]، وتخلص رقاب المسلمين المسلمين من أغلال الذُّل والهُون. وإن غلب سوء الظّن بما تفضّل به واهب الرحمة، ومنع معرفة هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُذرنا))[3].

وقد بيَّن السُّلطان قلاوون في مجمل ردِّه على السلطان أحمد أنّه من أجل عقد صلحٍ بين الطرفين لا بُدَّ من قواعدٍ متينة يُبنى عليه الصلح، بحيث تحفظ للإسلام كيانه وقوّته، فالسلطان لا يقبل بأي صلح، ولا يساوم على دين المسلمين: ((وأمّا الإشارة إلى أنّ باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف، وتدرّبها من الخيرات الأخلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا رادَّ لمن طرق باب الاتِّحاد، ومن جنح للسَّلم فما جار ولا حاد؛ ومن ثنى عِنانه عن المكافحة، كمن يريد المصافحة للمصالحة؛ والصلح وإن كان سيّد الأحكام فلا بُدَّ من أُمور تُبنى عليها قواعده، وتُعلمُ من مدلولها فوائده ...))[4].

ويذكر السلطان أحمد تكدار ما كان من اجتماع قادة المغول بعد تملّكه، وإجماعهم على ضرورة حشد الجيوش لغزو المماليك، وهو تهديدٌ مبطَّن، وإن كان أحمد قد أخبر قلاوون بعدم موافقته على رأيهم بقوله: ((فاجتمع عندنا ... جميع

---

(1) المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص171.

(2) الهدون: الدعة والسُّكون. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 69/8، حاشية رقم (2).

(3) المصدر نفسه، 69/8.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى: 262/7.

الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ... واتّفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في الجمِّ الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رُعباً لعظيم صولتها، وشديد بطشتها، إلى تلك الجهة ...))[1].

وقد ذكر الملك أحمد دواعي عدم موافقته على إرسال الجيوش لحرب المماليك، باعتباره مسلماً ولا يجوز للمسلم أن يحارب أخاه المسلم؛ لذلك أوقف هذا القرار وأرسل يخبر بذلك قلاوون ممتنّاً عليه، ومبيِّناً رغبته في انتظام الصُّلح، وتسكين الفتن، وحفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، ومن ثمَّ عاود التهديد مرّةً أخرى. قال: ((إنّا لا نحبُّ المسارعة إلى هزِّ النِّصال للنِّضال، إلاَّ بعد إيضاح المحجّة))[2].

وكان ردُّ قلاوون على تهديدات الملك أحمد بجيوشه الكثيرة، وعلى رفضه آراء قومه من ضرورة الإسراع في قتال المماليك ردّاً لبقاً، حيث فسَّر ابن الظّاهر ذلك بأنّهُ خوفٌ وتخاذل، وبأنَّه لم يكن نتيجة خوفه وحرصه على دماء المسلمين ورغبته في الاتّحاد، بل كان رهبةً من عواقبه الوخيمة عليه وعلى قومه. قال محي الدِّين: ((... وأنَّه أطفأ تلك النائرة، وسكن تلك الثائرة، فهذا فعل الملك المتَّقي، المشفق من قومه على من بقي، المفكِّر في العواقب، بالرأي الثّاقب، وإلاَّ فلو تركوا وآراءهم حتّى تحملهم الغرّة، لكانت تكون هذه الكرّة هي الكرّة، لكن هو كمن خاف مقام ربه ونهى النَّفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضلَّ ولا فعل من غوى))[3].

وقد أفاض السُّلطان أحمد في رسالته في توضيح صدق نيّته، وصحّة طويّته، وأطلَع قلاوون على ما قام به ممّا يُثبت ذلك، من إقامة شعائر الدِّين، وإصلاح أحوال المسلمين، والحفاظ على أموالهم، والاهتمام بإقامة المساجد، ومنع عساكره من التعرُّض لبلاد المسلمين المجاورة، وأبلغ قلاوون أنَّ عساكره قبضوا على جاسوس للمماليك في زيِّ الفقراء، فأطلقه السلطان أحمد لحرمة دم المؤمن، لكنّه أتبع ذلك كلّه بتهديدٍ سافرٍ طلب فيه من قلاوون بذل الطّاعة، وهدّده بما قد يحدث لو لم ينزل على

(1) المصدر السابق، 67/8.

(2) المصدر نفسه، 67/8.

(3) المصدر نفسه، 260/7.

أمره، قال: ((... فقد وجب عليك التمسُّك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المُثلى بفتح أبواب الطّاعة والاتِّحاد، ....، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عُذرنا، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾*))[1].

وفي سياق ردِّ الملك قلاوون على رسالة السلطان أحمد ينبِّه إلى أسبقيّة المماليك في الإسلام، وأنَّ ذلك يعطيهم ميزةً عليه وعلى قومهِ، وأشار إلى أنَّ إقامة شعائر الإسلام من أوجب واجبات الملك المسلم معاتباً له على تفاخره بإقامة شعائر الإسلام من العدل والإحسان وإصلاح الأوقاف، وتسبيل سبل الحج ... ويخبره أنَّ الملوك الأكابر تفخر بردِّ ممالك على ملوكها، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها[2]. أمّا فيما يتعلّق بالجاسوس الذي تمَّ اعتقاله في بلاد السلطان أحمد، فيخبره أنّ المغول هم الذين بدأوا إرسال الجواسيس إلى بلاد الشّام ومصر: ((وأمّا الجاسوس الفقير الذي أُمسك ... فهذا بابٌ من ذلك الجانب "ستروه، وإلى الاطِّلاع على الأمور صَوَّروه؛ فظفر النوّاب منهم بجماعةٍ فَرُفِعَ عنهم السَّيف، ولم يكشف ما غطَّته خرقة الفقر ولا كيف"))[3]. ثمَّ ردَّ على استشهاده بالآية الكريمة: ، بقوله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، بقوله: ((وأمّا الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى ....، فما على هذا النسق من الودِّ يُنسج، ولا على هذا السبيل يُنهج، بل لفضل المتقدِّم في الدِّين ونصره عهود تُرعى، ....، ولو تأمّل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروّى وتأمّل))[4].

وهدَّد قلاوون ملك المغول في أنحاء مختلفة من الرسالة، والملاحظ على تهديداته أنّها كانت غير مباشرة، بل فيها نوعٌ من التلميح والإشارة مثل قوله: ((... ورأى الله والنّاس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدوّنا وإعزاز مُصافينا))[5]، وقال في

---

* سورة الإسراء، آية (15).

(1) القلقشندي: صبح الأعشى: 69/8.

(2) المصدر نفسه، 261/7.

(3) المصدر نفسه، 262/7.

(4) المصدر نفسه، 262/7.

(5) المصدر نفسه، 263/7.

موضعٍ آخر: ((إذا كفَّ كفُّ العدوان، وترك المسلمين وما لهم من ممالـــك، ســكنت الدهماء، وحُقنت الدِّماء، وما أحقّه بألاّ ينهى عن خلقٍ ويأتي مثله))[1].

وكان ردُّ قلاوون على طلب السُّلطان أحمد في تحديد موعــد ومكــان للقـــاء الجيوش يمتاز بالحنكة واللَّباقة، حيث تهرَّب قلاوون من ذلك تهرُّب القادر، والرَّاغب في تحقيق المصالحة وحقن الدِّماء، والدبلوماسي الذي يستغلُّ الفرصة حين ظهورهــا وإمكان تحقيقها، فلم يُظهر في ردِّه خوفاً، ولا حنقاً، بل أظهــر رغبتــه فـــي تحقيـــق الصُّلح، وإرساء أواصر المحبَّة والمودَّة، فقال: ((ومن المشافهة أنّه إن حصل التصميم ألاَّ تبطُل هذه الغارات، ولا تفتر هذه الإثارات فيُعينُ مكاناً يكون فيه اللقاء، ويعطـــي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك أنَّ الأماكن التي اتَّفق فيها ملتقى الجمعين مرةً ومرّة، فقد عاف مواردها من سلم من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يُقدر، وما النَّصر إلاَّ من عند الله لمن أقدرُ لا لمن قدّر))[2].

وقد عبَّر ردُّ قلاوون عن صلابة الإرادة العربيّة، وعن العـــزم القـــوي علـــى الثبات والصمود والمقاومة[3]. وأدَّت رسالة قلاوون إلى تحسين العلاقة بين الطرفين، حيث أرسل الملك أحمد وفداً إلى قلاوون لعقد الصُّلح عام 682هـ[4].

ولم تتبدَّل نفسيّة ولا سلوك من أتى بعد السلطان أحمد من سلاطين المغول، بل ظلُّوا يتطاولون على بلاد الشّام ومصر ويحاولون التوسُّع في تلك البلاد، فقـــد أرســـل ملك المغول كيختوا إلى السُّلطان الأشرف خليل رسالة يطلب منه أن يُعيد لـــه حلـــب لأنّها ممّا فتحه هولاكو وهو يريد الإقامة فيها، ويقول له: ((إنْ رفضَ ذلـــك فـــسيأخذ الشّام كلّه منه. ولقد أجابه السُّلطان بما يلي: قد وافق القان ما كان في نفـــسي، فـــإنّني

(1) المصدر السابق، 263/7.

(2) المصدر نفسه، 264/7.

(3) انظر بدوي، أحمد أحمد: الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الـصليبيّة بمـــصر والـــشّام، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة، ط2، د.ت، ص556.

(4) انظر ابن عبد الظّاهر: تشريف الأيّام والعصور، ص70.

كنت على عزم من أخذ بغداد وقتل رجاله، فإنّي أرجو أن أردّها دار إسلام كما كانت، وسينظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه...))[1].

ولا شكَّ أنَّ العداوة ظلّت بين الدولتين مستحكمة والأحقاد ظاهرة وباطنة، وقد بقيت هذه المراسلات بين الطرفين، تحمل طابع الوعيد والتهديد والكشف عن سوء النيّات، وقد نهج السُّلطان غازان منهجاً آخر في رسائله يتمثّل في كتب الأمان، إذْ كان له مآرب من اعتناقه الإسلام، فهو يريد أن يتفوّق على الأمراء الأقوياء، وأن يكتسب الكثير من الأعوان؛ لأنَّ المسلمين حينئذٍ سيقفون إلى جانبه وتزداد قوّته باعتناقه للإسلام[2]، وقد كانت سياسته بعث كتب الأمان إلى حواضر الشّام، والتي لا تعني سوى أمراً واحداً يتمثّل في الاستسلام، والانقياد والخضوع التّام لأوامره، وقد سوّغ احتلاله لتلك الحواضر بالظُّلم والعدوان الواقع عليهم من نوّاب السلطنة فيها، وعدَّهم خارجين عن الدِّين الإسلامي، فجاء في أحد فرماناته لأهل دمشق ((ولمّا سمعنا أنّ حكام مصر والشّام خارجون عن طرائق الدِّين، غير متمثّلين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، مخالفون لمعبودهم، حالفون بالإيمان الفاجرة، ظالمون في أحكامهم المتغايرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام، ولا انتظام))[3].

شملت تلك الرسالة ألواناً من الوعيد والتهديد، وقد تستّر غازان وراء العقيدة الإسلاميّة لتسويغ وحشيته ونهبه وسلبه وقتله للآمنين من المسلمين، ويدّعي أنّه جاء لنصرة الدِّين ورفع الظلم عن المسلمين، حيث يقول: ((حملتنا الحميّة الدينيّة، والحفيظة الإسلاميّة على أن توجّهنا إلى هذه البلاد، لإزالة العدوان والفساد))[4].

وبعد أن هاجم غازان بلاد الشّام واجتاحها ووصل في زحفه إلى دمشق واحتلّها، وفعل بها القبائح، أرسل رسالةً إلى السُّلطان المملوكي النّاصر محمّد بن قلاوون يشرح ما حصل ويعلن أنّه هو المؤمن المسلم حقّاً، وأنّه احتلَّ بلاد الشّام لدفع

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص786.

(2) انظر إقبال، عبّاس: تاريخ المغول، ترجمة عبد الوهاب علّوب، المجمع الثقافي – أبو ظبي، 2000م، ص264.

(3) الصفدي: أعيان العصر، 4/15-16.

(4) المصدر نفسه، 4/16

عدوان المماليك. ثمّ بعد ذلك لا يخجل أن يقول: ((والآن فإنّا وإيّاكم لم نزل على كلمة **الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرّق كلمتنا، إلاّ ما كان من فعلكم بأهل ماردِين،** وقد أخذنا منكم القصاص، وهو جزاء كل عاص، فنرجع الآن إلى إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإيّاكم على العدل في سائر القضايا...))(1).

وقد بعث غازان إلى السُّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون يطلب الصُّلح بأُسلوب فظّ، بإسلوب التقريع والتهديد والإرعاد، حيث يذكر قسوة عساكره وعـددها: ((وها نحن الآن أيضاً مهتمّون بجمع العساكر المنـصورة، ومـشحذون غـرار عزماتنـا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار، وما كنّا معذبين حتّى نبعث رسولاً))(2).

نلاحظ أنّ القسوة والاستعلاء والغرور والتجبُّر سمة غالبة على هذا الكتـاب، فأيُّ صلحٍ يبغي وهو مُصرٌّ على الوعيد والتهديد ((...، فما بعد الإنذار مـن عـاذر، وإن لم تتداركوا الأمر، فدماء المسلمين، وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبـة مـنهم عند الله على طول تقصيرهم ...))(3).

وقد كان ردُّ السُّلطان ناصر عليه حاسماً جريئاً، حيث لم يأبه لكثرة عـساكره، وأدواته الحربيّة، فجاء في نصِّ الردِّ عليه: ((وأمّا ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام لجمع العساكر، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك ممّا ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾*))(4).

ويستنكر السُّلطان النّاصر على غازان طريقته بطلب الصُّلح، فمن قصد وأراد الصُّلح لا يهدِّد ويخوِّف، فكيف سيؤمن النّاس لنيّة السّلطان غازان بطلب الصُّلح على

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 8/142-146.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1017.

(3) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1017.

* سورة آل عمران، آية (173).

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1022.

هذه الشاكلة: ((وأمّا قولهم وإلاّ فدماء المسلمين مطلولةٌ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بألاّ يصدر إليهم عن ذلك جواب، ومن قصده الصُّلح والإصلاح كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أي جناح؟ وكيف يضمر هذه النيَّة، وينجح بهذه الطويّة، ولم يُخفِ مواقع هذا القول وخلله؟ والنبي ﷺ يقول: نيّةُ المرء أبلغ من عمله ...))[1].

ويشير النَّاصر إلى أنَّ جيوشه على قمّة التأهُّب والاستعداد للعدو، عدداً وعدّةً تحفّها الملائكة بالنَّجدة والنَّصر: ((وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام، بما نحن عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله من الأنجاد، والاستكثار من الجيوش الإسلاميّة المتوفّرة العدد، المتكاثرة المدد، الموعودة بالنَّصر الذي يحفُّها في الظعن والإقامة ...))[2].

ويؤكِّد النَّاصر نيَّته نحو الصُّلح والسِّلم، ولا سيَّما إذا جنح غازان للسِّلم، وتمسَّك بالدِّين المحمّديّ تمسُّكاً وثيقاً قوياً ((إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملَّة المحمّديّة ممتثلاً ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى، وانضمَّ في سلك الإيمان، وتمسَّك بموجباته تمسُّك المتشرّف بدخوله فيه لا المنَّان، ... وينتظم إن شاء الله شمل الصّالح أحسن انتظام، ويحصل التمسُّك من الموادعة والمصافاة بعروةٍ لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقرُّ قواعد الصُّلح على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصّلاة والسَّلام...))[3].

لقد كانت كلا الرسالتين تمتاز بالعظمة والفخر والإشارة إلى قوة وبطش كل منهما[4].

وممّا يُلفت النَّظر في طبيعة الصِّراع بين المسلمين والمغول، أنَّ صورته لم تتغيّر في النثر حتّى بعد إسلامهم. وكان دخولهم في الإسلام مثيراً للاضطراب في

---

(1) المصدر السابق، ج1، ق3، ص1022.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1022-1023.

(3) المصدر نفسه، ج1، ق3، 1023.

(4) انظر سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب – القاهرة، 1962م، م5، ص120.

صفوف المسلمين الذين كانوا يواجهونهم في ميدان القتال. ويكشف عن البلبلـــة التـــي أحدثها دخول المغول في الإسلام ما جاء في رسالة جوابيَّة بعث بها الملك النَّاصر بن قلاوون إلى غازان وذلك قوله في بيان سبب الهزيمة التي حاقت بجيش المماليك سنة 699هـــ، ((أنَّهُ – أي غازان– لَمَّا رأى أنّه ليس له بجيشنا قِبل في المجال، عاد إلـــى قول الزُّور والمحال، ...، وتظاهر بدين الإسلام))[1]، ولذلك امتنعت الجيـــوش عـــن قتاله، وقال مشكِّكاً في إسلامه، طالباً منه توكيد ذلك: ((فأين، وكيف، ومـــا الحجّـــة؟ وحرم البيت المقدّس تُشرب فيه الخمور، وتفتض فيه البكور، ويُقتل فيه المجـــاورون. ويُستأسر خطباؤه والمؤذِّنون، ثمّ على رأس خليل الرحمن تُعلَّـــق الـــصلبان، وتُهتـــك النسوان، ويدخل فيه الكافر سكران، فإنَّ كلَّ هذا على علمك، فواخيبتك فـــي دنيـــاك وأخراك، ...، وإن كنت لم تعلم بذلك، فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك، وإن كنت كما زعمت أنّك على دين الإسلام، ...، فاقتل الطـــوامين[2] الـــذين فعلوا هذه الفعال، وأوقع به أعظم النكال، لنعلم أنّك على بيضاء المحجّـــة))[3]. وقـــد سبَّب إسلام المغول بعض التضارب في جواز قتالهم قبل وقعة مـــرج الـــصفّر عـــام 702هـــ، وكان من أهم العوامل التي عملت على قتالهم ودحض صفوفهم الشيخ ابـــن تيميّة الذي أقرَّ بوجوب قتالهم[4]، يقول ابن تيميَّة: ((ومع خضوع التتار لهذه الملَّة[5]، وانتسابهم إلى هذه الملَّة، فلم نخادعهم ولم ننافقهم، بل بَيَّنَّا لهم ما هم عليه من الفساد، والخروج عن الإسلام الموجب لجهادهم))[6]. وكان رأيه في رسالته إلى النَّاصر أنّـــه ((انكشف لعامّة المسلمين ... حقيقة هؤلاء المفسدين الخارجين عن شـــريعة الإســـلام

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 143/8.

(2) جمع طومان (تومان)، وهو أمير عشرة آلاف فارس. انظر القلقـــشندي: صـــبح الأعـــشى، 423/4.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 143/8-145.

(4) ابن تيميّة: فتاوى ابن تيميّة، 298/4.

(5) أي ملّة المسلمين.

(6) ابن تيميّة، تقي الدّين أحمد بن عبد الحليم (ت728هـــ): الرسالة القبرصيّة، مكتبـــة أنـــصار السنّة المحمّديّة، ط3، 1946م، ص(40-41).

وإن تكلّموا بالشهادتين، وعلم من لم يكن يعلم ما هم عليه من الجهل والظُّلم، والنفـــاق والتلبيس))[1].

وبعد هذه المعركة برز الصِّراع الدينيّ مع المغول بصورةٍ جليّة، وأصــبحت قضية تكفيرهم في الرسائل ثابتة، فهم أعداء الملَّــة المــشركون، وأحــزاب الكفــر وأشياعه. قال الشهاب محمود في البشارة بالنَّصر عام 702هــ: ((وبرز فيه الإســلام كلّه للشرك كلّه، ولله الحمد الذي أعزَّ دينه ونصره، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعد أن حصره، وأباد جيوش الشرك وهم مائة ألف أو يزيدون وأفنى أحزاب الكفــر، وكانوا أمثال الرِّمال لا يعدُّون))[2]. وفي معرض رسالةٍ بعث بها الملك الظّاهر برقوق جواباً لرسالة أرسلها لهُ تيمورلنك ينعته فيها بالكفر والظلم: ((فأعمالك هذه كلّها منافية لدعواك، بل منافية لدين الإسلام وشرع سيّدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسَّلام. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3]. وقــال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[4]))[5].

ولقد ظلَّ تيمورلنك متردّداً في الهجوم على بلاد الــشّام طيلــة حيــاة الملــك الظاهر، ولم يجرؤ على مهاجمتها إلاَّ بعد وفاته، وبعد أن استلم ابنه القاصــر فــرج عرش السلطنة[6]. فزحف تيمورلنك إلى بلاد الشّام وشنَّ عليها حرباً ليس لها مثيل في التاريخ بهولها وشناعتها وبعدها عن كلٍّ القيم الإنسانيّة والأخلاقيّــة. فــدمّرها وقتــل رجالها وسبى نساءها وفعل بها أفعالاً تدمغه بالكفر والوحشيّة. وقد تخلّى حكّام مصر عن بلاد الشّام بسبب الخلاف والتنافس على العرش، ودفعت بلاد الشّام ثمنــاً رهيبــاً لهذا الخلاف.

---

(1) المصدر السابق، ص (40-41).

(2) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 162/5.

(3) سورة المائدة: الآية (45).

(4) سورة المائدة: الآية (44).

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 308/7-309.

(6) انظر حمادة: وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي، ص88.

استمرّت المراسلة بين السلطان فرج وتيمورلنك، ونجد تغيّـراً واضـحاً فـي مخاطبة تيمورلنك من قِبَل السلطان فرج، فقد خوطب بألقاب الأبـاطرة المعظّمـين، وخلت الرسالة من شيء اسمهُ تحدٍ أو تهكُّم، بل كانت الرسالة عبارة عن تعداد لمناقب تيمور فهي تنطقُ بعظمته وبفضائله، وخير مثال على ما ذكرت وثيقة الـصُّلح بـين تيمورلنك والسُّلطان فرج بن برقوق سنة 804هـ، وذلك بعد ما لحق دمشق من دمار على يد تيمورلنك، فيخاطبه بقوله: ((... ولمَّا كان المقام الشريف، العالي، الكبيـري، العالمي، العاملي، المؤيّدي المظفري، الملجئي، الملاذي، الوالدي، القطبـي، نـصرة الدين، ملجأ القاصدين، ملاذ العابدين، قطب الإسلام والمسلمين، تيموركوركان، زيدت عظمته))[1]. وقد تمَّ عقد الصلح بينهما على أن يسلِّم فرج بن برقوق الأمير أطلمـش ليتمورلنك فكان له ذلك، وقد أحسن السلطان فرج الردَّ على تيمور، وربّما لـم يكـن باستطاعته إلاَّ أن يفعل ذلك[2].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 119/14.

(2) انظر المصدر نفسه، 7/319-321.

الفصل الثالث
صورة المغول قبل الهزيمة

1.3 أطماع المغول وتعليل الغزو

كان للغزو المغوليّ أثره على نفوس الكتّاب، فراحوا يعلّلون ذلك الغزو، ويفسّرون أسبابه، فقد ذكر ابن الأثير سبب اجتياح المغول للعالم الإسلامي، وهي حادثة أوترار[1]، حيث بعث جنكيزخان نوّابه إلى المدينة المذكورة، ليشتروا له الكسوة، فأمر خوارزمشاه[2] بقتلهم، فعلم بذلك جنكيز خان، فدارت رحى الحرب بين عساكر جنكيزخان وخوارزمشاه، ومن هنا كانت انطلاقة المغول لغزو البلاد الإسلاميّة[3]. وبعد غضب جنكيزخان الشديد، بدأ بحملاته العنيفة ضدّ المدن الإسلاميّة ((فساق جنكيزخان بعد استيلائه على أترار إلى بخارا[4] وهي أقرب المدن إلى مراكز الرايات السلطانيّة، يحاصرها، ... فحطَّ على بخارا محاصراً وبمن ساقهم من رجّالة أترار وخيالتها متكاثراً، وداوم القتال عليها ليلاً ونهاراً حتّى استولى عليها عنوةً واقتداراً ...))[5].

وغلب على أذهان بعض الكتّاب أنّ الغزو المغوليّ، هو عقاب من الله على حياة الفساد التي كان المسلمون يعيشونها في ذلك الوقت، وانتهاكهم لمحارم الله، وارتكابهم للمآثم، يقول الكازوني في مقامته: ((إلاَّ أنَّهم انتهكوا المحارم وارتكبوا

---

(1) مدينة من بلاد الترك، أخر ولاية خوارزم شاه. انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 361/12.

(2) علاء الدين محمّد، توفي 617هـ على يد المغول. انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 271/12.

(3) انظر المصدر نفسه، 401/12.

(4) بخارا: من أعظم مدن ما وراء النهر، بينها وبين جيحون يومان. انظر الحموي: معجم البلدان، 353/1.

(5) النسوي، محمّد بن أحمد (ت639هـ): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، دار الفكر العربي- مصر، 1053م، ص100.

المآثم، وأصرُّوا على الفجور وسفك الخمور. ولا جرم أنَّ العـرش اهتـزَّ غـضباً، وسُعِّرت جهنَّم حصباً، وازدادت لهباً، فأخذهم الله تعالى إليه "أخذ عزيزٍ مقتـدر"))[1].

وفي موضعٍ أخر ينعته بالعذاب، بقوله ((إلاَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى، لمَّا أرسل عذابـه سلب كلاً منهم عقله وصوابه. فنفذ سهم القضاء، وانتشرت جناح الحِمام في الفـضاء، فلم تنفع الجُنَّة ولا السِّلاح ولا البواتر ولا الرِّماح. فوقع الفشل وعمَّ الكسل وساء العمل وكثر الزّلل، وبَطُلَ التدبير وحار الوزير: فنزل بهم العدو حين اختلُّوا، و"ما غزّي قومٌ في عُقرِ دارهم إلاَّ ذلُّوا"))[2].

وقد أشار الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العبَّاس إلى المعنى نفسه فـي خطبتـه، حيث يقول: ((أيُّها النّاس اعلموا أنّ الإمامة فرض من فـروض الإسـلام، والجهـاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلاَّ باجتماع كلمة العبـاد، ولا سـبيت الحُرمُ إلاّ بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدِّماء إلاَّ بارتكاب الجرائم))[3].

ويذهب بعض الكتَّاب إلى أنَّ الغزو المغوليّ فتنةٌ للمسلمين، وقد ظهر ذلك عند الشيخ تقيّ الدِّين ابن تيميّة في كتابه (كشف النقاب عن معالم سورة الأحزاب)، الـذي عدّهُ فتنة عظمى فتكت بالبلاد، وقلبت أحوال النّاس، جاء فيه: ((ونزلت فتنـةٌ تركـت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصَّاحي منزلة السَّكران، وتركت الرَّجـل اللبيـب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوبُ المعارف والإخوان))[4].

---

(1) الكازورني، ظهير الدِّين علي بن محمّد (ت697هـ): مقامة في قواعد بغداد، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل مراد، مطبعة الإرشاد – بغداد، 1962م، ص28.

(2) المصدر نفسه، ص23.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 275/13.

(4) ابن تيميّة، تقيّ أحمد بن عبد الحليم الدمشقيّ (ت728هـ): كشف النِّقاب عن معـالم سـورة الأحزاب ومقارنتها (بكائنة المسلمين مع التتار في القرن الثامن)، علَّق عليها علي بن حـسن الحلبيّ، دار الصميعي للنشر والتوزيع – الرياض، ط2، 2003م، ص17-18.

أمَّا ابن عربشاه[1] فقد صوَّر الغزو المغوليّ بقيادة تيمورلنك بأنَّهُ فتنةٌ عامّـــة، ويقرنها بفتنة المسيح الدجَّال، فيسمي تيمور لنك بالأعرج[2] الدجَّال وذلك في بيتين من الشعر، إذْ يقول[3]:

ناهيـــــكَ مِـــــنْهُم فتْنَـــــةٌ   كـــالأبحرِ الظّلمـــا تَمُـــورُ
الأَعْـــــرَجُ الـــــدَّجَالُ مِـــــن   قـــصم الجمـــاجم والظُّهـــورُ

ومنهم من يلجأ إلى تحميل المسلمين مسؤوليّة الغزو المغوليّ؛ وذلك لاختلافهم وتفرُّق كلمتهم، فقد بعث بعض الأمراء إلى الأمير شمس الدِّين سنقر الأشـــقر أميـــر حلب رسالةً يطلبون منه أن يجتمعوا، ويوحدوا كلمتهم لدفع شرِّ عدوّهم القـــادم إلـــى غزوهم ((قد دهمنا هذا العدو وما سبّبه إلاَّ الخلف فيما بيننا، ومـــا ينبغـــي أن نهلـــك المسلمين في الوسط والمصلحةُ أن نجتمع على دفعه))[4]. وقد أشار ابن الأثير إلى ما كانت عليه حال المسلمين الداخليّة ((فالسَّيف بينهم مسلول، والفتنةُ قائمةٌ على ساق... فإنّا لله وإنّا إليه راجعون))[5].

لقد تجلَّت في النثر صورة المغول الغزاة بأطماعهم التي كانوا يـــسعون إلـــى تحقيقها في بلاد الإسلام، وقد أشار الكتَّاب إلى تلك الأطماع من خلال وصفهم للهزائم التي أُلحقت بالمغول، وذلك حتّى يكشفوا عن الدَّور الذي لعبه القائد المسلم، وجيشه في إفشال أطماع المغول، وتبديد أحلامهم. فقد كتب شهاب الدِّين محمـــود الحلبـــي إلـــى متملك سيس عند كسرة التتار، بعد قيامه معهم في المصافِّ، ومساعدته إيَّاهم، يقـــول:

---

(1) شهاب الدِّين أحمد بن إبراهيم الدمشقيّ المعروف بابن عربشاه، ولد بدمشق ســـنة 791هـــــ، كان إماماً بارعاً في كثيرٍ من العلوم ومنها الفقه والعربيّة، والبيان والأدب والتاريخ، وله شعر جيّد، توفي في القاهرة سنة 854هـــ. انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 272/15.

(2) لقد كان تيمورلنك أعرج من سهم أصابه. انظر ابن تغري بردي، جمال الدِّين أبو المحاســـن يوسف الأتابكي (ت874هـــ): المنهل الصّافي والمستوفي بعد الوافي، حقّقه محمّد محمّد أمين، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصريّة للكتاب – القاهرة، 1984م، 104/4.

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص395.

(4) ابن عبد الظّاهر: تشريف الأيّام والعصور في سيرة المنصور، ص76.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 361/12.

((وكُنَّا بمكرهم عالمين، وعلى معاجلتهم عـــاملين، وحـــين تبـــيَّن مـــرادُهم، وتكمَّـــل احتشادهم، استدرجناهم إلى مصارعهم، ... وقد علِمَ أنَّ أمر هذا العدوّ المخـــذول مـــا زال معنا على هذه الوتيرة، وأنَّهم ما أقدموا إلاَّ ونصرنا الله عليهم في مواطنَ كثيـــرة، وما ساقتهم الأطماع في وقت ما إلاَّ إلى حتوفهم))(1).

وقد تطلَّع التتار إلى السيطرة على مراكز الحجّ الإسلامي في الحجاز، فلم تكن أطماع المغول مقتصرة على الشَّام ومصر، بل كانوا يريدون بالإضـــافة إليهـــا أرض الحجاز والحبشة، وذلك منذ أيَّام الظاهر بيبرس الذي توجَّه بنفسه إلى الحجاز عنـــدما بلغته الأخبار في سنة 667هـــ بأنَّ التتار ((جهَّزوا ركباً إلى الحجاز، وقصدوا بـــذلك كشف الطرقات، والتلصّص على تلك الجهات، فركبوا الطريق، ومعهم جماعـــة مـــن المغل لا يعرفون الله، ولا حرمة ولا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة، كم أهلكـــوا مـــن أُمم! وكان قصدهم استباحة دم الحجّاج في الحرم، فبلغتهم حركة الـــسلطان، فرجعـــوا خائبين))(2).

وتردَّدت رُسل شاه رخ بن تيمور إلى السُّلطان المملوكي في القـــرن التاســـع الهجري طالبةً أن تكون كسوة الكعبة لشاه رخ إلاّ أنَّ السُّلطان المملـــوكيّ ردَّهـــا ردّاً قبيحاً مبيِّناً لهم أنَّ كسوة الكعبة لسلاطين المماليك وليس لغيرهم))(3).

ومن الدوافع التي حدت بالمغول إلى القدوم لبلاد الشّام، الأطماع الاقتـــصاديّة وخاصّةً التجاريّة منها. حيث هدفوا إلى السيطرة على البحر الأبيض المتوسّط الـــذي يربط المنطقة بأوروبا، وممّا يؤيِّد قولنا بأنَّ الدَّوافع كانت اقتصاديّة ما أقدم عليه القائد المغوليّ تيمورلنك من أسره للصنَّاع والتجَّار، وأصحاب المهن والحرف سواء العلميّة أو الأدبيّة أو الصناعيّة(4).

وقد كان المغول يصرِّحون بأطماعهم التي قدموا من أجل تحقيقها فـــي الـــشّام سنة 702هـــ. ففي تلك السنة جاء كتاب من غازان إلى المسلمين في الشّام مضمونه:

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 260/8.

(2) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص356.

(3) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 368/14، 48/15.

(4) انظر ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص117.

أنّه يريد غزوهم في تلك السَّنة، ويبيّن السبب في الغزو، إذ يقول فيه: ((ما جئنا هذه المرّة، إلاَّ للفرجة في الشّام))[1]، ومعنى ذلك أنَّ المغول ((قد أمحلت بلادهم، وقلَّت مراعيهم، وأنَّهم قاصدون التَّوسُّع إلى ما يلي الفرات في ارتياد المراعي))[2].

وبذلك يكشف لنا النثر عن أطماع المغول، وهدفهم من غزو بلاد المسلمين، وهي في غالبها أهداف استيطانيّة توسّعيّة، حتّى يستولوا على ملك البلاد ويجتنوا خيراتها.

2.3 أحلاف المغول

لم تكن الحملة المغوليّة على بلاد الإسلام مكوَّنة من المغول وحدهم، بل كانت تشتملُ على العديدِ من الأحلاف. وتشير المصادر التاريخيّة إلى بعض مظاهر التحالف بين المغول والصليبيين والأرمن والرُّوم بعد احتلال المغول بلادهم عام 641هـ[3]، كما تشير إلى عقد اجتماعات على مستويات رفيعة بين الأطراف المعادية للإسلام، فقد ذكر ابن العبري في أحداث سنة 643هـ، عن اجتماع تمَّ في بلاد المغول ضمَّ ((الأولاد والأحفاد، وأمراء المغول، ... وحضر في المجمع من غير المغول أيضاً، ممّا وراء النهر وتركستان، الأمير مسعود بيك، ومن خراسان الأمير أرغون آغا، ... ومن الرُّوم السلطان ركن الدِّين، ومن الأرمن الكند سطبل، أخو التكفور حاتم، ومن الشَّام أخو الملك النَّاصر صاحب حلب، ومن بغداد فخر الدِّين قاضي القضاة))[4]. وفي حاشية الكتاب جاء قول المحقّق: ((فات المؤلِّف أن يذكر فيمن حضر في هذا المجمع العظيم الرَّاهب يوحنا دي بلان كاربين، سفير الباب أينو شنسيوس الرّابع))[5]. كما دارت بعض الرسائل بين المغول والصليبيين للإخبار بتحرُّكات جيش المماليك[6].

---

(1) الصفدي: الوافي بالوافيات، 361/4.

(2) بيبرس المنصوري: التحفة الملوكيّة، ص163.

(3) انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، 171/3.

(4) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص256.

(5) المصدر نفسه، ص256، حاشية رقم (4).

(6) انظر اليونيني: ذيل مرآة الزّمان، 93/2.

لقد وجد المسيحيّون الشرقيُّون فرصةً طيِّبةً في غزو هولاكو العراق، فاشتركت نسبةٌ كبيرةٌ منهم في جيشِ هولاكو الزَّاحفِ إليها[1]، وممّا يدلّ على ذلك التحـالف أنَّ المغول بعد سقوط بغداد لم يتعرَّضوا للنصارى بالقتل والأذى، بل على العكس من ذلك عين لهم شحنٌ يحرسون بيوتهم[2]، وأعطى هولاكو دار الخليفة بعد سقوط بغداد لشخصٍ من النصارى[3]، وتقدّم ((الجاثليق بسكنى دار علاء الدِّين الطبرسي الدوايدار الكبير[4] التي على شاطئ دجلة فسكنها، ودقَّ النَّاقوس على أعلاها، واستولى على دار الفلك التي كانت رباطاً للنِّساء ....، وعلى الرِّباط البشريّ المجاور لها، وهدم الكتابة التي على البابين، وكتب عوضها بالسِّرياني))[5]، وقد وجد النصارى على إثرِ ذلك الفرصةَ سانحةً لهم لإعلانِ مفاسدهم وفجورهم، فطلبوا ((أن يقعَ الجهرُ بشربِ الخمرِ وأكلِ لحمِ الخنزيرِ، وأن يفعلَ معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان، فألزم المسلمون بالفطرِ في رمضان، وأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر))[6]. وعلى حسب

---

(1) انظر عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة، ط3، 1976م، 1067/2.

(2) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص329.

(3) انظر السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت771هـ): طبقات الشّافعيّة الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناجي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، ط1، 1964م، 272/8.

(4) كان من الأُمراء الأكابر المشهورين بالخير والشجاعة، تولى نيابة قلعة دمشق سنة 669هـ، وتوفى سنة 689هـ. انظر الصقاعيّ، فضل الله بن أبي الفخر (ت726هـ): تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدراسات العربية – دمشق، 1974م، ص93.

(5) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص233-234.

(6) السبكي: طبقات الشافعيّة، 271/8.

اعتقادي أنّ كلّ ذلك لم يتمّ مصادفةً أو فجأة ((والغالب أنَّهُ وقع طبق خطّة مرسومة، أو حسب اتّفاق بين سلاطين المغول وزعماء النَّصارى قبل وصولهم العراق))[1].

ولقد ذكر المؤرّخون أسماء العديد من الأُمم التي قدمت بصحبة المغول لغزو بلاد الإسلام، مثل: الكرج، والأرمن، والعجم، وغيرهم، فقد شارك داود ملك الكرج بجيشه المغول في غزو بغداد سنة 656هـ[2]، وكان الكرج والأرمن والعجم يقاتلون في صفوف الجيش المغوليّ في معركة حمص سنة 689هـ[3]، كما شاركوهم في وقعة وادي الخزندار سنة 699هـ[4]، وفي معركة مرج الصفّر سنة 702هـ[5]. وكان الأرمن من أبرز أحلاف المغول، وقد وقَّعوا معاهدة صداقة مع المغول سنة 1254م، وعدوهم فيها بإمدادهم بالجيش والمؤونة، وبجميع الطرق والمعابر عند الحاجة[6]، لقاء استرداد الأراضي المقدّسة من قبضة المسلمين[7]، ولذلك شاركوهم في معظم غزواتهم للبلاد الإسلاميّة في العراق والشّام، وأمدُّوهم بجيوشٍ كثيرةٍ لمعاونتهم على ذلك[8]. واشترك هيثوم الأوّل[9] ملك أرمينيا الصغرى في وضع الخطّة الخاصّة

---

(1) الشبيبي، محمّد رضا: مؤرّخ العراق ابن الفوطي، بحث في أدوار التأريخ العراقي من مستهلّ العصر العباسيّ إلى أواخر العصر المغوليّ، مطبعة المجمع العلمي العراقي، م2، 1958م، 165/2.

(2) انظر العيني: عقد الجمان، 167/1.

(3) انظر ابن الوردي، زين الدّين عمر بن مظفَّر (ت749هـ): تتمّة المختصر في أخبار البشر المسمّى تاريخ ابن الوردي، م2، دار الكتب العلمية – بيروت، 1996م، 222/2.

(4) انظر ابن الوردي: تتمة المختصر، 239/2.

(5) انظر بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص166.

(6) انظر استارجيان، ك، أ: تاريخ الأمّة الأرمنيّة من القرن السابع قبل الميلاد إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين، مطبعة الاتحاد الجديدة – الموصل، 1951م، ص229.

(7) انظر رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروف الصليبيّة، نقله إلى العربيّة السيِّد الباز العريني، دار الثقافة – بيروت، 5م، 1997م، 512/5.

(8) انظر استارجيان: تاريخ الأمّة الأرمنيّة، ص229-230.

(9) هيثوم أوحيتوم بن قسطنطين البابيروني، تولّى عرش مملكة أرمينية سنة 1226م، حكم مدّة 44 سنة، ثمَّ تنازل عن العرش لابنه ليون أوليفون، واعتكف في دير بحيث قضى نحبه سنة 1270م. انظر المصدر نفسه، ص225-230.

بغزو بلاد الشام سنة 658هـ[1]، وحرص بعد دخوله حلب في تلك السَّنة على إحراق الجامع الكبير فيها، وقتل الكثير من المسلمين[2]. وقد أحسن علم الدِّين الشجاعيّ في وصف التحالف المغوليّ الأرمنيّ في رسالة كتبها بعد انتصار الأشرف خليل على ذلك التحالف، وفتحه قلعة الرُّوم سنة 691هـ، يقول: ((وقد سكن أهلها –أي الأرمن– إلى مخادعة الجار، وموادعة التتار، وممالأتهم على الإسلام بالنَّفس والمال، ومساواتهم لهم حتّى في الزِّي والحال، يمدُّونهم بالهدايا والألطاف، ويدلُّونهم على عورات الأطراف))[3].

وفي رسالةٍ أنشأها محي الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى ملك اليمن يبشِّرهُ فيها بالنَّصر العظيم على المغول في معركة عين جالوت، أشار إلى ما دار في المعركة من أحداث، وكيف حزَّب التتار الأحزاب، وتجمَّعوا قاصدين بلاد المسلمين، لكنَّهم مكروا ومكرَ الله فأذلَّهم، وخابت ظنونهم؛ فآلَ الأمرُ بهم إلى الندمِ. قال: ((أمَّا النَّصر الذي شهد الضرب بصحَّته، والطَّعن بنصيحته، فهو أنَّ التتار – خذلهم الله تعالى – استطالوا على الأيّام، وخاضوا بلاد الشّام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام، ....، فاعتاضوا عن الصحّة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلة زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم في نحورهم))[4].

وأشار ابن عبد الظَّاهر إلى تحالف المغول مع الرُّوم والكرج[5] في رسالته التي وصف فيها غزوة قيساريّة الرُّوم قائلاً: ((فلمَّا أقبل النَّاس من علو الجبل، شاهدوا

---

(1) انظر عاشور: الحركة الصليبيّة، 1071/2.

(2) الغزي، كامل بن محمّد بن مصطفى البابي الحلبيّ (ت1351هـ): نهر الذَّهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونيّة – حلب، 3م، 1928م، 161/3؛ انظر عاشور: الحركة الصليبيّة، 1072/2.

(3) الدواداري: كنز الدُّرر، 329/3.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 386/7-387.

(5) جيل من النّصارى كانوا يسكنون جبال القبق، ثمّ قويت شوكتهم فملكوا مدينة تفليس. الحموي: معجم البلدان، 446/4، وقال فيهم ابن فضل الله العمريّ: "صليبة دين الصليب، ....، وهم للعساكر الهولاكيّة عتاد وذخر". انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص78.

المُغل قد ترتَّبوا أحد عشر طلباً، وكل طلب يزيد على ألف فارس حقيقةً، وعزلوا عسكر الرُّوم عنهم خيفةً منهم، وجعلوا عسكر الكُرج طلباً واحداً بمفرده))[1]. ويبيِّن ابن عبد الظَّاهر أنَّهُ في تلك الغزوة وقع في أيدي المسلمين مجموعة من أُمراء الرُّوم أسرى ((وكان في جملة الأسارى الرُّوميّين مُهذَّبُ الدِّين بكلارنكي، يعني أمير الأمراء ولد البرواناه، ونور الدِّين جاجا أكبر الأمراء، وجماعةٌ كثيرةٌ من أُمراء الرُّوم ومُقدَّمي عساكره))[2].

وفي كتابٍ بعث به القاضي محي الدِّين بن عبد الظَّاهر عن الأشرف خليل بن قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبُشرى بفتح طرابلس، أشار فيه إلى مساندة أهل عكَّا للتتار. وذلك بإمدادهم بكل مساعدة، فكانت مساندتهم وبالاً عليهم، يقول ابن عبد الظَّاهر: ((وكان أهلُ عكَّا قد أنجدوهم من البحر بكل بَرّ، ورموا الإسلام بكلِّ شررٍ وبكلِّ شَرّ؛ فصار السَّهم الذي يخرج بها لا يخرج إلاَّ مقترناً بسهام، وشُرفاتُ ذلك الثَّغر كالثَّنايا ولكنَّها لكثرة مَنْ بها لا تفترُّ عن ابتسام))[3]. ((وكُلَّما قيل هذه طرابلس فُتحتْ قال النصرُ لمن قُتِل فيها من النِّجد الواصلة: وأكثر عَكَّا وأهل عكّا؛ وأعاد الله تعالى بها قوّة الكفر أنكاثا))[4].

وقد ورد ذكر التحالفات في الرسائل التي دارت بين المماليك وبين المغول وأحلافهم، ومن ذلك ما جاء في ردِّ النَّاصر على غازان بعد هزيمة الأول عام 699هـ، حيث قال: ((ونحن تحقّقنا أنّ الملك بقي عامين يجمع الجموع، وينتصر بالتابع والمتبوع، وحشد وجمع من كلِّ بلد، واعتضدّ بالنَّصارى والكُرج والأرمن، واستنجد بكلِّ من ركب فرساً من فصيحٍ وألكن))[5].

ويشبِّه تقيّ الدِّين ابن تيميّة تحزّب الأحلاف مع المغول في معركة مرج الصفّر بتحزّب الأحزاب يوم الخندق ((واجتمعت أيضاً اليهود من قريظة، والنَّضير والحلفاء

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 164/14.

(2) المصدر نفسه، 169/14.

(3) المصدر نفسه، 395/7.

(4) المصدر نفسه، 396/7.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 143/8.

من بني أسد، وأشجع، وفزارة، ... ودخلوا في الأحزاب، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة، وهم بقدر المسلمين مرّات متعدِّدة، ...، وفي هذه الحادثة تحزَّب هذا العدوُّ من مُغُلٍ وغيرهم من أنواع التُّرك، ومن فُرسٍ ومستعربةٍ، ونحوهم من أجناس المرتدَّة، ومن نصارى، من الأرمن وغيرهم، ونزل هذا العدوُّ بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام، مع قلَّة من بإزائهم من المسلمين، ومقصودهم الاستيلاء على الدَّار، واصطلام أهلها))[1].

وبعدما تحقّق النَّصر للمسلمين في مرج الصفّر أرسل شهاب الدِّين محمود الحلبيّ رسالةً إلى متملك سيس الأرمنيّ – سبق وأن ذكرتها في الفصل السابق – الذي كان يقف إلى جانب المغول في تلك المعركة، يصف فيها المعركة التي دارت بين المسلمين والمغول وما حلَّ بالعدوّ المغوليّ من قتلٍ وأسرٍ مذكِّراً الملك الأرمنيّ أنَّهم خدعوه ووعدوه بمعسول الأمانيّ، وحاول أن يخرجه من دائرة الصِّراع بعد توبيخٍ عنيفٍ له، بالإضافة إلى استمالته بتذكيره بحسن معاملة المماليك له ولآبائه ورعيَّته، حيث يقول: ((ولقد عرَّض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطواتها في أمان، ووثق بما ضمن له التَّتار من نصره وقد رأى ما آل إليه أمر ذلك الضمان، وجرَّ لنفسه بموالاة التَّتار عناءً كان عنه في غِنى، ...، وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسرة؟ وأنَّى لضعاف النُّقَّاد قدرةٌ على الثبات لوثبات الأُسود الضارية واللُّيوث الكاسرة؟ لقد اعترض بين السَّهم والهدف بنحره، وتعرَّض للوقوف بين ناب الأسد وظفره، وهو يعلم أنَّنا مع ذلك نرعى له حقوق طاعةِ أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التّي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التَّوصُّل إليها))[2].

ويبدو أنَّ أولئك الأرمن كانوا مغرمين بالمتاعب، يلقون بأنفسهم دائماً إلى التهلكة، فهم حيناً مع التَّتار، وحيناً مع الفرنج، وفي كِلا الحالتين تهوي على رؤوسهم

---

(1) ابن تيميّة: كشف النقاب عن معالم سورة الأحزاب، ص45-46.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 261/8.

ضربات الجيش المملوكيّ[1]، حتّى كانت تدفعهم شدّة ضرباته إلى مهادنته، وتوقيع المعاهدات معه مرغمين[2].

واكبَ النثرُ لنا مرحلةً سياسيَّةً لها أهمِّيتها في الصِّراعِ الإسلاميّ المغوليّ، فهو يعتبر وثيقة سياسيَّة تاريخيَّة هامّة لدارسي تلك الحقبة من الزَّمن، فساحة الصِّراع لم تقتصر على المغول وحدهم، وإنَّما دخل إليها العديد من أعداء الإسلام تدفعهم أطماعهم، وضغائنهم، ومخاوفهم إلى عقدِ تحالفٍ معهم، أو استرضائهم دفعاً لشرِّهم[3].

3.3 عدد المغول

قبل بدء المغول بغزو أيِّ منطقةٍ من بلاد العالم، يقومون على وضع خطَّة حربيّة والتي ينبغي على أفراد الجيش بمن فيهم القادة الالتزام بمضامينها والسير حسب تعليماتها، وطبقاً لهذه الخطّة فإنَّهم يُقدّرون حجم القوّات اللازمة للحملة، وما يلزمها من خيولٍ لتأمين الجُند والحملة، وما يحتاجون من مؤنٍ وذخائر لتأمين القوّات، وفي هذه المرحلة يختارون أفضل الأوقات لشنِّ هذه الحملة[4].

وقد تبيَّن من خلال وصف المصادر التاريخيّة للحملات العسكريّة المغوليَّة المختلفة أنَّها لم تكن بالتجهيزات نفسها في كلِّ معركة، بل كانت تختلف من معركة لأُخرى، وتختلف أيضاً من حيث الأوقات؛ فالجيش المغوليّ الذي اجتاح بغداد عام 656هـ قُدِّرَ عددهُ بمئتي ألف[5]، بينما نجد أنَّ الجيش المغوليّ الذي هاجم مدينة

---

(1) انظر أمين، فوزي محمّد: أدب العصر المملوكيّ الأول قضايا الفن والمجتمع، دار المعرفة الجامعيّة – الإسكندرية، 1993م، ص109.

(2) انظر استارجيان: تاريخ الأمّة الأرمينيّة، ص233.

(3) انظر مأمون جرّار: أصداء الغزو المغوليّ، ص89.

(4) انظر الجويني، عطاملك بن بهاء الدّين محمّد (ت658هـ): تاريخ جهانكشاري، اهتمام وتصحيح محمّد بن عبد الوهّاب قزويني، مطبعة بريل ليدن، جاب أول، 1911م، جلد أول، ص23.

(5) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص555.

البيرة[1] في بلاد الشَّام سنة 674هـ كان يُقدَّر بثلاثين ألفاً[2]. وقد اختلف المؤرِّخون في عدد المغول الذين شاركوا في معركة حمص، فبعضهم يذكر أنَّهم كانوا ثمانين ألفاً[3]، والبعض الآخر يروي أنَّهم كانوا مائة ألف[4]. وعلى صعيدٍ آخر نجد أنَّ قوَّات غازان خان المغوليَّة التي قابلت المسلمين في معركة مرج الصفّر في بلاد الشَّام سنة 702هـ ما يقارب المائة والعشرين ألفاً[5]، وقد ذكر ابن حبيب أنَّ عددهم يفوق ذلك أي ما يقارب المائة والثلاثين ألفاً، ويستدلّ على ذلك من قوله: ((... وكانت عدَّتهم ثلاثة عشر توماناً ...))[6]، ومنهم من ذكر أنَّهم مئة ألف[7]، وبعضهم حدَّده بثمانين ألفاً[8]، والبعض الآخر روى أنَّهم كانوا خمسين ألفاً[9]، وأمَّا ابن خلدون فقد صرَّح أنَّ عدد الجيش المغوليّ كان تسعين ألفاً أو أكثر، ورغم هذا التفاوت في الأرقام إلاَّ أنَّنا نستطيع التوفيق بينها بقولنا إنَّ العدد كان فوق المائة أو ما يقاربها. ويفهم من هذه

---

(1) البيرة: بلدة تقع بين حلب والثُّغور الرُّومية، ولها قلعة حصينة مرتفعة على حافة الفرات، وفيها وادي الزيتون. انظر الحموي: معجم البلدان، مج1، ص526

(2) انظر ابن شدّاد، عزّ الدّين أبو عبيد الله محمّد بن علي (ت684هـ): تاريخ الملك الظّاهر، تحقيق أحمد حطيط، دار النشر: فرانز شتاينر، بفيسبادن، طبع على مطابع مركز الطباعة الحديثة – بيروت، 1983م، ص125؛ انظر العيني: عقد الجمان، 139/2.

(3) انظر ابن الورديّ: تتمّة المختصر، 222/2؛ انظر المقريزي: السُّلوك، ج1، ق3، ص690.

(4) انظر الذهبيّ: العبر، 342/3؛ انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 329/13.

(5) انظر المنصوري، ركن الدِّين بيبرس (ت725هـ): مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدّار المصريّة اللبنانيّة ، ط1، 1993م، ص125.

(6) ابن حبيب، بدر الدِّين بن عمر الحلبيّ (ت779هـ): تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه، تحقيق محمّد أمين، الهيئة المصريّة للكتاب – القاهرة، 1982م، 145/1.

(7) انظر بيبرس المنصوري: التحفة الملوكيّة، ص164؛ انظر العيني: عقد الجمان، 135/4، 234.

(8) انظر المقريزي: السُّلوك، ج1، ق3، ص930.

(9) انظر الذهبيّ، شمس الدِّين محمّد بن أحمد (ت748هـ): دول الإسلام، نشر عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ، إدارة إحياء التراث الإسلامي – قطر، د.ت، 209/2؛ انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 126/8.

الأرقام عن الجيش المغوليّ أنّ أعداده لم تكن واحدة أو ثابتة في معظم المعارك، بل كانت تتفاوت من حينٍ لآخر.

وقد يرجع تغيير ذلك إلى ظروف المعركة، وإلى القدرة على تجميع القوّات وتجهيزها، فقد يتعرّض المغول في بعض الفترات إلى أحوال سيئة لا تتاح لهم معها القدرة على تجهيز الجيوش الجرّارة، وقد تنشغل قواتهم بالحرب في عدّة جهات، فجيش يكون في المشرق، وآخر في المغرب، وهنا تكون القوّات المغوليّة موزّعة على الطرفين[1]. ومع ذلك فإنّ الأعداد الكبيرة التي يذكرها المؤرّخون للجيش المغولي هي أعداد مبالغ فيها إلى حدٍ ما، والذي يظهره بأنّه يتألّف من أعداد كبيرة هو أنّ الجيش المغوليّ أثناء ظهوره للأعداء كان يعطي انطباعاً بأنّهُ ضخمٌ جداً، وأنّ أعداده هائلة تضمّ مئات الألوف، ولكنّ الحقيقة والواقع غير ذلك.

والسرُّ في ذلك الانطباع هو أنّ الفارس المغوليّ لم يكن يكتفي بفرسٍ واحدة، بل كان يأخذ معه أربعاً أو خمساً من أجل الإفادة منها في المعركة خاصّةً أنّهم كانوا يقطعون مسافات طويلة في بعضِ الأحيان تحتاج إلى ذلك[2].

ويمكن إضافة سبب آخر وهو إرهاب أعدائهم بذلك العدد، فعندما يُقبِلُ الجيش وبحوزته هذا العدد من الخيول يظهر بمظهرٍ ضخمٍ جدّاً، فيكون عدد الفرسان مثلاً مئة ألف ومعهم أربعمائة ألف فرس[3]، وهذا المنظر يثير الرُّعب في نفوس أعدائهم قُبيل المعركة، وقد يكون ذلك أحد عوامل النّصر الذي كانوا يحقّقونه في حروبهم المختلفة.

وقد قدّم الكُتّاب أثناء حديثهم عن بعض جوانب الصّراع بين المغول والمسلمين، صورةً للجيش المغوليّ تظهر أنّهُ جيشٌ ضخمٌ كثيرَ العدد، ولذلك جعلوه لا يحصى عدداً، فهو كأمواج البحر، أو المياه المتدفّقة، أو كالرّمل لا يحصى، أو كقطعِ الليل، أو كالجراد الذي لا يُبقي ولا يذر.

---

(1) انظر غنيمات، قاسم محمّد: الجيش المغوليّ في الفترة ما بين (615-736هـ)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنيّة، آب 2003م، ص134-135.

(2) انظر المرجع نفسه، ص56.

(3) انظر المرجع نفسه، ص56.

يشير صاحب التحفة الملوكيّة إلى كثافة جيش التَّتار في الحروب وكثرة عدده، وذلك في واقعة حمص سنة 680هـ، إذْ يقول: ((وجاء التَّتار أفواجاً، وقذف عبابهم أمواجاً تتلو أمواجاً))[1].

والتَّتار في واقعة مرج الصُّفر يقبلون على الحرب بعددٍ كبيرٍ، وعُدَّة كالرِّمال الضَّخمة للتدليل على كثرتهم، وأنَّهُ لا يُستطاعُ إحصاؤهم وعدُّهم، كما أنَّهُ ليس بالإمكان إحصاء حبَّات الرَّمل أو عدّ ذرَّاته، فضلاً عن تدفُّقهم كالمياه، وهم كالجبالِ صلابةً وقوَّة، يقول شهاب الدِّين محمود الحلبيّ: ((... وأنَّ التَّتار المخذولين أقبلوا كالرِّمال، واصطفُّوا كالجبال، وتدفَّقوا كالبحار الزواجر، وتوالوا كالأمواج التي لا يُعرف لها الأوّل من الآخر ...))[2].

ويُشبِّه الكتَّاب كثرة الجيش المغولي بقطع الليل، لِمَا يوحي به هذا التشبيه من اتِّساع رقعة هذا الجيش، وإحاطته بالبلاد التي يهاجمها، حتّى ليكاد يغرقها بظلامه، فضلاً عن إضفاء أبشع الصِّفات على التَّتار وذلك بالرَّبط بينهم وبين اللون الأسود المعتم، يقول بيبرس المنصوريّ في واقعة مرج الصفّر: ((وأقبلت كراديس التَّتر كقطع الليل لا يتبيّن فيها الرَّجل من الخيل، قد مدَّ النَّقع عليهم رواقه فلا يُعلم المقدم من السَّاقة))[3].

ويؤكِّد الكاتب علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر المعنى نفسَه في وصفه لواقعة مرج الصُّفر، إذْ يقول: ((وأتى كقطع الليل المظلم بهم، لا تكاد لولا دفع الله عن بُزاتها تحجم ...))[4].

---

(1) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيَّة، ص100.

(2) الحلبيّ، شهاب الدِّين أبو الثَّناء محمود (ت725هـ): حُسن التوسُّل في صناعة الترسُّل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الحريّة للطباعة – بغداد، 1980، ص336.

(3) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص164؛ العينيّ: عقد الجمان، 135/4، 234.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 350/7.

وقد وصف شهاب الدّين محمود الحلبيّ كثافة المغول في واقعة مرج الصُّفر، بأنّها كالرِّمال عدداً، وكالجبال صلابةً قائلاً: ((فوافي العدوّ المخذول في مائةِ ألفٍ من جيوش تسيل كالرِّمال، وتعلو الجبال بأشدّ من الحبال ...))[1].

ويشير ابن خلدون إلى كثافة المغول الذين يحاصرون مدينة دمشق بقيادة تيمورلنك، فهم في كثرةٍ يصعب إحصاؤها ((والقوم في عددٍ لا يسعه الإحصاء، إن قدّرت ألف ألف فغير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خيّموا في الأرض ملأوا الساح، وإن سارت كتائبهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء))[2].

وهكذا فإنّنا نجد عند كتّاب تلك الحقبة حرصاً على إبراز عنصر الكثرة العدديّة، التي أقبل بها الغزاة المغول لمحاربة المسلمين. وربّما أرادوا من ذلك بيان أنّ هذا الجيش الغازيّ هو جيشٌ ضخمٌ لا يُستهان بقدرته القتاليّة، لذلك ينبغي على المسلمين تهيئة جميع الوسائل اللازمة لاتّقائه وصدّه عن بلادهم. كما أرادوا أن يظهروا أنّ المغول لا يهاجمون البلاد الإسلاميّة، ولا يخوضون معاركهم إلاّ وقد استكملوا عددهم وعدّتهم العسكريّة[3]. وقد ركّز الكُتّاب على تصوير كثرة المغول، وخاصّةً في رسائلهم التي صوّروا فيها هزيمة المغول أمام المسلمين، وذلك حرصاً منهم على إبراز ضخامة الانتصار الذي حقّقه المسلمون، إذ لم تكن كثرة المغول لتغني شيئاً أمام قوة الجيش الإسلامي المجاهد.

4.3 الأدوات الحربيّة والسِّلاح

يصوِّر النثر العربيّ العدوّ المغوليّ الغازي كثير العُدَّة، وغالب هذا التصوير جاء في الرَّسائل التي صوَّرت هزائم المغول أمام جيش المسلمين؛ وذلك للتأكيد على عظمة الجيش المغوليّ الذي قابله المسلمون، فهو مدجَّج بالسِّلاح، وأفراده مزوَّدون بأحدث الأسلحة، ولكنّهم مع ذلك لا يستطيعون الصمود أمام قوة المسلمين. وإذ ما

---

(1) النويري: نهاية الأرب، 162/5.

(2) فيشل، والتر: لقاء ابن خلدون لتيمورلنك، ترجمة محمّد وفيق، مراجعة يوسف روشا، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، ص85.

(3) انظر عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: صورة المغول في الشِّعر العربيّ – العصر المملوكيّ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، تشرين الأول 1997م، ص60.

قارنّا تلك الصُّور مع تصوير الكتّاب لأسلحة المسلمين فهي قليلة للغاية، فقد كان التركيز على تصوير أسلحة المسلمين الفتّاكة، التي حقّق المسلمون من خلالها الانتصارات العظيمة.

وقد ذكر الكتّاب بعض الأسلحة التي استخدمها المغول في حروبهم مع المسلمين، فمنها: المنجنيقات، والسيوف، والرِّماح، والقسيّ، والسِّهام. كما اهتمُّوا بذكر بعض الحِيَل العسكريّة في ساحة المعركة كنقب الأسوار، وحصار القلاع.

ففي عام 654هـ، أرسل منكو خان[1] جيشاً إلى بلاد الرُّوم، وأثناء لقاء قوّات المغول مع قوات السُّلطان عزّ الدِّين كيكاوس[2] دبَّ الرُّعب في صفوف هذه القوّات من كثرة السِّهام التي رماها عليهم جنود المغول الذين تمكّنوا بعد ذلك من تحقيق الانتصار عليهم[3].

وقد وصف المنصوريّ ذلك اللِّقاء بقوله: ((... فركب التّتار وقصدوه ودنوا منه، وحاذروه وأرسلوا إليه سهاماً كالشُّهب المحرقة فأهلكوا أكثر خيلهِ وخيل من معه، وكان السَّهم لا يقع إلاَّ في الفارس أو الفرس، هذا والعساكر السلطانيّة تبعته قافية خطوة، وحاذية فيما فعل حذوه، فلمَّا تقدَّموا ندموا حين أقدموا ورأوا عساكر التّتار تحاذي الجبل وتفوق عن قسيِّها نبال الأجل، فسقط في أيديهم، ورأوا أنّ الكرَّة عليهم، فطلب كلٌّ منهم لنفسهِ النَّجاة ...))[4].

ويدلُّ ذلك على مهارة ودقّة الجنديّ المغوليّ وبراعته في استخدام النشّاب في القتال. ففي أغلب الأحيان كان يحقّق هدفه إذ يصيب الفارس أو الفرس، وكان

---

(1) منكو خان: وهو ابن تولوي بن جنكيزخان، وأكبر أبنائه سنّاً، أُمُّه تُمسى سبور قوقيتي بيكي، وقد تولّى الحكم عام 648هـ، وتوفي عام 655هـ. انظر الهمذاني: جامع التواريخ، مج1، 195/2.

(2) عزّ الدّين كيكاوس بن غياث الدّين كينمسروا بن قليج أرسلان بن سعود بن سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل بن سلجوق، وقد تولّى الحكم سنة 644هـ، وتوفي سنة 679هـ. انظر طقوش: تاريخ سلاجقة الرُّوم، ص134.

(3) انظر المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص20-21؛ انظر الذهبيّ: دول الإسلام، 158/2.

(4) المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص21.

النشّابون المغول يحقّقون النّصر في معركة بذاتها جرّاء إتقانهم استخدام هذا السّلاح المهم.

وفي عام 699هـ، هاجم غازان خان بلاد الشّام، وقد التقى مع القوّات الإسلاميّة في واقعة الخزندار بين حماة وحلب، وقد تفوّقت القوّات الإسلاميّة في البداية، إلاّ أنّ غازان انسحب مع مجموعة من عناصر جيشه إلى القلب، وأخذ يكثّف من رمي السّهام حتّى تمكّن من ردّ القوّات الإسلاميّة، ثمّ كسب المعركة[1].

وقد وصف أبو الفداء هذا اللّقاء قائلاً: ((... ولمّا عاين غازان انهزام ميمنته، اعتزل في نحو ثلاثين فارساً وأخذ عن جيشه جانباً وأرسلوا عليهم دفعةً من نابل السّهام أغزر من وابل الغمام، فأصيبت الخيول فلم تثبت ورجع السّلطان ومن معه ...))[2].

والجدير بالذّكر أنّه لم تخلُ معركة ولا حملة ولا حصار مغوليّ عبر سنوات حروبهم من وجود هذا السّلاح في جعبتهم، حتّى أنّه يمكن القول بأنّ هذا السّلاح كان ملاصقاً لأجسادهم وكأنّه قطعةٌ منهم، وقد كان الملوك المغول يبذلون الأموال الطائلة لإحضار المواد التي تتمّ بواسطتها صناعة السّهام من أجل الإفادة منها في الحروب العديدة التي كانوا يقومون بها، وهذه الصناعة بالطّبع كانت تتمّ في منطقتهم في مدينة قراقوم[3] عاصمة الدولة المغوليّة.

احتلَّ السيفُ مكانةً مرموقة بين جميعِ أنواع الأسلحة التي كان المغولُ يستخدمونها في حروبهم أو في أعمالهم اليوميّة التي تشتمل على أعمال الصَّيد. ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار صناعة السُّيوف عند المغول طبيعة منطقتهم الزاهرة بالجبال الغنيّة بالمعادن التي تُعدُّ الأساس في هذه الصناعة. وممّا يوصف به السَّيف المغوليّ أنّه مستقيم له نصلٌ واحدٌ ينحني طرفه قليلاً[4]. وعندما اجتاح هولاكو

(1) انظر المصدر السابق، ص331؛ انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص701.

(2) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، 381/2.

(3) قراقوم: مدينة في أقاصي بلاد التُّرك، وقاعدة بلاد التّتر، وتعني بالتركيّة الرّمل الأسود، وقد اتّخذها أوكتاي خان عاصمة للدولة المغوليّة. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 478/4.

(4) انظر قاسم غنيمات: الجيش المغوليّ، ص87.

مدينة بغداد سنة 656هـ أمضى سبعة أيّام في قتل سكّان المدينة بالسَّيف[1]، وقد وصف ذلك ابن العبري بقوله: ((... وبقي النّهب يعمل إلى سبعة أيّام ثمّ رفعوا وبطلوا السَّبي ...))[2].

وأكّد المنصوريّ ذلك بقوله: ((أنَّ هولاكو في اليوم الثامن من استباحة المدينة أمر برفع السَّيف))[3]. وذكر الكتبي بأنَّ القتل والسَّبي استمرَّ ما يقارب الأربعين يوماً[4].

وكان للسَّيف دورٌ بارزٌ في المواقع الأخرى التي خاضها المغول سواء ضدّ المسلمين أم ضدّ غيرهم، وقد جاء ذلك من خلال وصف بعض المصادر التاريخيّة لتلك المعارك من خلال الحديث عن اعتماد المغول على السَّيف كسلاح رئيسي في المعركة، وفي قتل سكّان المدن والقرى التي يجتاحونها. ففي سنة 657هـ هاجمت قوّات هولاكو مدينة حلب، وعندما دخلوا المدينة قتلوا السكّان وأبادوهم بالسّيف[5]. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ هذه الانتصارات التي حقّقوها والجرائم والمذابح التي ارتكبوها بحقّ سكان المدن والقرى التي اجتاحوها جاءت لفعاليّة هذا السِّلاح، بل إنَّ إجادتهم ومهارتهم في استخدامه هي التي مكّنتهم من ذلك وأكثر؛ فالسَّيف لم يكن يفارق يد المقاتل، والفارس الذي يحمل بيده سيفاً منهم لا يعرف سوى سفك الدّماء وإبادة البشر[6].

وكما ذكرتُ سابقاً، فقد كان تركيز الكتّاب على ذكر أسلحة المغول في مواطن الهزيمة لبيان مدى قوة الجيش الذي يقاومه المسلمون، وبالرَّغم من ذلك فقد تغلّب جيشُ المسلمين عليهم.

---

(1) انظر المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص73-38؛ انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص157؛ انظر أبو الفداء: المختصر، 303/2؛ انظر ابن العبري: تاريخ مختصر البشر، ص272.

(2) ابن العبري: تاريخ مختصر البشر، ص272.

(3) المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص38-39.

(4) انظر الكتبي: عيون التواريخ، 135/20.

(5) انظر الهمذاني: جامع التواريخ، مج2، 1/ص306-307.

(6) انظر قاسم غنيمات: الجيش المغوليّ، ص93.

فصاحب التحفة الملوكيّة يشير إلى هزيمة المغول في واقعة عين جالوت وما آلت إليه الأدوات الحربيّة التي يستخدمها المغول في حروبهم مع المسلمين: كالسناجق والطبول التي تقرع في الحرب لإثارة الخوف والفزع في نفوس المسلمين، إذْ يقول: ((وأسارى التّتار بين يدي المواكب ما بين ماشٍ وراكب وسناجقهم بأيديهم منكوسة وطبولهم على أكتافهم معكوسة))[1].

وفي غزوة قيساريّة وصف محيّ الدّين بن عبد الظّاهر ثبات المغول في ساحة المعركة واستماتتهم في القتال، وذكر عدداً من الأسلحة التي استخدمها المغول في تلك المعركة: كالقوس، والسّهام، والرّمح، والسّيف، حيث قال: ((... فكم من شجاعٍ ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى، وناضل ورامى، وكم فيهم من شهمٍ ما سلّم قوسه حتّى لم يبقَ في كنانته سهم، وذي سنانٍ طارح به فما طرحه حتّى تثلّم، وذي سيف حادثه بالصّقال فما جلى محادثةً حتّى تكلّم ...))[2].

ويستمرّ محيّ الدّين بن عبد الظّاهر في تصوير ما غنمه الجيش المسلم من المغول في معركة قيساريّة، وقد كانت الغنائم عبارة عن: مجموعةٍ كبيرةٍ من الأدوات الحربيّة، والأسلحة التي استخدمها المغول في تلك المعركة: كالخُوَذ، والدُّروع، والجواشن، والخيول، والصوافن، والسّيوف، والرّماح، وشتّى أصناف المعادن ((... وأمّا العدّة، فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوفٍ وقسيّ وكنائن، وما يلبسونه من خوذٍ ودروعٍ وجواشن، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن))[3].

ومن الأسلحة الحربيّة التي استخدمها المغول في حروبهم المنجنيق، وهي من أهمّ الوحدات المهمّة في الجيش المغوليّ، ومهمّة القائمين عليها محصورة فقط في قصف أعدائهم داخل مدنهم، أو رميهم بالمجانيق من داخل المدن إلى الخارج في حالة الدّفاع، وكان استخدامُ المغولِ لها بشكلٍ واسعٍ في معاركهم وحروبهم التي تخلّلها حصارُ المدنِ والقلاع في معظمِ الأحيان.

---

(1) المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص103.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 165/14.

(3) المصدر نفسه، 167/14.

ففي عام 656هـ، توجّه هولاكو بجيوشه الجرّارة صوبَ بغداد، ونصب حولها المجانيق من الجانب الشرقي والغربي، وتمكّن بفعل ذلك من دخولها بعد أن قتل أعداداً كبيرة من سكّانها، وعاث فيها الخراب والفساد(1). وانتهج النهجَ نفسهُ في سنة 660هـ عندما قامت قوّاته بمحاصرة مدينة الموصل(2) مدّة اثني عشر شهراً، وكانوا قد نصبوا عليها المجانيق حتّى تمكّنوا من دخولها في السَّنةِ نفسِها(3).

وفي سنة 674هـ، حاصرت قوّات المغول مدينة البيرة، ونصبوا عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً من أصل سبعين كانوا قد أحضروها معهم للحصار، ورغم ذلك فإنّهم فشلوا في دخول المدينة، حيث ردَّتهم القوّات الإسلاميّة وتمكّنت من تدمير قوّاتهم وجميع آلات الحصار التي كانت بحوزتهم(4).

وممَّا رواه ابن شدّاد حول ماهيّة هذا الحصار قوله: ((... إنَّ المغول نصبوا منجنيقاً فرنجيّاً، وكان الرَّامي به مسلماً، ونصب المسلمون في الداخل منجنيقاً لصدِّه، فلم تصبه الحجارة، وكانت تقع زايدة عنه، فقال له الرَّامي المسلم، لو قطع الله من ساعدك ذراعاً كان أهل البيرة يستريحون منك لقلّة معرفتك، ففهم الرَّامي الذي بالقلعة، فقطع من ساعد المنجنيق، ورمى به فأصابه فكسره، وخرج أهل البيرة في الليل وأحرقوا المنجنيقات وقتلوا العسكر وعادوا ...))(5).

ومن خلال هذا النصّ تتَّضح عدّة حقائق حول حصار المدن من قِبَلِ القوّات المغوليّة باستخدام المنجنيق كأبرز سلاح للحصار، منها أنَّ المغول كانوا في بعض

---

(1) انظر ابن العبري: تاريخ مختصر، ص171؛ انظر ابن الطقطقا: الفخريّ، ص336؛ انظر المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص36-37؛ انظر ابو الفوطي: الحوادث الجامعة، ص156؛ انظر أبو الفداء: المختصر، 302/2.

(2) الموصل: مدينة في شمال العراق، وهي إحدى قواعد بلاد الإسلام، تقع غربي نهر دجلة، وهي كبيرة، طيِّبة الهواء، ومنها يُقصد إلى أذربيجان. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج5، ص223-224.

(3) انظر ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص166.

(4) انظر ابن شدّاد: تاريخ الملك الظّاهر، ص125؛ انظر الذهبيّ: دول الإسلام، 175/1؛ انظر العينيّ: عقد الجمان، 119/2-120.

(5) ابن شدّاد: المصدر نفسه، ص125.

الأحيان يوكلون مهمّة الرماية بالمنجنيق لأحد المسلمين؛ وذلك من قبيل الإجبار والإكراه، وهي إحدى الطرق التي كانوا يتّبعونها عندما يدخلون المدن الإسلاميّة، فعندما يأخذون الأسرى من الشّباب كانوا يستخدمونهم إمّا كدروعٍ بشريّةٍ لمهاجمة المدن الأخرى، أو كانوا يستفيدون منهم في العمل بأدوات الحصار كما حدث في البيرة، فالرّامي المسلم على المنجنيق الفرنجي تبيَّن أنَّهُ متعاطفٌ مع سكّان البيرة، وقد أعطاهم سرَّ سلاحهم، وكذلك فإنَّهُ ساعدهم على كسر ودحر قوّات المغول.

وفي سنة 658هـ ((أحضرت التّتار منجنيقاً يحمل على عجل والخيول تجرُّها، وهم على الخيل وأسلحتهم على أبقارٍ كثيرة، فنصب المنجانيق على القلعة من غربيها، وخربوا ... كثيرة وأخذوا حجارتها ورموا به القلعة رمياً متواتراً كالمطر المتدارك، فهدموا كثيراً من أسوارها وشرافاتها وتداعت للسقوط فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار للمصالحة))(1).

ويشير ابن خلدون إلى استخدام الزجاجات الحارقة من النفوط بالإضافة إلى العرّادات في حصارهم لقلعة دمشق، إذ يقول: ((ثمَّ اشتدَّ في حصار القلعة، ونصب عليها الآلات من المجانيق، والنفوط، والعرّادات، والنقب، فنصبوا لأيَّامٍ قليلة منجنيقاً إلى ما يشاكلها من الآلات الأُخرى، وضاق الحصار بأهل القلعة وتهدَّم بناؤها من كلِّ جهة))(2).

وقد استخدم المغول أحد الأساليب القتاليّة المستخدمة في علاج الحصون في اثناء حصارها، ألا وهو نقب الأسوار، وعادةً يلجأ إليه الجيشُ المحاصِرُ لمحاولة الدخول إلى داخل الحصن لفتح أبوابه، ولمساعدة المجانيق في هدم الأسوار، وعادة ما ينقب النقّابون حفرةً ثمّ يحشونها بالحطب ويوقدونه.

يذكر ابن عربشاه استخدام المغول للأدوات الحادّة؛ كالمعاول والفؤوس والفطاطيس وغيرها لنقب أسوار قلعة مارِدين، وذلك في أثناء حصارهم لها بقيادة تيمورلنك، إذ يقول: ((فأقام لمحاصرتها على مضائقها، يسترشد إلى طرق المضايقة وطرائقها، ولم يكن حواليها مكان للقتال، ولا لنصب المجانيق مجال، فعوّل على نقبها

(1) انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 254/13.

(2) والتر فيشل: لقاء ابن خلدون ليتمورلنك، ص77-78.

بالمعاول والفؤوس، واستعان على ذلك بالمقاول والرعوس[1]، وحاشا درز[2] ذيل حشمتها رتقا[3]، فلا زالت المعاول تفلّ، والفطاطيس تكلّ، ومناقير القوس تتعقّف، وخصور المرازب كهيف القدود تتقصّف))[4].

5.3 الخطط والأساليب العسكريّة

ظهر في النثر العربيّ إشارات للكتّاب إلى بعض الخطط العسكريّة، التي رسمها المغول للإيقاع بالجيش الإسلاميّ، والسيطرة على بلاد المسلمين، وذلك في معرض حديثهم عن الجيش المغوليّ الغازي.

فقد اهتمّ المغول بتقسيمات جيوشهم، ففي سنة 702هـ، أرسل غازان قوّاته إلى بلاد الشّام وكانت مكوّنة من اثني عشر توماناً[5]، وكان لكلّ تومان قائد، وكان القائد العام للجيش هو قطلوشاه[6]، وقد انهزمت هذه القوّات أمام القوّات الإسلاميّة في موقعة مرج الصفّر في السّنة نفسها[7].

أمّا فيما يتعلّق بتقسيمات الجيش الميدانيّة، فإنّ المغول كانوا يعتمدون على تقسيم الجيش إلى قوّات القلب والجناح الأيمن والجناح الأيسر. ففي سنة 680هـ أثناء هجوم المغول على مدينة حمص في بلاد الشّام، كان الجيش ما يقارب المئة ألف مقاتل، وقد تمّ ترتيبهم إلى ميمنة وميسرة وقلب. وفي القلب كان القائد وبعض الأمراء، وفي أثناء المعركة هزمت ميمنة الجيش المغوليّ ميسرة الجيش الإسلامي،

---

(1) هكذا وردت في النصّ.

(2) الدرز: واحد دُرُوز الثوب، فارسيّ معرَّب. ابن منظور: لسان العرب، م5، ص407.

(3) الرتق ضد الفتق. والرتق وإلحام الفتق وإصلاحه. ابن منظور: لسان العرب، م10، ص136.

(4) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص299.

(5) أي عدد الجيش كان مائة وعشرين ألفاً.

(6) قطلوشاه: هو أحد كبار القادة المغوليين، وكان قائد الجيش في معركة شقجب سنة 702هـ، وقتل في بلاد كيلان سنة 707هـ. انظر ابن حجر: الدُرر الكامنة، 297/4.

(7) انظر العينيّ: عقد الجمان، 234/4-235؛ انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص933.

غير أنّ ميسرة المغول قد انهزمت أمام ميمنة الجيش الإسلامي، وقد مالت الميسرة إلى القلب، ثمّ خسر المغول هذه المعركة فيما بعد(1).

والملاحظ من هذا التقسيم بأنَّ المغول كانوا حريصين على الدَّوام على سلامة القائد أو من ينوب عنه، ولهذا فقد كانوا في جميع الحملات العسكريَّة يرتّبونهم في القلب ليقينهم التَّام بأنَّ وضعهم في هذا الموضع أكثر أماناً وأقلّ عرضة للصَّدمات من الأعداء، وحتّى يسهل عليهم رؤية الجند وإعطاؤهم التعليمات والتوجيهات أثناء سير القتال.

وقد أشار ابن عبد الظَّاهر إلى عنايةِ المغول بانتقاء جنودهم في المعارك، وشعورهم بالقوّة، وتراصّ صفوفهم قبل البدء بالنِّزال. قال فيهم قبل بدء المعركة في غزو قيساريّة الرُّوم: ((فشمَّروا عن السَّواعد، ووقفوا وقفة رجل واحد، وهؤلاء المُغل كان طاغية التّتار أبغا – أهلكه الله – قد اختارهم من كلّ ألف مائة، ومن كلّ مائة عشرة، ومن كلّ عشرة واحد لأجل هذا اليوم، وعرفهم بسيما الشَّجاعة وعرضهم لهذا السّوْم))(2).

ومن أساليب المغول القتاليَّة أنَّهم كانوا يلجأون إلى قطع الإمدادات والمساعدات عن المناطق التي كانوا يريدون القتال فيها أو حصارها، ففي سنة 671هـ قَدِمَت قوّات المغول على مدينة البيرة في بلاد الشَّام، ولضمان عدم وصول قوّات من خارج البيرة للمساعدة، فقد وضع قائد الجيش قوّات على نهر الفرات، وقامت تلك القوّات في حماية جانب الفرات بصفائحهم، وكأنَّهم سدٌّ بها حتّى لا يخترقها الجنود المسلمون، وقد صنع المغول في تلك المعركة ((لهم ستائر من شطّ الفرات من الأخشاب وغيرها، وهم خلفها بالنشّاب. وظنّوا أنَّ المسلمين لا يصلون إليهم ولا يجسرون عليهم))(3).

---

(1) انظر المنصوريّ: زبدة الفكرة، ص196–197؛ انظر أبو الفداء: المختصر، 2/347–348؛ انظر الذهبيّ: دول الإسلام، 2/182–183.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/164.

(3) الدواداري: كنز الدُّرر، 8/169؛ وانظر بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص75.

فقد أقامت القوّات سياجاً من السيب وحاجز من الخشب، وتكردسوا خلفه لإنتظار القوّات القادمة وإبادتها قبل الوصول إلى المدينة لمساعدة السّكان، والمهمّ في ذلك أنَّهم كانوا يحتاطون من جميع الجهات حتّى تكون قوّاتهم في مأمنٍ من أي قواتٍ قد تطبق عليهم على غفلةٍ من الخارج، وبذلك كانوا حريصين كلّ الحرص على سلامة الجند.

ويسلك المغول في حروبهم الطرق الخصبة حتّى يوفِّروا علفاً لخيولهم. أمّا إذا كانت مجدبة فإنّهم يتجنّبونها ((كان من عادة التّتر أنّهم لا يكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجدبة تجنَّبوها))(1).

ومن أبرز خططهم وأساليبهم القتاليّة أنَّهم كانوا يميلون إلى الخداع والتمويه مع الأعداء، فيتحيَّنون الفرص لنقض العهود، ومن ثمَّ ينقضُّون على البلاد الإسلاميّة في لحظة غفلة، ويُعدون العدّة للقتال في الأوقات التي يُظهرون فيها الموادعة والمسالمة.

فقد علَّل الملك النَّاصر هزيمته أمام المغول سنة 699هـ بخداع المغول لجيشه، وتظاهرهم بالإسلام، فلبسوا عباءة الدِّين في وقت ضعفهم. قال: ((ولمَّا وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة، وتحقّقوا أنّكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص، وخدعتم باليمين والإيمان، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الشيطان، اجتمّعوا وتأهّبوا...))(2).

ومن عادة المغول إخفاء نواياهم الحقيقيّة وعدم إظهار ما يصبون إليه من أعمال وخاصّةً أثناء التوجُّه إلى الحرب، حيث كانوا يحرصون على سريَّة خططهم. ففي سنة 699هـ كانت بلاد الشّام في أعين غازان هدفاً يسعى إلى تحقيقه وكان يتحيَّن الفرصة المواتية للهجوم عليها، وكان يعدُّ العدّة ويتجهّز بكلِّ الأسلحة لذلك، وقد قام بالتمويه على السُّلطان النَّاصر بأن أرسل له كتاباً يعلمه فيه بأنَّه يريد الصُّلح والمهادنة، ولا يريد القتال، وحقيقة الأمر أنَّهُ كان يعدُّ جيشاً جرَّاراً فوق المئة ألف

---

(1) العمري: التعريف، ص201؛ انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 401/14.

(2) ابن تغري بردي: النجوم، 145/8-146.

لذلك الهجوم(1). يقول النّاصر: ((فما كان إلاّ عند وصول رسلنا جهّزت عساكرك، وأظهرت الغدر لنا))(2).

ويؤكِّد الشّهاب محمود الحلبيّ المعنى نفسهُ في رسالةٍ بعث بها إلى ملك الأرمن بعد نصر 702هـ، وقد وصفهم بأنّهم ماكرون، تقودهم أطماعهم، ولا يقيمون على حال إلاّ ريثما يتحوّلون، وأنّهم ((أقاموا مدّة يشترون المخادعة بالموادعة، ويسرُّون المصارمة في المسالمة، ويظهرون في الظّاهر أموراً، ويدبِّرون في الباطن أموراً))(3).

ويشير السُّلطان فرج بن برقوق إلى خداع المغول لأهل دمشق بعدما طلبوا الصلح منهُ فلبّاهم، وذلك في كتابٍ كان جواباً إلى سلطان مراكش يشرح له فيه واقعة تيمورلنك من إنشاء القلقشندي، إذ يقول: ((وأقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التي لا تنحصر: من أجناسٍ مختلفة، وجموعٍ على تباين الأنواع مُؤتلفة، وتراءى الجمعان في أفسح مكان، ورأى كلُّ قبيلٍ الآخرَ رأى العين وليس الخبر كالعيان، ...، إذْ ورد واردٌ من جهتهم بطلب الصُّلح والموادعة، والجنوح إلى السَّلْم وقطع المنازعة، فأجبناهم بالإجابة، ...، فبينّا نحن على ذلك، واقفون من المواعدة على الموادعة على ما هنالك، إذْ بلغنا أنّ طائفة من الخونة ... توجَّهوا إلى الدِّيار المصريّة للاستيلاء على تخت ملكنا الشريف، ... فلم يسَعْ إلاّ الإسراع في طلبهم، للقبض عليهم، ...، وظنَّ العدوُّ أنَّ قصدنا الديار المصريّة إنّما كان لخوفٍ أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتّى سلَّموه إليه، وفعل فعلته التي فعل))(4).

ويرسم الأدباء صورةً لأساليب التّتار العسكريّة التي اعتمدوها في احتلال بعض المدن الإسلاميّة، فقد اعتمدوا على الحصار ثمَّ الهجوم، وعندما كان التّتار يحاصرون مدينةً أو قلعة محاطة بسور حصين مرتفع لا قدرة لهم على تسلُّقهِ أو اجتيازه أو إيصال القذائف إلى الداخل من خلاله، فإنّهم كانوا يلجأون إلى عمل سور

(1) انظر المنصوريّ: مختار الأخبار، ص14.

(2) الدواداري: كنز الدُّرر، 120/9.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 260/8.

(4) المصدر نفسه: 439/7.

آخر مقابل له من أجل موازاته، حتّى يتسنّى لهم إتقان الرّماية، وإصابة الأهداف بدقّة. وقد حصل ذلك في حصار تيمور لنك لقلعة دمشق، إذ يقول ابن عربشاه: ((ثمَّ إنَّهُ صار في هذه المدّة، يحاصر القلعة ويُعدّ لها ما استطاع من عدّة، وأمر أن يُبنى مقابلها بناءً يعلوها، ليصعدوا عليه فيهدُّوها، فجمعوا الأخشاب والأحطاب وعبُّوها وصبُّوا فوقها الأحجار والتراب ودكُّوها، وذلك من جهة الشمال والغرب، ثمَّ علوا عليه وناوشوها الطعن والضَّرب، وفوَّض أمر الحصار لأمير من أمرائه الكبار، ...، ونصب عليها المجانيق، ونقب تحتها وعلّقها بالتعاليق، وكان فيها من المقاتلة فئة غير طائلة، ...، فأهلكنا من جيشه بالإحراق، وإرعاد المدافع والإبراق، ما فات العدّ، ... وقد أمطر عليها من سهام غمام رماته وصواعق كماته صيّب وابلها، أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيمانها وعن شمائلها))(1).

وقد كان المغول يميلون إلى حفر الخنادق حول القلاع المحاصرة باستمرار ويعتبرون ذلك جزءاً من إستراتيجيتهم العسكريّة، يقول القلقشندي: ((وأقبل القومُ في لفيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التي لا تنحصر، ...، ورأى كلٌّ قبيلٍ الآخر رأي العين وليس الخبر كالعيان، ... واحتفروا خنادق للاحتراس...))(2).

6.3 عنف الغزوّ المغوليّ

يصوِّر النثر العربي الأفعال التي اقترفها المغول في البلاد الإسلاميّة التي خضعت لسيطرتهم، وقد ركَّز الأدباء على إبراز قسوة المغول، ووحشيَّتهم التي تتنافى مع جميع الأديان، ولا تصدر إلاَّ عن أُناسٍ لا يدينون بدين، وأظهروهم على درجةٍ عاليةٍ من الشّراسة، فظهروا في صورةِ قومٍ همَّهم التخريب والدَّمار، وسفك الدِّماء، والنَّهب والسَّلب، وانتهاك المحرَّمات، ويخيَّل لقارئ النثر الذي قيل في رثاءِ المدن الإسلاميَّة التي غدت في قبضة المغول، وفعلوا فيها فظائعهم، أنَّ الإجرام قد أصبح ديناً يدينون به، وقد سجّل الأدباء ما أصاب البلاد الإسلاميّة وساكنيها على أيديهم، فقد أصبحت المدن الإسلاميّة خالية، مقفرة، حزينة، تشرَّد أهلها، وأصبحت خراباً كما

---

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص266، 270.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 439/7.

يقول الكازروني: ((... فلمَّا اقتعدت راحلتي وأنضيتها في قطع مسافتي، وافيتها بلدة خالية وأُمّة جالية، ودمنة حائلة، ومحنة جاثمة، وقصوراً خاوية، وعِراصاً باكية، قد رحل عنها سكّانها، وبان عنها قطّانها وتمزّقوا في البلاد ونزلوا بكلِّ واد...))[1]. فقد خلت بغداد من النَّاس بعد أن نزل عليها بلاء المغول، وقد كانت في السابق عظميةً، فبغداد ((... دار السَّلام هي كعبة الإسلام وحرم الإمام، ومعدن الكرام، ودار الخلافة، ومحل الأمن من المخافة ...))[2].

لقد خرَّب المغول بغداد بعد أن كانت سيِّدة البلاد، فما نجد من صاحب مراصد الاطلاع إلاَّ بكاءها، إذ يقول: ((بغداد كانت أمّ الدُّنيا وسيِّدة البلاد، جاء التَّتر إليها فخرَّب أكثرها وقتلوا أهلَها كلَّهم ...))[3].

وفي سنة 795هـ، استولى تيمور لنك على بغداد ((وفعل بها فِعالاً قبيحةً من القتل والأسر والنَّهب))[4]، وحرق مبانيها وحلَّ الخوف والحزن على من بقي من أهلها على قيد الحياة ((فثنى نحوها عنان الحنق وأضمر ما تصل إليه يده من غرق وحرق، وأظلَّ عليهم بغمام غم بعدما رعد وبرق، فوصل بتلك الفِرق وأحلَّ بهم البؤس والقلق، وأذاقهم لباس الجوع والفَرق ...))[5].

وكثيراً ما يصوِّر لنا الأدباء حال المدن الإسلاميّة قبل وبعد دخول الغزو المغوليّ إليها، فنرى ابن عربشاه يشير إلى أحوال بغداد قبل الغزو المغولي وبعده، بغداد مدينة الوئام والسَّلام التي آلت وأصبحت مدينة الشؤم، وموطن الغراب، وأصبح سكّانها في ذلٍّ وهوان بعد أن كانوا في عزٍّ ونعيم، إذ يقول: ((... ثمَّ إنَّ تيمور خرَّب المدينة بعد أن أخذ ما بها من أموال خزينة وأفقر أهلها، وأقفر منازلها، وجعل عاليها سافلها، وصارت بعد أن كانت مدينة السَّلام دار السام، وأسروا من بقي من ضعفة

---

(1) الكازروني: مقامة في قواعد بغداد، ص15.

(2) المصدر نفسه، ص14.

(3) البغدادي، صفيّ الدِّين عبد المؤمن عبد الحقّ (ت739هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار الجيل – بيروت، ط2، 1992م، 163/1.

(4) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، 475/3.

(5) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص119.

أهاليها ... ومزّقتهم أيدي الزّمان كلَّ ممزَّق ... بعد أن كانوا في ظلالٍ ودلال، ومن مساكنهم في جنتين عن يمينٍ وشمال، فاليوم عشعش البوم والغراب في أماكنهم ...، وهذه المدينة هي أشهر من أن توصف ... وعرفانها أذكى من أن يُعرف ... وناهيك أنّها كاسمها مدينة السَّلام وأنَّهُ على ما قيل لم يمت بها إمام ...))[1].

ومن المدن الإسلاميّة التي تعرَّضت للعدوان المغوليّ مدينة حلب، حيث غزاها المغول سنة 658هـ، وكان لغزوهم الأثر المدمِّر على المدينة وقلعتها، فيذكر ابن كثير أنّهم خرَّبوا ((أسوار البلد، وأسوار القلعة، وبقيت كأنّها حمار أجرب))[2].

ورثى الرسعني مدينة حلب في مقامة أدبيّة لم يبقَ منها إلاَّ سبعة عشر سطراً، إذ يقول: ((... وحلبت العيون مآءها على حلب، وسكبت الجفون دماءها من الصَّبب، وألتفَّ عليها الختل والاختلال، واحتفَّ بها القتل والوبال، واختطف من أعيانها عرائس الشُّموس والأقمار، واقتطف من أغصانها نفائس النُّفوس والأعمار، فستر سفور السرور ونشر ستور الشُّرور، وتخرَّبت الدور والقصور ونُحرت الحور في النحور ...))[3].

ويشير الصيرفيّ إلى تبدُّل الأحوال في حلب، فالأهل يعانون من الفقر والبؤس والقلق، والألم بعد الغنى. أمّا المساجد، فقد خلت من صوت الآذان، كما خلت منابرها من أداء الخطب، إذ يقول: ((... فصارت الشهباء عبدةً للناظرين، وموعظةً للمتذكِّرين، فكأنَّها قد صاح بها صائح فإذا أهلها خامدون، ولسان حالها يقول: حسرةً على العباد الذين كانوا بالأمس في أمن راغدين، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فصار أغنياؤها فقراء يسألون، وتجّارها لابسين، والإجلال الأعدال يدورون، ومخدراتها عاريات مأسورات ثكلى عن أولادهنَّ مكسورات، وجوامعها ومساجدها عن الآذان

(1) المصدر السابق، ص120.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ص218.

(3) ابن الوردي: تتمّة المختصر، 308/2.

والصلاة والخطب خالية، ودورها على أرضها خاوية، ولسان حالها يقـول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾*))[1].

وفي سنة 803هـ، تعرَّضت مدينة حلب لغزو تيمورلنك، حيث ((اقتحمت عساكر تمرلنك المدينة، وأشعلوا فيها النيران، وجالوا بها ينهبون ويأسرون ويقتلون، واجتمع بالجامع وبقيّة المساجد نساءُ البلدِ، فمالَ أصحابُ تمر عليهنّ وربطوهُنَّ بالحبال، ووضعوا السَّيف في الأطفال، فقتلوهم بأجمعهم، وأتت النَّار على عامّة المدينة فأحرقتها، وصارت الأبكار تُفتضُ من غير تستُّرٍ ولا احتشام ...))[2].

وقد ذكر الكتَّاب نكبة مدينة دمشق على يد الطَّاغية تيمور وعساكره، الذين دخلوها وأبلوا في تدميرها بلاءً حسناً، حيث هدُّوا أسوارها وبنيانها، وسَبوا النِّساء الجميلات حتّى أمست دمشق موحشة وتتمنّى أن كانت تُراباً. إذْ يقول الصيرفيّ: ((... ولم تزل دمشق ترى أموراً عِجاباً، ولسان حالها يقول: "يا ليتني كنت تراباً .."، فلعبت فيها التمرلنكيّة يميناً وشمالاً في أرضها: وهاداً وجبالاً، ولم يزل خيلهم ورجلهم تركض من باب الشهباء إلى جسر الحديد، ومن جسر الحديد إلى جسر الشريعة الزَّهراء، إلى أن خرجوا في أوائل شعبان، بعد أن أخربوا العمران وهدُّوا البنيان، فصارت أسوارها كيماناً سوداً، ينعقُ عليها غربانها جرداً ...))[3].

ويركِّز الأُدباء على القتل الذي ارتكبه المغول في البلادِ الإسلاميَّة، وأطالوا في الحديث عن ذلك، وهم يقفون على الأطلال البالية التي فقدت بشاشتها بعدما أمست خالية من أهلها. وقد أُبرزوا المغول في صورةِ الوحوشِ الكاسرة غايتها سفك الدِّماء، فهم إن دخلوا مدينةً استباحوا دماء من فيها، وأراقوها أنهاراً، وقتلوا أهلها جميعاً دون رحمة، ولم ينجُ من وحشيَّتهم أحد حتّى الأطفال، ولذلك غدت البلاد التي دخلوها قفراً، لا يسكنها سوى الغُربان التي تنعقُ معلنةً خرابها، وفناء سكَّانها.

---

* سورة الحاقة: الآيتان (28، 29).

(1) الصيرفيّ: نزهة النُفوس، 2/76-77.

(2) المقريزي: السلوك، ج3، ق3، ص1033.

(3) الصيرفيّ: نزهة النُفوس، 2/92.

وقد عبَّر النثر الذي رثى المدن عن كثرةِ القتلى الذي خلَّفه الغزو المغوليّ لتلك المدن ومنها بغداد التي نكبها المغول، وقتلوا مُعظم سكَّانها، إذْ يشير ابن الأثير إلى قتل النَّاس قائلاً: ((... وقد اختلف النَّاس في كميّة من قُتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة، فقيل ثمانمائة وقيل ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نسمة...))[1].

لم يفرّق المغول في القتل بين النِّساء والشيوخ والأطفال، فجميعهم سواسية أمام سيوفهم، فقد كان سفك الدِّماء غايةً يسعون إليها، وكلَّما حازوا نجاحاً، اشتدَّ تعطُّشهم لسفك الدِّماء، فلم يظهروا شيئاً من الرَّحمة اتّجاه أهل بغداد، فالخليفة الحاكم بأمر الله العباسيّ في خطبته يشير إلى أفعال المغول في بغداد من قتلٍ وسلبٍ، وسبيٍ، إذ يقول: ((فلو شاهدتم أعداء الإسلام لمَّا دخلوا دار السَّلام، واستباحوا الدِّماء والأموال وقتلوا الرِّجال والأطفال، وسَبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأُمَّهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وعلت الصيحات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخٍ خضِّبت شيبته بدمائه، وكم من طفلٍ بكى فلم يُرحم لبكائه))[2].

وقد امتازت عساكر تيمورلنك الداخلة إلى مدينة حلب بالقسوة والهمجيّة والوحشيّة، فلم تفرّق في قتلها بين الصغار والكبار، يقول ابن الصيرفيّ: ((ولم يزالوا في أزقّتها جاثمين وفي دماء المسلمين عائمين، فقتلوا خلقاً لا يُحصى عددهم من الصّغار والكبار، غير من مات من الأطفال تحت سنابك الخيول من الدَّوس والعثار...))[3].

ولم يكن المغول يكتفون بالقتلِ الذي يملأُ الأرض بالدِّماء والتي جارت بغزارتها نهر دجلة، بل كانوا يُشيدون من رؤوس القتلى أهراماً: ((... ثمَّ أتوا بهم فرادى وجملة، وجاروا بسيل دمائهم نهر الدّجلة، وطرحوا أبدانهم في تلك الميادين وجمعوا رؤوسهم، فبنى بها ميادين فقتلوا من أهل بغداد نحواً من تسعين ألف نفس

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 51/7.

(2) المصدر نفسه، 275/13.

(3) ابن الصيرفيّ: نزهة النفوس، 76/2.

صبراً، وبعضهم عجز عن تحصيل البغداديين، فقطع رؤوس من معه من أهل الشّام وغيرها أسرى وعجز بعض عن رؤوس الرِّجال فقطع رؤوس ربَّات الحجال...))[1].

وقد تكرّرت الصُّورة نفسها عند ابن إياس في وصفه لدخول عساكر تيمورلنك حلب، فدلَّل على بشاعة أعمال المغول المتمثّلة في كثرة القتلى التي أسقطوها وصنعوا من رؤوسها مآذن عديدة، الوجه فيها بارزٌ يبعث الرُّعب والفزع في النُّفوس، إذْ يقول: ((... وقد أسرفوا في القتل ونهب الأموال، وصارت الأرجل لا تطأ إلاَّ على جثّة إنسان لكثرة القتلى حتّى قيل إنّهُ بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً وصعودها في الهواء مثل ذلك وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرِّياح))[2].

ويشعر الأدباء العرب بالألم والغيرة الشديدة عندما تُمسُّ نساؤهم وأعراضهنَّ، وتتقطَّع قلوبهم وتنفطر أكبادهم حزناً وهم يصفون فظائع المغول بنساء المسلمين، وذلك بنيلهم أغراضهم الدنيئة دون مراعاة حرمة مسجدٍ أو دور عبادة، فنجد ابن عربشاه يصف لنا ذلك المشهد المؤلم أثناء دخول كتائب المغول حلب، فيقول: ((وأقبلوا نحو المدينة وقد داست حوافر الخيل أجساد العامّة وحلَّ بهم من البُؤس كلَّ داهية طامَّة وان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجمّ الغفير من النِّساء والأطفال، فدخلوا إليهم وأسروهم، وقرنوهم بالحبال، وأسرفوا في قتل النِّساء والرِّجال، وصارت الأبكار تفتضّ في المساجد، ولم يراعوا حرمة المساجد فلم يرثوا لبكاء الرضَّع ولم يخشوا دعاء الركَّع، وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى فلا حول ولا قوّة إلاَّ بالله))[3].

وقد تعدَّت أفعال المغول في بغداد الأحياء إلى الأموات في قبورهم، فقد نبشوا القبور الخلفاء وأحرقوها[4]. ومن الجدير بالذِّكر أنَّ المغول اشتهروا بنبش القبول

---

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص119.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، 327/1.

(3) ابن عربشاه: عجاب المقدور، ص209؛ انظر ابن إياس: بدائع الزهور، 326/1.

(4) انظر الهمذاني: جامع التواريخ، مج2، 292/1-293.

وإحراقها وخاصّة قبور الملوك والسلاطين، وذلك طلباً للمال الذي يعتقدون بوجوده في مدافنهم[1].

وعمل المغول على تدمير كل مقوّمات الحضارة والثقافة، فقد كان من دأبهم أن يحرقوا المكتبات، وأن يجعلوا الكتب الثمينة طعاماً للنيران والمواقد، يقول ابن تغري بردي: ((... وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون، والتي ما كانت في الدُّنيا...))[2]. وعملوا على تخريب المدن العامرة، مراكز الحضارة حتى استوى عاليها بسافلها، وقتلوا كلَّ كائنٍ فيها حتّى أصبحت خراباً يباباً، لقد تحوّلت قصور بغداد إلى حطام وتراب، وصيَّرها التَّتار إلى مدينة موحشة خالية من أهلها، حزينة باكية على حالها كما يقول الكازروني: ((... وقصورها المشيَّدة مهدوسة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية بلسان الحال على سكَّانها، عظام العظام بالية، تسفي عليها الرِّياح السافية ...))[3].

ويبكي الكازروني رواق أروقة دار الخلافة في بغداد، هذا الرواق العزيز الرفيع الذي كان محطّ أنظار الجميع، ومعلماً حضاريَّاً مهمَّاً، تبدّلت أحواله وأصبح حزيناً باكياً، إذْ يقول: ((قد تبدَّل بعد الأُنس بالكآبة حتَّى صارَ بهذه المثابة، يستوقف بلسان حاله ويستبكي على تغيُّرِ أحواله ...))[4].

ويعلِّل الباحثون حُبِّ المغول للتخريب والتَّدمير إلى أنَّهم لا يدركون معنى للحضارة، ولا يفقهون معنى للاستقرار[5]، وإلى طبيعتهم البدائيَّة، بحيث إنَّهم إذا احتكّوا ببلدٍ من البلدان المتحضِّرة يندفعون إلى تدمير ما يجدونه فيه من مظاهر

---

(1) انظر أبو الفداء: المختصر، 150/3؛ انظر ابن الأثير: الكامل، 392/12.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 51/7.

(3) الكازروني: مقامة في قواعد بغداد، ص15.

(4) المصدر نفسه، ص17.

(5) انظر الصيَّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية – القاهرة، 1980م، ص34.

الحضارة والمدنيَّة بسبب خوفهم منها، ويحرقون المدن بمن فيها، بحيث لم يتركوا بعد انتهاء فترة الغزو إلاَّ بلداناً مُخرَّبة مكتظَّة بجثث القتلى[1].

ولقد كان المغول يتفنَّنون في عقابِ أهل البلاد التي يدخلونها، فالإضافة إلى القتل ورمي الصِّغار في النَّار، والضَّرب، والاغتصاب، كانوا يعذِّبون الرِّجال بالنَّار وهم أحياء فيشوون وجوههم، ويكوون جنوبهم، وقد عبَّر ابن عربشاه عن ذلك بقوله: ((فهجمت أولئك الكفرة الفجرة على ذلك أشدّ الهجوم، وانقضُّوا على النَّاس بالتعذيب، والترثيب والتخريب، انقضاض النُّجوم، واهتزُّوا وربوا، وفتكوا وسبوا، وصالوا على المسلمين وأهل الذِّمم، صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم، وفعلوا ما لا يليق فعله، ... وأسروا المخدّرات، وكشفوا غطاء المستَّرات، واستنزلوا شموس الخدور، من أفلاك القصور، وبدور الجمال من سماء الدّلال. وعذَّبوا الكبار والأكابر بأنواع العذاب، وبدا للخلق ما لم يكن في الحساب، واستخلصوا بإصلاء جواهر النَّاس النَّار منهم خلاصات الذهب، وصنَّفوا استخراج النفائس من النُّفوس بأصناف العذاب مسائل يقضي منها العجب))[2].

حلَّ العذاب بشتَّى أنواعه على أهل حلب، وذلك عند دخول عساكر تيمورلنك إليها ((فشرعوا يقتلون، ويأسرون، ويخرِّبون، ويحرقون، فأذاقوا أهل الشهباء من أنواع العذاب من القتل والعصر والكيّ والعقاب، ولله درّ من قال:

على حَلَبِ الشَّهْباء حَلَّتْ مَصَائِبٌ بِأَيْدِي تمرلَنْك ومُغْل وجِقْطاي[3]

ورأى أهلُ دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها على أيدي عساكر تيمورلنك، منها: ((أنَّهم كانوا يأخذون الرَّجل فتشدُّ رأسه بحبلٍ ويلويه حتَّى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتّى تنخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط إبهام يديّ المعذَّب من وراءِ ظهره ثمَّ يلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرَّماد مسحوقاً، فيقرُّ على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتّى إذا فرغ ما عنده لا

---

(1) النسوي: سيرة السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي، ص13.

(2) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص281-282.

(3) ابن الصيرفيّ: نزهة النُّفوس، 2/75-76.

يصدّقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرّر عليه العذاب حتّى يمـوت، ويعاقـب ميتـاً مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلّق المعذَّب بإبهام يديه في سقف الـدَّار ويُـشعل النَّار تحته، ويطول تعليقه، فربَّما يسقط فيها، فيسحب من النَّار ويُلقوه علـى الأرض حتّى يفيق، ثمّ يعلّقه ثانيةً ...))[1]. وكان المعذَّب منهم يحسدُ رفيقه الذي مـات تحـت العقوبة، ويقول: ((ليتني أموت وأستريح ممّا أنا فيه))[2].

وممّا يؤكّد غضب تيمورلنك على الدمشقيين، ما فعله مع أطفـالهم الأبريـاء، حيث أمر بجمع أطفال المدينة الذين فقدوا أهلهم بالقتل أو الأسر، وكانت أعمارهم مـا بين يومٍ واحدٍ وخمس سنوات، فجُمعوا له خارج المدينة، وأتاهم تيمور، وانتظر ساعة من الوقت، وبعدها أمر جنوده بأن يسوقوا بالخيل عليهم، فماتوا جميعهم، وقـد بلـغ عددهم نحو عشرة آلاف طفل[3]، وقد برَّر تيمورلنك فعلته هذه بقوله: ((انتظـرت الله أن ينزل على قلبي فيهم رحمة، فما نزل على قلبي فيهم رحمة))[4].

لم يكن القتل، والنَّهب، والأسر، والسّبي، وهتك الأعراض، والتعـذيب بـشتّى أنواع العذاب مقتصراً على مكانٍ دون آخر، أو فترة دون سواها، بل تلـك الـصُّورة العامّة لأفعالهم وغزوهم لم تتغيّر، ولم تخفْ حدَّتها منذ سقوط بغداد سـنة 656هـ، وحتّى نهايات موجات غزوهم سنة 803هـ. وقد جعلت تلك الصُّورة العامّة لأعمالهم في البلاد، المؤرّخين ينظرون إليها على أنَّها عادةٌ من عاداتهم، كما رأينـا بعـضهم يحجم عن تدوينها في مؤلَّفاته لأنَّه لم يطرأ شيء جديد عليها، فصورة عنف غـزوهم والأفعال القبيحة البشعة التي قاموا بها واحدة لم تتبدّل في النثر الذي واكـب أحـداث غزوهم للبلاد الإسلاميّة.

---

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص281.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: 194/12.

(3) انظر العسقلاني، ابن حجر: أبناء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشي – القاهرة، 1969م، 218/4؛ انظر ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص617.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق2، ص618.

7.3 الأثر الذي خلَّفه الغزو المغوليّ في نفوس المسلمين

كان للغزو المغوليّ وقعٌ عظيمٌ في نفوس المسلمين، أفقد كثيراً منهم القدرة على التفكير، وأوقعهم في حيرةٍ أدَّت ببعضهم إلى الهلاك. وقد وصف الكتَّاب الأدباء على الأثر الذي خلَّفه الغزو المغوليّ في نفوس المسلمين، الذين عانوا وحشيّته وقسوته، حتّى يئسوا من الحياة[1]، فقد مُلئَت قلوبهم بالخوفِ والرعب الذي أدّى بالكثير منهم إلى ترك بلادهم، والنزوح إلى المناطق التي يظنُّونها أكثر أمناً، ومنهم من انقطع لقراءة القرآن، والإلحاح بالدُّعاء حتّى يتأتّى النَّصر من عند الله، ومنهم من أصابه الذُّهول الذي ألجأهُ إلى الاستسلام، وفقدان روح المقاومة.

ويصف ابن كثير الأثر النفسيّ الذي خلَّفه الغزو المغوليّ لبغداد سنة 656هـ، فمن شدّة خوف النَّاس وجزعهم عملوا على دفن أنفسهم بالمطامير والقبور، إذ يقول: ((... وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها كأنَّها خراب ليس فيها إلاَّ القليل من النَّاس، وهم في خوفٍ وجوعٍ وذلّةٍ وقلّة، ... ولمَّا نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنَّهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه ...))[2].

وفي سنة 700هـ، ((وردت الأخبار بقصد التّتر بلاد الشَّام، وأنَّهم عازمون على دخول مصر، فانزعج النَّاس لذلك، وازدادوا ضعفاً على ضعفهم، وطاشت عقولهم وألبابهم، وشرع النَّاس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك، والحصون المنيعة))[3]. وقد وصف بيبرس الدواداري ما كان يعمر قلوب المسلمين من خوف المغول، فقال: ((كان إذا تحرّكت منه الشرذمة القليلة، ترتاع لها العساكر، ويلتاع منها الأكابر))[4].

ويشير ابن عربشاه إلى تخبُّطِ أهل دمشق واضطرابِهم عندما علموا بقدوم المغول لاحتلال دمشق، فما كان مهم إلاَّ اللُّجوء إلى الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء

---

(1) انظر ابن الكتبي: فوات الوفيات، 361/4.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 235/13-236.

(3) المصدر نفسه، 14/14.

(4) الدواداري: زبدة الفكرة، 161/9.

والاستغاثة، وشحذهم همم المجاهدين، إذ يقول: ((... والأطفال الصغار والرِّجال يجأرون إلى الجبَّار، وينادون بحرقة كلَّ ليلةٍ في الأزقَّة: يا الله يا رحمن، انصر مولانا السُّلطان، والنَّاس في اضطرابٍ وحركات، يستنزلون النَّصر والبركات، ويستغيثون الليل والنَّهار، يا مجاهدون* الأسوار))[1].

ولم تكنْ مصر بالأفضل حالاً من دمشق عندما علمت بقدوم جيوش المغول الجرَّارة إليها، فقد حلَّ الخوف والفزع والاضطراب بالعباد، يصف لنا المشهد ابن عربشاه بقوله: ((... فأمّا مصر فما دونها من البلاد فإنّها تخبَّطت، وانحلَّت قواها وأيديها تربَّطت، وعدمت القرار، واستعدَّت للفرار، فلو رأيت النَّاس وهم حيارى ﴿سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾[2] أبدانهم راجفة، وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافتة، وأبصارهم باهتة، وشفاههم يابسة، وصورهم بائسة، ووجوههم باسره "تظنُّ أن يفعل بها فاقرة" ...))[3].

ويرسم النثر العربيّ صورة للأحداث المصاحبة للغزو المغوليّ، فيصفها بأنَّها أحداث مهولة، شبيهة بأحداث يوم القيامة، ويتجلَّى ذلك عند عددٍ من الكتَّاب ومنهم تقيّ الدِّين بن تيميّة، فنراه يصوِّر القيامة قد قامت في مصر بعد غزو المغول لها، يقول: ((... وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامةً مختصرةً من القيامة الكبرى. فإنَّ النَّاس تفرَّقوا فيها ما بين شقيٍّ وسعيد، كما يتفرَّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرَّ الرَّجلُ فيها من أخيه وأمِّه وأبيه، إذْ كان لكلِّ امرئٍ منهم شأنٌ يُغنيه، وكان من النَّاس من أقصى هَمِّه النَّجاةُ بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده، ولا عروسه ...))[4].

ويصفُ ابن عربشاه ما حلَّ بالدِّمشقيين من أهوال الغزو المغوليّ، متأثِّراً بالقرآن الكريم والصنعة البديعيّة، فيقول: ((وفرَّقوا بين الوالدة وولدها، والرُّوح وجسدها، وذهلت كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعت، وجازوا كلَّ نفسٍ بما صنعت، وبغير ما

* وردت هكذا في النصّ، والصَّواب يا مجاهدو الأسوار

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص237.

(2) سورة الحج: آية (2).

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص290.

(4) ابن تيميّة: كشف النقاب عن سورة الأحزاب، ص18.

صنعت، وفرَّ المرء من أخيه وأُمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وصار لكلٍّ منهم يؤمئذٍ شأنٌ يُغنيه، وذلَّ العزيز والكريم، وهان الخطير والجسيم، وطمَّ البلاء، وعمَّ القضاء وطاشت الحلوم، وتبلَّدت الفهوم، وتراكمت غيوم الغيوم، فأقسم بالله لقد كانت تلك الأيَّام، علامة من علامات يوم القيامة، وأسفرت تلك السَّاعة عن أشراط السَّاعة))[1].

وقبيل معركة شقجب سنة 702هـ، خرج السُّلطان بعساكره للقاء المغول، وكان النَّاس في ترقُّبٍ مستمر يصعدون إلى المآذن والأسطحة يستطلعون أخبار المعركة، ويلحُّون بالدُّعاء والابتهال في الصَّلاة، متأمِّلين النَّصرَ من عند الله، يقول ابن كثير: ((... وظهرت الوحشة في البلد والحواضر، وليس للنَّاس شغلٌ غير الصُّعود إلى المآذن ينظرون يميناً وشمالاً فتارةً يقولون: رأينا غبرة فيخافون أن تكون من التَّتر، ويتعجَّبون من الجيش مع كثرتهم عدَّتهم وعددهم، أين ذهبوا؟ فلا يدرون ما فعل الله بهم، فانقطعت الآمال وألحَّ النَّاس بالدُّعاء والابتهال وفي الصَّلوات وفي كلِّ حال، ... ولمَّا رأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو، فغلب على الظُّنون أنّ الوقعة في هذا اليوم، فابتهلوا إلى الله – عزّ وجل – بالدُّعاء في المساجد والبلد، وطلع النِّساء والصِّغار على الأسطحة وكشفوا رؤوسهم، وضجَّ البلد ضجَّة عظيمة))[2].

لقد شارك المسلمون من غير المقاتلين ماديًّا ومعنويًّا في حروب المسلمين ضدّ المغول، فتبرز صورتهم – عند كثيرٍ من الكتَّاب – وهم في المساجد يتضرَّعون إلى الله تعالى أن ينجز وعده، ويستمطرون رحمته ولطفه، وهو موقف يوحي بتلاحم الأُمَّة جمعاء في وجه الغزو المغوليّ، يقول محي الدِّين بن عبد الظَّاهر يصفهم بعد توجُّه الجيش لحرب المغول عام 678هـ: ((وكان المسلمون في سائر البلاد الإسلاميّة في تلك السَّاعة قد طرقوا أبواب السَّماء، وجرَّدوا سلاح الأنبياء من الدُّعاء، ولا مشهد، ولا مسجد في تلك السَّاعة في القاهرة، ومصر، ودمشق، والأقاليم إلاَّ وصفوف المتهجِّدين في ذلك الوقت قائمة، متزاحمة بالمناكب، فاستجاب الله دعاءهم))[3].

---

(1) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص282.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/28-29.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن فرات، 7/224.

كان موقف الرعيَّة من جيش المسلمين بعد هزيمة سنة 699هـ سلبيّاً، وقد يكون ذلك بسبب فعائل المغول الشنيعة بعد دخول الشَّام، لكنَّ الموقف تغيَّر بعد بدء النَّاصر بإعداد العدّة لحرب المغول. قال ابن تيميّة: ((وحنَّت إلى العساكر الإسلاميّة نفوس كانت مُعْرِضة عنهم، ولانت لهم قلوب كانت قاسية عليهم، وطابت نفوس أهل الإيمان ببذل النُّفوس والأموال للجهاد في سبيل الله، وأعدَّوا العدَّة لجهاد عدو الله وعدوّهم، وانتبهوا من سِنتهم، واستيقظوا من رقدتهم))[1].

ولقد كان يسري اعتقاد بين المسلمين في العصر المملوكي أنّ قراءة صحيح البخاري تجلب لهم النَّصر، وتقيهم أعداءهم، ويكشف عن ذلك أخبار المؤرِّخين الذين رووا غير مرّة أنَّ النَّاس كانوا يشرعون في قراءة صحيح البخاري عند سماعهم نبأ هجوم المغول[2]، ففي سنة 701هـ ((وفي شهر صفر وصلت القصَّاد إلى القاهرة، وأخبروا أنّ قازان قاصد الشَّام، وأنَّ بولاي قد قاربوا الفرات فشرعوا في تجهيز العساكر، وابتدأوا في قراءة البخاري تحت قبّة النسر، ثمّ فترت أخبار التَّتار وصحَّت الأخبار برجوع غازان))[3].

ومن آثار الغزو المغوليّ في نفوس المسلمين أنَّ القسم الكبير منهم لخوفهم وفزعهم عزموا على الهروب عند سماعهم بحركة جيش المغول، ففي سنة 700هـ عندما علم النَّاس بقصد التَّتار لبلاد الشّام وأنَّهم عازمون على دخول مصر أدّى بهم الخوف للهرب إلى المناطق التي يعتقدونها أكثر أمناً، فارتفع ثمن الدَّابة التي تنقلهم، يقول ابن كثير: ((... فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة، وبيعت الأمتعة والثياب والغلاَّت بأرخص الأثمان، ... وقد خرج كثير من النَّاس خفافاً وثقالاً يتحمَّلون بأهليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصِّغار في الوحل الشديد والمشقَّة على الدَّواب والرِّقاب، وقد ضعفت

---

(1) رسالة ابن تيميّة إلى النَّاصر، ص13.

(2) انظر الصفديّ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت764هـ): الوافي بالوفيات، فرانز شتايز بفيسادث، النشرات الإسلاميّة، جمعية المستشرقين الألمانية، طبع في دار صادر باعتناء س. د. رينغ – بيروت، 1982م، 4/358-359.

(3) الكتبي: عيون التواريخ، 19/177.

الدَّواب من قلّة العلف مع كثرة الأمطار والزلــق والبــرد الــشَّديد والجــوع وقلّــة الشيء))[1].

وفي سنة 803هـ كان اجتياح تيمورلنك لبلاد الشَّام، ممّا كان ((من غالب أهل الرَّملة وغزّة ودمشق وصفد وحماة وطرابلس إلاَّ أن يقدموا إلــى الــدِّيار المــصريَّة ويتركوا أولادهم، وأوطانهم، وأموالهم؛ خوفاً من تمرلنك، فمنهم من جاء حافياً عارياً، ومنهم من جاء عليه قميص واحد على بدنه في البَّرد الشَّديد، ....، وأصبحت أســواق البلد خراباً خالية عن الخبز خمسة أيّام، وما كان شراؤهم ذلك إلاَّ من الأفــراد بعــد مشقّة زائدة، ويجتمع وقت الصُّبح على كلِّ فرن أكثر من خمسمائة نفر...))[2]. لم يأبه السكَّان بالجوع والبرد القارص، وصعوبة الترحال في البرد الشديد، بل كــان همَّهــم الكبير الابتعاد عن الخطر المغوليّ لِمَا عُرِفَ عنه من قسوةٍ وبشاعةٍ وهمجيّةٍ وإبــادة للجميع.

ويشير ابن عربشاه إلى ردّةِ فعل بعض النَّاس في بلاد الشَّام حــال ســماعهم بقدوم المغول لبلادهم، فمنهم من يجعل نفسه في مأمنٍ عن متناول المغول، ومنهم من يقاتل ويخرج للجهاد، ومنهم من يفرُّ بنفسه، والبعض الآخر يستسلم وينقاد لهم، يقــول ابن عربشاه: ((فلمَّا قَدِمَ تيمور الشَّام، وحلَّ بها منه ما يحلُّ من قضاة السُّوء بــأموال الأيتام، شرع كلُّ متولٍ في بلاد، يفعلُ ما أدَّى إليه الاجتهاد، فبعض حــصَّن أماكنــه، وبعض مكَّن كمائنه، وطائفة استنجزت للنفار، وفرقة استوفزت للفرار، وقوم ســالموا وساكنوا وهادوا وهادنوا))[3].

8.3 صفات المغول

يُطالُعنا في النثر الذي واكب أحداث الغزو المغولي للبلاد الإسلاميّة الكثير من الصِّفات التي أسبغها الكتّاب على العدو المغوليّ الغازيّ، فقد نعتوهم بالكفرة الفجــرة وهذا النعت استوحوه من طبيعة الصِّراع الذي تجلَّى بين المسلمين والمغول في النثر،

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/17-18.

(2) انظر دائرة المعارف الإسلامية: 10/301؛ انظر الصيرفيّ: نزهة النفوس، 2/93-97.

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص272-273.

في صورة صراع دينيّ بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشِّرك[1]، كما نعتوهم بالمكر والخداع وحبّهم لسفك الدِّماء والقسوة والوحشيَّة التي ينمازون بها، فضلاً عن الجهل والظُّلم والنفاق.

لم يكن لإسلام المغول في الكتابة الفنيّة صدىً واسعٌ، ويبدو أنّ وحشيّتهم، وتعاملهم الدمويّ مع أهل البلاد التي غزوها لم تترك في النُّفوس مجالاً لقبولهم؛ لذلك نجد الكتَّاب في رسائلهم يصفونهم بالمشركين والكفَّار، والمجرمين، وأهل النَّار، وبأنَّهم أهل الشيطان ألقوا إليه أمورهم، وسلّموه قيادتهم. ومن رسالة بعث بها السلطان قطز إلى ملك اليمن مبشِّراً بالنَّصر على المغول في عين جالوت يقول ابن عبد الظَّاهر: ((فأقلعت بهم طرائق الضَّلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، ...، وأقلعوا في البحر بمراكبه، والبرِّ بمواكبه، وساروا وللشيطان فيهم وساوس، تغرّهم أمنيّة الظُّنون الحوادس، فما وسوس الشيطان كفراً إلاَّ وأحرقه الإيمان بكوكب))[2].

وينعتهم ياقوت الحمويّ بأنَّهم أهل كفر وإلحاد، وزيغٍ عن الحقّ، يقول: ((فجاس خلال تلك الدِّيار أهل الكفر، والإلحاد، وتحكم في تلك الأستار أُولو الزيغ والعناد...))[3].

وفي رسالة قلاوون مبشِّراً بالنَّصر عليهم عام 678هـ، يقول فيهم: ((وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم، فعجّل الله بأرواحهم إلى النَّار، وأبت الأرض من تواري جسداً لهم فقذفتهم في المهامة والقفار))[4].

وقد أحسَّ الكتَّاب بأنَّ المغول يهدفون إلى القضاء على دينهم، خاصةً وأنَّ كثيراً من قوى الكفر انضمَّت إلى صفوفهم، ووجدتهم خير حليفٍ يعينهم على ضرب المسلمين، والسيطرة على مقدّساتهم؛ لذلك أبرزوا الصِّراع العقائدي جليَّاً؛ كي يجمعوا على درب الجهاد أكبر عددٍ ممكنٍ من المسلمين. فقد نُعتوا بأعداء الملَّة المشركين،

---

(1) انظر فوزي أمين: أدب العصر المملوكي الأول، ص77؛ وانظر مأمون جرّار: أصداء الغزو المغوليّ في الشِّعر العربيّ، ص73.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 7/387-388.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص186.

(4) ابن فرات: تاريخ ابن فرات، 7/224.

وأحزاب الكفر وأشياعه. قال الشهاب محمود في البشارة بالنَّصر عام 702هـ: ((وبرز فيه الإسلام كلُّهُ للشرك كلِّه، ولله الحمد الذي أعزَّ دينه ونصره، وحصد بسيوف الإسلام عدو دينه بعد أن حصده، وأباد جيوش الشِّرك وهم مائة ألف أو يزيدون، وأفنى أحزاب الكفر، وكانوا أمثال الرِّمال لا يعدُّون))(1).

وينعت الكتَّاب المغول بالخيانة والغدر، ونقض العهود والمواثيق، ذلك أنَّهم على الرَّغم ممّا اشتهروا به من ((البسالة والشَّجاعة، فإنَّهم قلَّما استخدموها، طالما كان بوسعهم أن يحقِّقوا أغراضهم عن طريق الغشّ والخداع))(2)، وذلك الغدر أصبح طبيعة لهم في التعامل مع أهل البلاد المحتلة، فهم بعدما كانوا يعطونهم العهود والمواثيق، ويبذلون لهم الأمان، فإنَّهم قلَما ظلُّوا على عهودهم معهم، ولم ينقلبوا للغدر والخيانة. ويصوِّرهم الشهاب محمود في رسالته إلى ملك الأرمن بعد نصر سنة 702هـ بأنَّهم ماكرون، تقودهم أطماعهم، وينقضون مواثيقهم، وأنَّهم ((أقاموا مدّة يشترون المخادعة بالموادعة، ويسرُّون المصارمة في المسالمة، ويظهرون في الظاهر أموراً، ويدبِّرون في الباطن أُموراً))(3).

ويشير محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى اعتماد المغول على المكر والخداع في حروبهم مع المسلمين، إذْ يقول: ((وبينما نحنُ قد شرعنا في أُهبة المبيت، ولم نقضِ الشمل الشتيت، وإذا بالصادح قد صدح، والنذير قد سنح رافعاً عقيرته بأنَّ فوجاً من التَّتار في فجوةٍ هنالك قد استتروا، وفي نجوةٍ لغرّةٍ قد انتظروا...))(4).

ويصوِّر فؤاد عبد المعطي الصيَّاد المغول بالوحوش الكاسرة إشارة إلى قسوتهم ووحشيّتهم، حيث يقول: ((شرع المغول في مهاجمة المدينة من كلِّ جانب، وتمكَّنوا من احتلالها، وعندئذٍ تركوا صفاتهم الآدميّة، وتحوَّلوا إلى وحوشٍ كاسرة...))(5).

---

(1) ابن الأثير: نهاية الأرب، 162/5.

(2) العريني، السيّد الباز: المغول، دار النهضة العربيّة – بيروت، 1981م، ص2.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 260/8.

(4) المصدر نفسه، 172/14.

(5) الصيَّاد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية – بيروت، 1980م، 131/1.

كما عُرِفَ عن المغول ولعهم الشّديد بسفك الدِّماء، وموت البشر والاستيلاء على المدن والثغور. ((إنَّ هؤلاء التّتر لا تفيد معهم مداراة ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلاَّ ذهاب الأنفس والاستيلاء على البلاد))[1].

والعدو المغوليّ قاسٍ يخرِّب البلاد، ويسفك الدِّماء، إذْ يقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((فملأوا الأقطار رعباً، والبلاد سلباً وأتوا المنازل، كما تأتي الزلازل، وطلعوا على بلاد الإسلام طلوع القضاء النازل ...))[2].

ويشير ابن عربشاه إلى المعنى نفسِه في وصفه لتيمور وعساكره من سفكهم لدماء المسلمين، وإبادتهم لهم، يقول ابن عربشاه واصفاً دخول تيمور وعساكره ديار بكر: ((ثمَّ اختار من نسور قومه طائفة، على ورد الدِّماء حائمة وعلى قتل المسلمين عاكفة، فأخذهم واندغر، وفي ممالك ديار بكر انغمر))[3].

وممّا يوصف به المغول الظلم والجهل والنفاق، فقد نعتهم ابن تيميّة بالجهل والضَّلال والغيّ، حيث يقول: ((... فإنَّ التَّتار جهّال، يقلِّدون الذين يحسنون به الظنَّ وهم لضلالهم وغيِّهم، يتَّبعونه في الضَّلال الذي يكذبون به على الله ورسوله ويبدِّلون دين الله ...))[4].

وفي رسالةِ ابن تيميّة إلى السُّلطان النَّاصر ينعت المغول بالظُّلم، والجهل، والنِّفاق، ويشكِّك في إسلامهم، إذْ يقول: ((... وانكشف لعامَّة المسلمين شرقاً وغرباً حقيقة هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلَّموا بالشهادتين، وعلم من لم يعلم ما هم من الجهل والظُّلم والنِّفاق والتلبيس والبُعد عن شرائع الإسلام ومناهجه ...))[5].

وقد اعترف الكتَّاب بالكثير من الصِّفات الإيجابيّة التي كان يتحلَّى بها المقاتلون المغول وجيشهم وكانوا يشتهرون بها؛ كالبأس، والشَّجاعة، والقوّة، والاستماتة في

---

(1) ابن شدّاد: الأعلاق الخطيرة، ص485.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص323.

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص125.

(4) ابن تيميّة: مجموعة فتاوي ابن تيميّة، م4، ص301.

(5) رسالة ابن تيميّة إلى السُّلطان النَّاصر، ص12-13.

القتال، والطَّاعة العمياء للرؤساء. ولعلَّ ما شاهده الكتَّاب بأنفسهم، أو سمعوا به عن شجاعة المغول في القتال، وصبرهم فيه، وشدَّتهم واستماتتهم في مواجهة خصومهم، وبطشهم بالأُمم التي ذاقت أقسى ألوان العقاب على أيديهم، كلُّ ذلك كان حافزاً لهم على تسجيل تلك الصِّفات، وإقرارها في كتاباتهم، قد يكون ذلك من قبيل تقوية عزائم المسلمين لقتال عدوّهم، وعدم الاستهانة به، بالإضافة إلى بيان عظمة النَّصر الذي حقّقه المسلمون على أعدائهم الذين يمتازون بالقوّة الجبَّارة، والبأس الشّديد، وذلك في حال انتصار المسلمين على المغول في المعارك التي يخوضونها.

ولم يكن الجند المغول يرضون بالهزيمة أو اليأس في المعارك، بل كانوا يصرِّون على القتال ببسالةٍ حتّى الموت، فنجدهم ثابتين في مواطن الشِّدَّة، بارعين في القتال، يصف محي الدِّين المغول في غزوة قيسارية بأنَّهم كانوا ((يقاتلون قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكم من شجاعٍ ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى، وناضل ورامى، وكم فيهم من شهم ما سلّم قوسه حتّى لم يبقَ في كنانته سهم، وذي سنان طارح به فما طرحه حتّى تثلَّم، وذي سيفٍ حادثه بالصّقّال فما جلى محادثةً حتّى تكلَّم، وأبانوا عن نفوس في الوغى أبيَّة، وقلوبٍ كافرةٍ ونخوةٍ عربيّة))(1).

وقد عمل الكتَّاب على إظهار قوّة المغول وبأسهم وإقدامهم في المعركة، وأشاروا إلى حنكة القادة في اختيار المقاتلين الشجعان، يقول محي الدِّين بن عبد الظَّاهر في رسالته مبشِّراً ملك اليمن بالنَّصر على المغول سنة 678هـ: ((وجمعوا كلَّ من اعتقدوا في ظنِّهم أنَّهُ يهزم الجمع بمفرده، وانتخبوا كلَّ شجاعٍ لا يألفُ غير ظهور الجياد من يوم مولده، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما ادخّروا وما صانوا، وسمحوا بأعزة أكابرهم، ومقدّمي التُمانات التي ما سُمع قطُّ أنَّهم في معركةٍ هابوا ولا هانوا))(2).

ويوصف المغول بأنَّهم أشدُّ النّاس اعتداداً بأنفسهم، وعجبهم الشَّديد بقوَّتهم وكثرتهم، ذلك بما زرعوه من رعبٍ في قلوبِ المسلمين بعد المعارك التي انتصروا فيها، وقد أشار علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى شعور المغول بالثِّقة الأكيدة بالنَّصر

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 165/14.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن فرات، م7، ص224.

بقوله: ((ولمَّا كان بعد الظُّهر أقدم العدو ... كالسيوف الحداد ... معتقـداً أنَّ الله قـد بسط يده في البلاد ... متوهِّماً أنَّ جيـشه الغالـب وعزمـه القـاهر متحقِّقـاً أنَّـهُ منصور...))[1].

وفي بشارة محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر بالنَّصر على المغول عام 678هـ، أشار إلى قوَّتهم واعتدادهم بأنفسهم، حيث يقول: ((ملأوا الأقطار رعباً، والبلاد سـلباً، ...، وامتدُّوا معتقدين أنَّهم مستحقّون للممالك والأمصار، مستخفِّين بالملوك والأنصار، واثقين بأنَّهم لا ينجو منهم سـكّان البـراري ولا القفـار، ولا المتحجّبـون بأسـوار البحار))[2].

وممّا وُصِفَ به الجيش المغوليّ أنّهُ من أكثر جند الأمم طاعةً لرؤسـائه فـي تنفيذ الأوامر وأداء الواجبات، حتَّى لو كلَّفه ذلك حياته، فهـو فـي الـشَّدائد صـابر، وللرفاهيّة شاكر، يطيع الرئيس في السَّراء والضَّراء، يقول القلقشندي: ((فـإنَّهم مـن أعظم الأُمم طاعةً لسلاطينهم، لا لمالٍ ولا لجاهٍ بل ذلك دأبٌ لهم))[3]، وممّا يرد كذلك تأكيداً لطاعة الجنديّ المغوليّ أنَّهُ مهما كانت رُتبته العسكريّة عندما يرتكب خطأً يكتب إلى الملك من أجل معاقبة نفسه مهما بلغت المسافة بينه وبين الملك حتَّى لـو كانـت كالمسافة بين المشرق والمغرب[4].

وممَّا يُذكر حول طاعة الجنديّ المغوليّ المطلقة للقيادة العُليا ما حدث في سنة 702هـ عندما انهزمت القوَّات المغوليّة أمام الجيوش الإسلاميّة المملوكيّة في معركة مرج الصفُّر، حيث أمر السلطان غازان الجنود بالعودة إلى أذربيجـان سـيراً علـى الأقدام، ولم يسمح لأي فردٍ بركوب أيِّ دابةٍ، وبعد رحلتهم الشَّاقَّة التي استغرقت مـا يُقارب شهرين، أمرهم بأن يستعدوا للقيام بحملةٍ عسكريّةٍ جديدة، وقد انصاعوا جميعهم لأوامره دون تذمُّرٍ يُذكر من أيِّ واحدٍ منهم[5].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1031.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 168/14؛ وانظر ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 324/7.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 316/4..

(4) انظر الجويني: تاريخ جهانكشاري، جلد أول، ص23.

(5) إسماعيل، الآثار الاجتماعيّة، رسالة دكتوراه، ص66.

9.3 الحثّ على الجهاد

لَعِبَ النثرُ دوراً كبيراً في صدِّ ومواجهة الخطر المغوليّ، فلم تخلُ خطبةٌ أو نص تقليد، أو عهد، أو هدنة، أو رسالة بُشرى بفتحٍ ونصرٍ على العدو من الحثّ على الجهاد في سبيل الله وحشد الطّاقات للوقوف في وجه الغزاة ودحرهم، وإثارة الحميَّة في نفوس الجند والرَّعيّة، وذكر فضائل الجهاد، ووصف العزائم، وكثرة العساكر والجيوش، وتخيّل أسباب النَّصر، والوثوق بعوائد الله في الظفر[1]. وقد تعاون على ذلك الخلفاء، والسَّلاطين، والأدباء والخطباء، والعلماء، جميعهم وقفوا في خندقٍ واحدٍ لصدِّ الخطر المغوليّ.

فنجد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسيّ في خُطبته – بعد تقلُّده الخلافة سنة 661هـ – يحثُّ النَّاس فيها على الجهاد وقتال المغول، ويشير إلى الجرائم التي ارتكبها المغول في بغداد عندما سقطت بأيديهم سنة 656هـ، من استباحة الدِّماء والأموال، وقتل الرِّجال والأطفال، وسفك الدِّماء، وذلك حتَّى يثير الحميَّة في نفوسِ المسلمين للذَّود عن الدِّين والمحارم، حيث يقول: ((أيُّها النَّاس اعلموا أنَّ الإمامة فرضٌ من فروضِ الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم الجهاد إلاَّ بإجماع كلمة العباد، ....، فلو شاهدتم أعداء الإسلام لمَّا دخلوا دار السَّلام، واستباحوا الدِّماء والأموال وقتلوا الرِّجال والأطفال، ....، فشمِّروا عباد الله عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، فلم يبقَ معذرةٌ في القعود عن أعداء الدِّين، والمحاماة عن المسلمين، ....، فقاتلوا أولياء الشَّيطان تظفروا، ولا يروّعكم ما جرى فالحرب والعاقبة للمتَّقين...))[3].

وقُبيل معركة عين جالوت نهض السُّلطان قطز خطيباً بالنَّاس بكلماتٍ قويةٍ مؤثِّرةٍ، يستنهض هممهم للخروج إلى الجهاد في سبيل الله لصدِّ الخطر المغوليّ، إذ

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 251/8.

(2) سورة التغابن: آية (16).

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/275-276.

يقول: ((يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجِّه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيتــه، فــإنَّ الله مُطَّلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخِّرين ...))[1].

ولم تقتصر رسائل الحثِّ على الجهاد على داخل السلطنة إلى الجند والرعيَّــة والأُمراء – بل كانت تسير إلى ملوك المسلمين، ومن ذلك رسالة الملك الظّاهر إلــى ملك مغول القفجاق بركة خان يحثُّهُ فيها على قتال هولاكو، ويقيم الدَّليل على أنَّهُ يجب عليه قتال التّتار كونه أصبح من أهل المِلَّة، إذْ يقول: ((وليس الإسلام قولاً باللِّــسان، والجهاد أحد ما لهُ من الأركان، وقد توالت الأخبار بأنَّ هلاون لأجل زوجته، وكونها نصرانيّة، أقام دين الصليب، وقدَّم مراعاة دين زوجته على دينك))[2].

لقد قام سلاطين المماليك بدورٍ فعَّالٍ، جدَّدوا فيه الدَّعوة إلى الجهاد المقدَّس، في وقتٍ كان العالم الإسلاميّ يمرُّ فيه بمرحلةٍ خطيرةٍ بعد أن تكالب عليه الأعــداء مــن الشَّرق والغرب، وشجَّعوا المسلمين على الدِّفاع عن ممتلكاتهم ومقدَّساتهم، مؤكِّدين أنَّ الجهاد فرضٌ مقدَّم على كلِّ عمل، وأنَّهُ واجبٌ لا فسحة فيه، ولعلَّ ما يؤيِّد ذلــك مــا حدث سنة 667هــ عندما كتب الظَّاهر بيبرس إلى صاحب اليمن كتاباً ينكــر عليــه أموراً يقول فيه: ((الملك هو الذي يجاهد في الله حقِّ جهاده، ويبذل نفسه في الذَّب عن حوزة الدِّين، فإنْ كنت ملكاً، فاخرج التقِ التَّتار))[3].

ويشير ابن شدّاد إلى بسالة السُّلطان الظَّاهر بيبرس، ومشاركته الفعَّالــة فــي القتال، وثقته الأكيدة بنصر الله، التي أدَّت بدورها إلى تشجيع الجنود المسلمين علــى بذلِ النَّفس في قتال التَّتار، إذْ يقول: ((لمَّا عَلِمَ أنَّ الجهاد من قواعد الإسلام الخمــس، وأنَّ الظَّفر بالأعداء لا يُنال إلاّ بشقِّ النفس، وأنَّ الله تعالى فرض الجهاد على عبــاده، وأجزل الأجر لمن بذل فيه غاية جهده واجتهاده، ...، بذل نفسه النفيسة فــي مــواطن

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص429.

(2) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص88-89، 170-171.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص581-582.

القتال، وسبق الأقران إلى النزال، وصبرت عارفة لذلك نفس حرّة، وأثبت في مستنقع الموت رجله متيقِّناً من الله النُّصرة ...))[1].

وقد كان للأُدباء والعُلماء دورٌ بارزٌ في حثِّ سلاطينهم على الجهاد للذَّودِ عن حمى الإسلام والمسلمين، فنجد الكاتب فخر الدِّين بن لقمان يحثُّ السُّلطان الظَّاهر بيبرس على الجهاد، بتذكيره بتلك الفريضة، وبيان فضل الجهاد، وأجر المجاهد، ويعمل على تعبئتهِ نفسيّاً من خلال استذكار المعارك العظيمة التي خاضها السُّلطان والتي انطوت عن عزائمٍ قويَّةٍ يتمتَّع بها، إذ يقول: ((وممَّا يجب ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأُمَّة فرضاً، وهو العمل الذي يرجع به مسوّد الصحائف مبيضّاً، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعدَّ لهم عنده المقام الكريم، وخصَّهم بالجنَّة التي لا لغو فيها ولا تأثيم، وقد تقدَّمت لك في الجهاد يدٌ بيضاء أسرعت في سواد الحُسَّاد وعُرفت منك عزمة هي أمضى ممّا تجنه ضمائر الأغماد، وأشهى إلى القلوب من الأعياد))[2].

ويذكِّر القاضي شمس الدِّين إبراهيم بن القيسراني الملك النَّاصر محمّد بن قلاوون بمسيرة أبيه وأخيه الجهاديّة، ويطلب منه أن يسير على نهجهما آخذاً العبرة والعظة من مسيرة كفاحهما، حيث يقول له: ((... وقد عرفت سنن السلطانيين الشهيدين والدك وأخيك – قدّس اللهُ روحهما – في الاعتناء بجهاد الكفَّار، وغزوهم في عقر الدّار، وموقف أحدهما في موطن زلَّت فيه الأقدام عن الإقدام، واجتمع فيه الكفر على الإسلام ...))[3].

كما نجد القاضي علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر يحثُّ المظفَّر ركن الدِّين بيبرس المنصوريّ على الجهاد، ويطلب منه أن يجهِّز الجنود بكلِّ ما من شأنه أن يدحر كتائب العدو، إذْ يقول: ((وأهمّ ما احتفلت به العزائم، واشتملت عليه همم الملوك العظائم، وأُشرعت له الأسنة، وأُرهفت من أجله الصَّوارم، أمر الجهاد الذي جعله الله تعالى حصناً للإسلام وجُنة، واشترى فيه أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة، فجنَّد له

---

(1) ابن شدَّاد: تاريخ الملك الظَّاهر، ص317.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص456.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 67/10.

منها، حتّى وإن تعرَّضوا لهزيمة في الخزندار عام 699هـ، حيث يقول: ((... ما قصدهم المسلمون قطُّ إلاَّ نُصروا كنوبة عين جالوت، والفرات، والرُّوم...))[1].

وينهي ابن تيميّة رسالته بتعداد فوائد الحركة في سبيل الله، ففيها تحقيق الطمأنينة لأهل البلاد حتّى يعمّروا ويزرعوا، ومنها أنَّ البلاد التي احتلَّها المغول فيها خيرات من حقِّ المسلمين، ومنها تثبيت المسلمين في بلاد المغول على إسلامهم، وإشعارهم بقوة الإسلام وحميّة المسلمين، وإلاَّ ارتدَّ بعضهم، ومنها استعادة ما في البلاد التي احتلّها المغول من أموال السُّلطان، ثمَّ قال: ((فإذا كانت عامةّ القلوب هناك وهنا مع هذا العسكر المنصور، وقد أقامه الله سبحانه وأيَّده، ...، وقلوب العدو في غاية الرُّعب منه ...، فمن نعمه على المسلمين أن ييسر غزاة ينصرُ الله بها دينه هنا وهناك، وما ذلك على الله بعزيز))[2].

ونجدُ الخطيب ابن منير الإسكندريّ يحثُّ النَّاس على القتال في سبيلِ الله، ويدعوهم إلى الوحدة فيما بينهم، وإلى الاعتبار وإصلاح الأُمور، باثّاً روحاً حماسيَّة عالية في نفوسهم، إذْ يقول: ((... فالله الله الاعتبار، الاعتبار، فأنتم السُّعداء إذا وعظتم بالاعتبار، أصلحوا ما فسد فإنَّ الفساد يقدمه الدَّمار، واسلكوا الجدد، تنجوا في الدُّنيا من العار، وفي الآخرة من النَّار، اتّقوا الله وأصلحوا تفلحوا وسلموا تسلموا، وعلى التوبة صمّموا واعزموا ...))[3].

ويذكر ابن حبيب الجهاد وفضائله، إذْ يقول: ((إنَّ الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد، ونقمته القائمة على أهل الشِّرك والعناد، وهو من الفروض الواجبة، التي لمْ تزل سهام أصحابه صائبة، فواظبوا على فعلِه، ولا تذهبوا عن مذاهبهِ وسبلهِ، واطلبوا أعداء الله برّاً وبحراً، وقسِّموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً، وفاجئوهم بمكروب الحرب، وناجوهم برسائل الطعن والضَّرب، وخذوا من الكفَّار باليمين، وجدوا في تحصيل الرِّبح الثمين))[4].

---

(1) المصدر السابق، ص17.

(2) المصدر نفسه، ص18-20.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزَّمان، 209/4.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 254/8.

ويعقد ابن حبيب مقابلةً بين جيش المسلمين وأعدائهم ويحرّضهم على قتـــالهم، حيث يصوّر الأعداء بالضّعف، والاعتماد على ما بأيديهم من الأسلحة، على خـــلافِ المسلمين الذين يمتازون بالقوّة والشجاعة ورباطة الجأش، ويقينهم التّام بنصر الله لهم، حيث يقول: ((... وأطفئوا جمرة الشرذمة الغائظة للإسلام، ولا تخشوا مـــن جمعهـــم الآيل إلى التفريق، وحشدهم الذي هو عمّا قليل – إن شاء الله تعـــالى – غريـــق، ولا تعبأوا بسفنهم الحربيّة، فإنّ سفنكم الخيول المخلوقة من الرّيـــاح، ولا تنظـــروا إلـــى مجاديفكم الخشبيّة، فإنّ مجاديفكم السّيوف والرّماح، فاقلعوا قلوعهم، وشتّتوا جموعهم، واذهبوا الجنف[1] والحيف، وخاطبوهم بألسنة السّيف))[2].

ولم يكتفِ الكتّاب بحثّ السّلاطين والملوك على الجهاد فحسب، بـــل تجـــدهم يحثّون الأُمراء ونوّاب الثُّغور أيضاً، فيعملون على شحذ عزائمهم، وإثـــارة هممهـــم، يقول شهاب الدّين الحلبيّ إلى بعض نوّاب الثُّغور: ((أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظّفـــر والتأييـــد اقربـــي، والعزائم قد ركضت على سوابق الرّكض إلى العِدا، والهمم قد نهـــضت إلـــى عـــدو الإسلام، فلو كان في مطلع الشّمس لاستقربت ما بينها وبينه على المدى، والسّيوف قد أنِفَت من الغمود فكادت تنفر من قُرُبها، والأسنّة قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوّقت إلى الارتواء من قلبِها، والكماة قد زأرت كالليوث إذا دنت فرائسها، والجياد قد مرحت لما عودتها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسها))[3].

ونجد المقرّ الشهابيّ بن فضل الله يحثُّ نوّاب الثُّغور بالـــذبّ عـــن ثغـــورهم، ومدنهم، إذْ يقول: ((... وليأخذ للجهاد أهبته، ويعجّل إليه هبَّته، وليقف من وراء البلاد الشاميَّة المحروسة دريئة لأسوارها المنيعة، ونطاقاً على معاقلها الرفيعة ...))[4].

ولم تختلف حقيقةُ صورة الصليبيين في النثر العربي كثيراً عن صورة المغول. فقد عدّهم الكتّاب عدوّاً استعمارياً غازياً، قَدِمَ تحت شعار الصليب للقضاء على الإسلام

---

(1) الجنف: الميل إلى الجور.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 254/8.

(3) المصدر نفسه، 253/8.

(4) المصدر نفسه، 134/12.

والمسلمين، واحتلال بلادهم في مصر والشّام، فقد نشر الخراب والدّمار وسفك الدّماء، وهتك الأعراض، ونهب وسلب في بلاد المسلمين، وارتكب المجازر فيها[1].

وقد عمل الفرنج على تغيير معالم بلاد المسلمين سياسيّاً، واقتصاديّاً، وحضاريّاً، وفكريّاً، ودينيّاً، فقد صوّرهم الكتّاب بأنّهم أهل كفر وشرك، ورجس، وآثام؛ لذلك دعوا إلى تطهير البلاد الإسلاميّة والمقدّسات من رجسهم[2].

(1) انظر عبد المهدي، عبد الجليل: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، دار البشير – عمّان، 1989، ص132-133.

(2) المرجع نفسه، ص139.

الفصل الرابع

صورة المغول بعد الهزيمة

1.4 وصف المعركة

سجّل النثر العربيّ في العصر المملوكيّ ما دار من معارك انتصر فيها المسلمون على المغول، وأشاد بمن شاركوا في هذه المعارك، وكان لهم يدٌ في الظّفر والانتصار، كما عمل على وصف القتال الذي دار بينهما، ووصف آليته وقوّته ونتيجة المعركة، والنَّصر الذي حقَّقه المسلمون، كما تغنَّى بمجدِ الإسلام، واستبشر بتحقيق الآمال، وإنقاذ البلاد. ولعلَّ أكبر المعارك التي نالت أكبر قدرٍ من اهتمام الكتَّاب هي: معارك عين جالوت، والفرات، وفتح قيساريّة الرُّوم، وواقعة حمص، وفتح قلعة الرُّوم، وواقعة الخزندار، وواقعة شقجب.

فقد أنشأ الكاتب محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر كتاب بشرى أرسله قطز إلى ملك اليمن يبشِّره بنصر المسلمين في وقعة عين جالوت، فنجد ابن عبد الظَّاهر يصوِّر فيه تصافّ الفريقين قبل المواجهة في المعركة، وانتقال خبر كلِّ فريقٍ إلى الآخر حتّى حلَّ الظَّلام، وفي سياق ذلك تحدَّث عن الرهبة التي كانت تملأ نفوس الجنود من غدر التَّتار وظهورهم فجأة، فناموا وهم أيقاظ، وظلُّوا على حالهم حتّى ظهور عدوّهم. إذ يقول: ((ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفَّار، وأخبار الكفَّار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصّباح فضتّه بذهب الأصيل، وصار اليوم كالأمس، ونُسخت آية الليل بسورة الشَّمس، واكتحلت الأعين بمرود السبات، وخاف كلٌّ من المسلمين إصدار البيات ... إلى أن تراءت العين بالعين))(1).

وبعد ذلك وصف محيي الدِّين المعركة، وما حلَّ بالمغول من قتلٍ وأسر، وشجاعة المسلمين في مواجهتهم، ففلُّوا حدّهم، وفرَّقوا جمعهم، ولاحقوهم فلا مكانٍ إلاَّ به منهم قتيل، ودارت الدائرة عليهم حتّى كأن ما حولهم أصبح سلاحاً تصيبيهم جراحه، فلم يبقَ منهم أحد. قال: ((... واضطرم نار الحرب بين الفريقين، فلم ترَ إلاَّ ضرباً يجعل البرقَ نضوْا، ويترك في بطن كلِّ من المشركين شلْوا، حتّى صارت المفاوز

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 387/7.

دلاصاً، ومراتعُ الظّبا للظُّبا عِراصاً، واقتنصت آساد المسلمين المــشركين اقتناصــاً، ورأى المجرمون النّارَ فظنُّوا أنَّهم مواقِعُوها ولم يجدوا عنها مَناصاً، فلا روضــة إلاَّ درعٌ، ولا جدول إلاَّ حسام، ولا غمامة إلاَّ نقعٌ ولا وبل إلاَّ سهامٌ، ولا مُدام إلاَّ دمــاءٌ ولا نغمَ إلاَّ صهيلٌ، ولا مُعربِدَ إلاّ قاتلٌ ولا سكران إلاّ قتيلٌ، حتَّى صار كافور الــدِّين شقيقاً، وتلَوُّنُ الحصباء من الدِّماء عقيقاً، وضربَ النقعُ في السماء طريقاً، وازدحمــتْ الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقاً، وقُتل من المشركين كلُّ جبَّار عنيد، ذلك بما قدّمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]))[2].

ولمَّا حمل الرَّاية بيبرس بعد قطز، أبلى البلاء الحسن في قتــال التَّتــار، وقــد واكب النثر الانتصارات التي حقَّقها، فقام بتمجيد بطولته، وتسجيل فروسيته، ولعلَّ من أعظم هذه المعارك وأعجبها تلك التي كان فيها التّتار على شاطئ الفرات، فلكي يهاجم بيبرس العدو، ويقضي عليه، خاض الفرات على رأس جيشه، وعبر إلى التَّتار، وأُبيدَ منهم عددٌ عظيم، ولم ينجُ سوى القليل، وكان ذلك سنة 671هــ، وقد أُعجب الكتّــاب بهذا اللَّون من الإقدام، وأشادوا به في كتاباتهم، وأكثروا من الحديث عنه في إعجاب، فنجد محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر يصف تلك المعركة بقوله: ((وكانَ العدوُّ قد عملــوا سيباً على البرِّ من جانبهم ليعوق من يطلع إليهم، وليقاتلوا مــن ورائهــا، وترجَّلــوا، وصاروا يقاتلون بالنشَّاب، فرمت العساكر الإسلاميّة نفوسها في الفــرات بخيــولهم، وساقوا فيه أطلاباً عوماً، الفارس إلى جانب الفرس، متماسكين بالأعنَّة، معتمدين على العوامل قد جعلوها مجاديف لسفائن الصواهل، ....

فعمنا إلــيهم بالحديــدِ ســباحةً　　　　ومن عجبٍ أنَّ الحديدَ يعومُ..))[3]

ومن المألوف أن تُقطعَ الأنهارُ بالسُّفن، لا أن تُخاضَ على صهوات الخيــول، وكأنَّما عزَّ على الظَّاهر بيبرس أن يُضيّعَ وقتاً، لا يدركه فيه، ولا يشفى ما يــضطرم في نفسِه من غلٍّ لهم، فدفعه الشَّوق إلى لقائهم إلى أن يخوض هو وجيشه لجّة المــاء؛

---

(1) سورة فصلت: آية (46).

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 388/7.

(3) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص406.

فكان النصرُ حليفهم، إذ يقول: ((وازدحم النَّاسُ، وانكسر الماء بهم فصار كالجبال إنافةً وارتفاعاً، وصادفهم الموج حتّى كاد مع قعقعة السّلاح يصمّ منهم أسماعاً. هذا والتَّتار قد وعَّروا المصعد والمرقى، وأسعروا من وميض السُّيوف ناراً جُنّبها من المسلمين الأتقى وصليها منهم الأشقى، وقد جعلوا السيبا لهم بمثابة السُّور تمنع منهم ولا تمنعهم النكاية، وتصدُّ عنهم المهاجمة، ولا تصدّهم عن الجناية، فبحمد الله ما علم المسلمين* هل عامت الخيل بهم أم سارت، أو اقتحمت أو طارت، وطحنوا السيبا، وملكوا البرّ والبحر، وطلعت السناجق تشير بألسنة بنودها للنَّاس أن هلموا إلى النَّصر ... وتفرّقت العساكر يميناً وشمالاً لبذل السَّيف، وإهلاك العدو المخذول، وسُلَّ للسيوف كفٌّ، وامتدَّت للأعنّة فما عاقها إلاَّ عثر الخيل برؤوس الأبطال، وأحضرت الأسارى عن ذات اليمين وذات الشمال))(1).

وقد أنشأ محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في وصف غزوة قام بها السُّلطان الظَّاهر لفتح قيساريّة رسالة تناول فيها وصف تحرُكات السُّلطان بين قادة جيشه وقطاعاته العسكريّة، وتنقّله بين الوهاد والجبال أيّاماً وليالي حتّى أدرك العدو، وأغرى به وألحق به شرَّ هزيمة، وممّا يزيد الوصف دقّة وموضوعيّة مشاهدة الكاتب الأحداث عياناً، فقد بدأ الكاتب الرسالة بوصفه لحركة السُّلطان وجيوشه التي تسابق السَّحاب، وتجاري الرِّياح، حيث لا يلوون على شيء، ولا همَّ لهم إلاَّ الظَّفر على عدوّهم ((وسرنا لا يستقرّ بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار، ولا نمرُّ على مدينة إلاَّ مرور الرِّياح على الخمائل في الأصائل والإبكار، ولا نقيم إلاَّ بمقدار ما يتزيَّد الزَّائر من الأهبة أو يتزوّد الطائر من النغبة، نسبق وفد الريح من حيث ننتحي، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتحي، تحمل همَّنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول اللِّحاق))(2).

ويشير ابن عبد الظَّاهر إلى مسير الجيوش الإسلاميّة نحو الفتح، ورحيلهم من المدينة، وصعوبات الطريق التي تعرَّضوا لها، والظُّروف القاسية التي مرّوا بها، إذ

---

* وردت هكذا في النص، والصَّواب المسلمون.

(1) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص406-407.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 140/14.

يقول: ((... ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود، قد حققوا كلَّ شيءٍ حتّى البنود والعمود، فسرنا في جبالٍ نشتهي بها سلوك الأرض وأودية تهلك الأشواط فيها، إذا ملئت الفروج من الرّكض، نزور دياراً ما نُحبُّ مغناها، ولا نعرفُ أقصاها من أدناها، ...، ومررنا على مدينة دَلُوكَ ...، وذلك في ليلةٍ ذات أنديةٍ وإن لم تكن من جُمادى، ظلُماتها مُدْلهمَّة، وطُرُقاتُها قد أصبح أمرها علينا غُمَّة، لا يثبت تُرْبُها تحت قدم المَارّ، وكأنَّما سالِكُها يمشي على شَفَا جُرُف هار، فبتنا هُنالك ليلةً نَستَحقِر بالنِّسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع، وتتمنَّى العينُ بها هجعة هجوع، وأخذنا في اختراق غابات أشجارٍ تُخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كلُّ غُصنٍ يُرسله المتقدِّمُ إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوةٍ من منجنيقه، حولها معاثرُ أحجار كأنَّها قبورٌ بُعثرت، أو جبالٌ تفطَّرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنَّها بحارٌ فُجِّرت، ما خرجنا منها إلاَّ إلى جبالٍ قد تمنطقت بالجداول وتعمَّمت بالثُّلوج، وعُمِّيت مسالِكُها فلا أحدٌ إلاَّ وهو قائلٌ: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1] أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكمام على السَّاعد، ذاتُ أوعارٍ زلقة، وصدور شرِقة، وأودية بالمزدحمين مختنقة، بينما يقول مُنتحيها: قد نِلتُ السَّماء بُسلَّمٍ من هذه الشَّواهق ...))[2].

وشرع ابن عبد الظَّاهر يبيّن ملامح الصُّورة الحقيقيّة للمعركة حيث ((انصبَّت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السَّيل، وبطلت منهم وُنفي الحَيْل، فشمَّروا عن السَّواعد، ووقفوا وقفة رجلٍ واحد، وهؤلاء المُغل كان طاغية التَّتار آبغا – أهلكه الله– قد اختارهم من كلِّ ألفٍ مائة، ومن كلِّ مائةٍ عشرة، ومن كلِّ عشرة واحداً لأجل هذا اليوم، ... فعندما شاهدوا نجد الملائكة، وتحقَّقوا أنَّ نفوسهم هالكة، أخلدت فرقةٌ منهم إلى الأرض فقاتلت، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت، وباعت نفوس المسلمين لهم وتاجرت، وكسرت وما كاسرت، وجاء الموت للعدوِّ من كلِّ مكان))[3].

---

(1) سورة غافر: آية (11).

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/159-161.

(3) المصدر نفسه، 14/164-165.

وشدَّ التتّار القتال على المسلمين، وضيّقوا عليهم المجال في المعركة: ((... واشتدَّت فرقةٌ من العدوِّ من جهة الميسرة معرِّجين على السناجق الشريفة من خلفها، مُنقلبين بصفوفهم على صفِّها:

فَلَزَّهم الطِّرَادُ إلى قِتالٍ أحَدُ سِلاحِهم فيه الفِرارُ!

فثاب مولانا إليهم، ووثب عليهم، فضحّى كلُّ منهم بكلِّ أشمط وأفرى الأجساد فأفرط، ولحق مولانا السُّلطان منهم من قصد التَّحصين بالجبال فأخذهم الأخذة الرَّابية، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[1]))[2].

وقاتل المسلمون في تلك المعركة بقوة وبسالة: ((وقصدت ميمنةَ عسكرِنا جماعةٌ من المغلِ ذوي بأسٍ شديد، فقاتلهم المسلمون حتّى ضجرَ الحديدُ من الحديدِ...))[3].

وفي سنة 680هـ، انتصر المسلمون على المغول في واقعة حمص، فنجد محيي الدِّين بن عبد الظّاهر يربطِ هذا النَّصر بنصر المسلمين في وقعة بدر، تلك المعركة التي كان نقطة انطلاق قوية للدعوة الإسلاميّة، فأراد الكاتب من خلال الرَّبط أن يُعلي من شأن الانتصار ويُمجِّده، إذْ يقول: ((... وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتيّاً، وكوكب سعده مضيّاً، ويوم نصره بدريّاً ...))[4].

ويشير ابن عبد الظّاهر أنَّ المسلمين بانتصارهم في هذه المعركة قد أخذوا بثأرهم القديم، وكسوا الإسلام ثوب العزِّ والشَّرف، لذا يجب أن يُدوَّن في الكتب، وتوزَّع صحف التهاني حتّى تعمَّ الفرحة والبشرى جميع أرجاء الدَّولة الإسلاميّة، حيث يقول: ((... هذه الملاحم التي ولد بها الإسلام جديداً، ولتقرب للسمع الشريف من هذه الوقايع بعيداً، وقد علم الله والمسلمون أنَّ العيان في هذه الواقعة ليس كالخبر، ولعمر الله أنَّ هذه النصرة ذكرى للبشر؛ لأنَّهُ كفت الملَّة الإسلاميّة عظيماً، وأخذ الله بها

---

(1) سورة الحاقة: آية (8).

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/165-166.

(3) المصدر نفسه، 14/166.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص223.

للأئمة والأمَّة ثأراً قديماً، ومولانا أحقُّ بأن يُسرُّ بها سراء كل منير، ويتقدّم بتعبيرهـا، فإنَّها أشرف ما يُحبَّر وأجلُّ ما به يُخبر ...))[1].

ويؤكِّد بيبرس المنصوريّ شدّة المعركة وقوَّتها، ففي بادئ الأمر ثبتت ميمنة المسلمين أمام العدو، ثمّ تجمّعت وكسرت ميسرة الكفّار، إذ يصفها قائلاً: ((...، والتقى الجمعان بوطأة حمص قريباً من مشهد خالد بن الوليد ...، فصدمت ميسرةُ العدوِ الميمنةَ الإسلاميّةَ، فثبتت لصدمتهم وصبرت لحملتهم، فتكردسوا عليها، وضيَّقوا المجال لديها، وزاحموا القلبَ، فلم ينالوا منه قصداً، ووجدوه قوياً مستعدَّاً، فجعلوا كلّهم على الميسرة، فولَّت منكسرة، وتبعوها حتّى أفضوا إلى الخيام، ووقعوا في السوقة والأغوام، فأهلكوا منهم عدداً، وغادروا منهم بددا ...))[2].

توجَّه السُّلطان الأشرف إلى قلعة الرُّوم سنة 691هـ، فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وقد حاول أهل القلعة وسكَّانها، ولا سيَّما التَّتار أن يذبّوا عنها، ولكن دون جدوى، فكان فتح قلعة الرُّوم ودحر المشركين وحلفائهم كالتَّتار والأرمن وغيرهم، وهو نصر الانتصارات، أعزَّ الإسلامَ وأذلَّ الكفرَ، ورايات النَّصر تخفق بالرِّماح والسِّهام، وتطير عالية لتبشِّر كافة الأرجاء بهذا النبأ العظيم، كما يقول شرف الدِّين القدسيّ في كتاب تهنئة بهذا الفتح: ((... والنَّصر قد خفقت بنوده، وصدقت وعوده وسار بمخلقات البشاير في كلِّ قطر بريده، والأعلام الشريفة السلطانيّة قد امتطت من قلعة الرُّوم صهوة لم تذل لراكب، وخلت من قبّتها وقلّتها بين الذروة والغارب، وأراقت أسنّتها من دمايهم ما ترك الفرات لا يحل لشارب ومدَّ الإيمان بها أطنابه وأعجلت السُّيوف المنصورة الشرك أن يضم للرحلة أثوابه واستقرَّت بها قدمُ الإسلام باقية إلى الأبد ...))[3].

وفي سنة 699هـ، هُزِمَ المسلمون شرَّ هزيمة في واقعة الخزندار، التي دارت بين المسلمين والتَّتار، فنجد الدواداري يصف سير المعركة بين الطرفين، والتحام القتال والضَّرب بينهما، إذ يقول: ((فلمَّا كان نهار الأربعاء تاسع وعشرين ربيع الأول

---

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص225.

(2) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص100.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م8/ ص139.

التقى الجيشان، والتحم الضَّرب والطعان، وذلك أنَّ المسلمين ركبوا بعد صلاة الصُّبح من ذلك اليوم بالحدِّ والحديد والجدِّ الأكيد، ركضاً بالمقرعة والمهماز، وعـاد الأمـر حقيقة لا مجاز ...))[1].

لقد قاتل المسلمون قتالاً قويَّاً في تلك المعركة، وكانت لـديهم النيَّـة الأكيـدة لتحقيق النَّصر، لكن ((حصل للمسلمين حصر وأيّما حصر))[2]، عبَّر صاحب التحفـة الملوكيّة عن ذلك بقوله: ((فلما التقى الجمعان، واصطدم الجيـشان حملـت الميـسرة المنصورة على ميمنة التَّتار فكشفتها، ولولا قليل لهزمتها، وتكردست ميمنـتهم علـى القلب، فتضايق مجال الحرب ...))[3].

لقد ضيَّق التَّتار الحرب على المسلمين بالضَّرب والطّعن والعنـف، وحوَّلـوا نصرَ المسلمين في بادئ الأمر إلى نصر لهم وهزيمة للمسلمين، إذ يقول المنصوريّ: ((...، ولم يتمكَّن الجيش هنالك من الطّعن والضّرب، فإنَّ التَّتار من قدامهم ازدحموا، والغلمان من ورائهم التحموا، وجاءهم نوابل السِّهام كوابـل الغمـام، فثنـوا الأعنَّـة وطرحوا الأسنَّة، ولفظوا كلَّ درعٍ وجُنَّة ...))[4].

وكان أعظم الانتصارات التي حقّقها المسلمون في حربهم مع المغول ما تمَّ لهم في مرج الصُّفر سنة 702هـ، حيث استهلَّ علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر كتابه بالتحميد والشُّكر لله – سبحانه وتعالى – على النَّصر الذي منَّهُ ومنحهُ للأمَّة الإسلاميّة، ووهب الأمّة أبطالاً أشاوس يذودون عن حِمى الإسلام، إذْ يقول: ((الحمد لله الذي أيَّدَ الـدِّين المحمديّ بناصرهِ، وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهـاد فـي أول الزَّمان وآخره، وجعل من الذريّة المنصوريّة من يجاهد في الله حقّ جهاده، ويـسهر في سبيل الله فمنع طرف السَّيف أن يغضَّ في أغماده ...))[5].

---

(1) الدواداري: كنز الدُّرر، ص16.

(2) المصدر نفسه، ص17.

(3) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص157.

(4) المصدر نفسه، ص157.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1027.

ويشير ابن عبد الظَّاهر إلى سير المعركة، فقد كانت معركة حامية الوطيس التقى فيها الفريقان بقوّة وبأسٍ شديد، إذ يقول: ((والتقى الفريقان بعزائم لم يبئسها في الحرب نكول ولا تقصير ....، وحمي الوطيس، وحمل في يوم السبت الخميس على الخميس، ودارت رحا الحرب الزبون، وغنت السُّيوف بشرب الكماة كأس المنون ...))[1].

وقد حالت قوة المسلمين دون أن يدحر التَّتار ميمنتهم عندما تكالبوا عليها، إذ يقول علاء الدِّين: ((وقامت الحرب على ساق، والتفت السّاق بالسَّاق ....، وأتى العدوُّ جملةً واحدة، وحمل حملةً أمست بالنُّفوس جابدة، ونكب على الميسرة وقصد الميمنة والقلب، وهاله جمع الإسلام، ... واستمرّت المناضلة تمتدّ بين الفريقين وتنتشر ...))[2].

وحقّق المسلمون النَّصر في تلك المعركة، وخابت آمال التَّتار وظنونهم، وتألّق الإسلام في هذا اليوم، وازدادت قوّته ومنعته، إذ يقول القاضي علاء الدِّين: ((... ودخلت ليلة الأحد وهم في حصدهم، وقد أوقعهم الله في حبائل مكرهم، وأراهم من الحصر والضِّيق ما لا رأوه مدَّة عمرهم ....، وأصبح الإسلام يوم الأحد في قوَّته المنيعة، وأرواح العِدا في أجسادهم وديعة ...))[3].

وقد عظَّمَ الكتَّاب هذا النَّصر، وذكروا فضل الله – عزَّ وجلَّ – وقدرته على ذلِّ وهوان المغول، كما ذكروا انتشار البشرى في الآفاق والفرحة التي عمَّت جميع البقاع الإسلاميّة، إذ يقول بهاء الدِّين أبي الحسن علي بن سوادة الحلبيّ[4]: ((وأذن الله تعالى بالنَّصر والاقتدار، ومنَّ على المسلمين بشفاءِ الصُّدور والأخذ بالثأر، وانتشرت البُشرى في الآفاق، وارتفع لها في الأكوان رواق، وأيُّ رواق وملأت الوجود سُروراً وأفراحاً، وطلعت في نهار النَّصر شمساً، وفي ليل الدُجى مصباحاً،

---

(1) المصدر السابق، ج1، ق3، ص1031.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1031–1032.

(3) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1032.

(4) هو علي بن علي بن محمّد بن أبي سوادة، بهاء الدِّين، كاتب السرّ بحلب، توفي سنة 724هـ. ابن حجر: الدرر الكامنة، 159/35.

وانشرحت الصُّدور بحصول المقصود، وتلا لسان التعجُّب، ذلك يوم مجموع له النَّاس وذلك يومٌ مشهود...))[1].

2.4 صورة عامة لهزائم المغول

صوَّر النثر العربيّ الهزائم التي ألحقها المسلمون بالجيوش المغوليّة الغازية لبلاد الإسلام، والعناصر غير المغوليّة المشاركة فيه، وكان هذا الميدان مجالاً للكتَّاب ليظهروا تشفِّيهم بأفراد ذلك الجيش، وتنوَّعت المناظر والصَّور التي رسمها الكتَّاب لتلك الهزائم ما بين فرار من ساحة المعركة، وقتل وأسر، وغنائم، وأطالوا في الحديث عن ذلك، وكأنَّهم كانوا يجدون فيه شفاءً للنُّفوس الموتورةِ والقلوب المتأجِّجةِ.

ويرسمُ النثرُ العربيّ صورةً لقتلى المغول الذين تناثرت أشلاؤهم في أرض المعركة، وأصبحت الخيل تلعب برؤوسهم المقطوعة، حيث يصوِّر محيي الدِّين فلولهم والمسلمون يتِّبعونها قتلاً وأسراً في معركة قيساريّة الرُّوم ((وأصبح الأعداء لا تُرى إلاَّ أشلاؤهم، ولا تُبصر إلاَّ أعياؤهم كأنَّما جزر أجسادهم جزائر يتخلَّلها من الدِّماء السَّيل، وكأنَّما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكرٌ تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل ...))[2].

لقد وقع المغول في الذلِّ والهوان حتّى ندبهم البوم، والرِّياح تتخطَّف أجسادهم، والوحوش تتصرَّف في أشلائهم حيث يقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر[3]: ((... وفي هذا النهار عَبَر مولانا السُّلطان – نصره الله – على مكان المعركة لمشاهدة أُمم التَّتار، وكيف تعاقب عليهم من العِقبان كواسرها، وكفَّ بأسهم من النُّسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلاَّ البوم، وتحقّقوا أنَّ التي أهلكتهم زرق الأسنَّة لا زرق الرُّوم، فرآهم لمن بقي عبرة، وعُرضوا على ربِّهم صفّاً، وجاؤوه كما خُلقوا أوّل مرّة، وأبصر الرِّياح لأشلائهم متخطِّفة، والهوام في أجسادهم متصرِّفة، وشاهدهم وقد هذأهم كلُّ شيء حتّى الوحوش والرِّياح. فهذه من صديدهم متكرِّعة وهذه عليهم متقصَّفة:

---

(1) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 249/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 148/14-149.

(3) المصدر نفسه، 184/14.

قد سَوَّدَت شَجَرَ الجِبَالِ شُعُورُهُم   فكـأَنَّ فيـهِ مُسِفَّةَ الغِربَـانِ[1]

لقد كانت الصحراءُ الواسعة مزرعةً لأجسامهم يرتعُ الدُّود بها، إذْ يقول ابن عبد الظَّاهر: ((فتركهم مولانا السُّلطان ومضى والفلواتُ مزرعةٌ لجسومهم، والدُّود – لأنَّها مؤمنةٌ وهم كفّار – وقد أثَّرت كالنواسر في لُحُومِهم))[2].

يقول محمود شهاب الدِّين: ((...، ومزّقت مواكب أعداء الله التَّتار وهم في رأي العين أعداد الكواكب، وخلطت الترب بدمائهم حتّى لم يَبُح بها التيمم ومزجت بها الفرات حتّى ما يحلُّ لشارب ...))[3].

وبعد الهزيمة الساحقة التي نزلت بالمغول في معركة قيساريّة الرُّوم، وكثرة قتلاهم فيها، راح السُّلطان يطلب من أهل التُّقى أن تحصي عدد القتلى المغول، ولكنْ لكثرتهم يضيع الحسابُ والعدُّ، إذْ يقول: ((ولمّا عاينهم مولانا السُّلطان وعاينهم النّاس، أكثروا شكر الله على هذه النِعَم التي أمست لكافّة الكفر كافّةً وشـالّةً ودارزة، وأثنوا على مِننه التي سَنَّت إليهم خيار العساكر المنصورة حتّى أصبحت تلك الأرض بهم بارزة، وحضرت ... جماعةٌ من أهل التُّقى والدِّين، واستخبرهم مولانا السُّلطان عن عِدَّة قتلى المغل فقالوا: ﴿فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾[4]، فاستفهم من كبيرهم عن عِدّة المُغل كم من قتيل، فقال: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [5]، وقال بعضهم ممّن عـدَّهم وممَّن عنده علمٌ من الكتاب: أنا عددتُ ستَّة آلاف وسبعمائةٍ وسبعين نفراً وضاع الحساب؛ هذا غير من آوى إلى جبلٍ يعصمهُ من ماء السُّيوف فما عصمه، وغيرُ من اعتقد أنّ فرسه تُسَلِّمُه فأسلمه))[6].

---

(1) المتنبي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين (ت354هـ): العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار القلم – بيروت، ط2، ص443.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 185/14.

(3) الحلبي: حسن التوسُّل، ص336.

(4) سورة المؤمنون: آية (113).

(5) سورة الكهف: آية (23).

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 184/14-185.

كما صوَّر ابن عبد الظَّاهر ما غنمه الجيش المسلم من المغول في رسالته بقوله: ((وأمَّا العدو، فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوفٍ وقسيّ وكنائن، وما يلبسونه من خوذٍ ودروع وجواشن، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن))[1].

وفي معركة البيرة سنة 671هـ دفع الخوفُ المغولَ إلى الفرار من أرض المعركة، وإغراق مراكبهم، فعبَّر عن ذلك محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر بقوله: ((وأنَّ التَّتار عندما شاهدوهم ورأوا عزائمهم الماضية، هربوا ورموا مجانيقهم، وغرّقوا مراكبهم، وانهزموا لا يلوي أحدٌ على أحد، ولا يقف والدٌ لولد))[2].

ويشير محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى ذلّهم وخذلانهم في واقعة حمص سنة 680هـ، حيث جمعوا الفرسان الشجعان في هذه المعركة ولكن ثقتهم الأكيدة صارت عليهم وبالاً وهزيمةً نكراء، وآلت جميع طموحاتهم إلى فشلٍ أكيد، إذْ يقول: ((وذلك بأنَّ التَّتار المخذولين جمعوا كلَّ من اعتقدوا في ظنِّهم أنَّه يهزم الجمع بمفرده، وانتخبوا كلَّ شجاع لا يألف غير ظهور الجياد من يوم مولده، واحتفلوا احتفالاً استصحبوا فيه ما صانوا وسمحوا بأعزة أكابرهم ومقدّمي التمانات الذي ما سُمع قطُّ أنَّهم في معركةٍ هابوا ولا هانوا، ... ورأوا أنَّ الموت خيرٌ لهم من الهزائم، فلم يفلت منهم إلاَّ من استمهل السَّيف ساعة من نهار يوفر بعضهم والموت يقول لهم قل لن ينفعكم الفرار ...))[3].

ويتحدَّث المنصوريّ عن أسرى المغول في واقعة حمص، الذين وقعوا في أيدي المسلمين، وعادوا بهم عبيداً مكبّلين بالقيود، فضلاً عن الغنائم التي حصّلها المسلمون من أسلحةٍ متنوِّعة، حيث يقول: ((وعاد السُّلطان إلى دمشق والأسرى تُساق قدامه في الكبول، وقد نهب ما حمل لهم من القسيّ والسناجق والطبول، وكان أعظم

---

(1) المصدر السابق، 167/14.

(2) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص224.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص223-224.

الأيام قدراً، وأعطرها عند الأنام شرفاً، وأظهرها في وجه الزّمان بشراً، بهذه النصرة العظيمة، والكرة التي لم يرَ مثلها في الأزمان القديمة))[1].

ونجد علاء الدّين بن عبد الظّاهر يصوّر لنا التّتار الذين أصبحوا فريسةً للوحوش والسّباع في واقعة مرج الصُّفر سنة 702هـ، تقوم الوحوش على تفتيت أحشائهم، كما أصبحوا فريسةً للأسنّة التي تعلو برؤوسهم لتعتزّ بقوّتها والنّصر الذي حقّقته، والحمائم تكرع دمائهم، حيث يقول: ((وأمست الوحوش تحوش أشلاءهم، والحوائم ترد دماءهم، والعساكر في أعقابهم تقتل وتأسرُ، ... وتنظم أسنّتها برؤوس القتلى وتعقد لها على عقائل النّصر فتزفّ لديها وتُجلى ...))[2].

وقد لجأ التّتار إلى الفِرار عندما اشتدّ القتال في مرج الصُّفر، وهربوا إلى الأوعار ظنّاً منهم أنّها من الجيش المسلم عاصمتهم، وليس الفُرّارُ هم الجنود وحسب، بل وقادتهم كذلك. والمسلمون في أثناء ذلك الاضطراب في صفوف أعدائهم يلاحقونهم، فيقتلون من يقتلون، ويأسرون من يأسرون. قال الشهاب محمود في بشارته بالنّصر في مرج الصُّفر إنّ المغول بعد أن حمي الوطيسُ بدأوا ((يطلبون الفرار، ويتوقّعون القتل إن تعذّر الإسار، ...، وتقاذفت بمن نجا منهم الفلوات، وغرّقتهم أمواج السّراب قبل أمواج الفرات، فأخذوا قنصاً باليد من بطون الأودية ورؤوس الشعاب، ولم يحصل أحدٌ منهم على الغنيمة بالإياب، وقُتل أكثر مقدّمي التمانات، وفرّ كبيرهم وأنّى له الفرار؟))[3].

وتشتّت التّتار في تلك المعركة فمنهم القتيل ومنهم الأسير حتّى أصبحوا حديثاً في كلِّ ناحية، وعبرة لكلِّ شخص كما يقول المنصوريّ: ((...، جهّز السلطان خيل الطلب وراء العدو ونظفت من وجدت منهم، فبادوا قتلى وأسرى وأخذوا في كلِّ أوب قسراً وصاروا حديثاً في الأمصار، وعبرةً لأولى الأبصار، وتلا عليهم لسان السّيف

---

(1) المنصوريّ: زبدة الفكرة، 161/9.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1034.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 169/14؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 341/2.

(قل لن ينفعكم الفرار)، وتطهّرت ديار الإسلام من الأدناس، وتلا سلطاننا النّاصر ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس))[1].

وقد دفع الكتّاب إلى المبالغة في تصوير حجم قتلى المغول في تلك المعركة، ما حلَّ بهم من هزيمةٍ وقتلٍ ذريع فيها، ((وعلى الجملة: فإنَّهُ لم يصل إلى بلادهم إلاَّ النادر ... والذي وصل لم يقمْ إلاَّ أيَّاماً، وهلك بمرض اعتراه كالوله))[2]، ومن الطبيعي بعد ذلك أن يندبهم الأهالي في بلادهم، ويُروى أنَّهُ لمَّا قُتِلَ أكثر المغول في تلك المعركة، وصل الخبر إلى همذان، فوقعت الصَّرخات في بلادهم، وخرج أهل تبريز، وغيرها إلى لقائهم، واستعلام خبر من فُقِدَ منهم، حتّى علموا بذلك، فقامت النياحة في مدينة تبريز شهرين على القتلى[3].

وأرسل شهاب الدِّين محمود الحلبيّ كتاباً إلى متملك سيس عند كسرة التَّتار، بعد قيامه معهم في المصافِّ ومساعدته إيَّاهم، يقرِّعه فيه على وقوفه إلى جانبهم، ويصف هزيمة التَّتار على أيدي المسلمين وما تعرَّضوا له من تشتُّت في المفاوز الموحشة، فالسُّيوف ترتوي من دمائهم، وتأكل من لحومهم، ومن لم يُقتل بالسَّيف قتله الجوع والعطش، إذْ يقول: ((وصدمناهم بقوَّةِ الله صدمة لم يكن لهم بها قبل، وحملنا عليهم حملة ألجأهم طُوفانها إلى ذلك الجبل، وهل يعصم من أمر الله جبل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتَّسع، وضايقناهم كما قد رُوي ومزَّقناهم كما قد سمع، وأنزلناهم على حكم السَّيف الذي نهل من دمائهم حتَّى روي، وأكل من لحومهم حتَّى شبع، وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطَّفهم رماحها، وتتلقَّفهم صِفَاحُها، ويُبدِّدُهم في الفلواتِ رُعبها، ويفرِّقهم في القِفارِ طعنُها المُتدارك وضربها، ويقتل من فات السُّيوف منهم العطشُ والجوع، ويُخيّل للحيِّ منهم أنَّ موضعه كالدُّنيا التي ليس للميِّت إليها رجوع...))[4].

---

(1) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص167-168.

(2) الدواداري: كنز الدُّرر، 87/9.

(3) انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 130/8.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 260/8.

ويذكر محيي الدّين بن عبد الظّاهر الغنائم التي حصل عليها المسلمون في غزوة سيس سنة 673هـ، فقد تمثّلت في السَّبايا المغوليَّات والبقر، والغنم، والمراكب، والأولاد، والخيل، والبغال، حيث يقول: ((وغلبت العساكر على ما فيها، وقتلوا من وجدوه بها، وغنم النَّاسُ ما لا يحصى كثرة من الجاموس والبقر والغنم، وحضر إلى الطَّاعة جماعة كبيرة من التركمان والعربان بمواشيهم وخيولهم فجهّزهم إلى البلاد، ....، ووجد شباباً وبقايا حريم للتَّتار أُخذت))[1]، وفي موضعٍ آخر يقول: ((ولمَّا فرغ من إحراق مدينة سيس، وهدم قصور التكفور، وتشويه منظر مناظره، وهتك ستر ستائره، وعادت الجاليشية بما غنموه من حريم للمغل وأولاد وسيقت الغنائم كأنَّها قطع الليل المظلم، ... وجدوا بها من الخيل والبغال مقدار ثلاثمئة رأس فاستاقوها، ....، وقاتلوا جماعة من العدو، ووجدوا مراكب في البحر، فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها ...))[2].

وفي رسالةٍ بعث بها النَّاصر محمّد بن قلاوون جواب كتاب صاحب اليمن يعرض فيها للهزيمة والمهانة التي لحقت بالتَّتار، والأعداد الكبيرة التي لا تُحصى من الأسرى والغنائم، حيث يقول شهاب الدّين محمود الحلبيّ: ((وما سطَّرنا هذه المكاتبة إلاَّ وجيوشنا المنصورة قد وَطِئت عُقْر بلادهم فأذلَّتها وأزالتها، وغيَّرت أحوالها وحالتها، وقاسمتهم شرَّ قسمة فلها منها الحصون والمصون، والجنَّات الوارفة الغُصون، ولهم منها الخراب والتَّباب، والدارسُ الذي لا يحصلُ بكفٍّ دارس بيته إلاّ التُّراب، وها هي قادمةٌ إلينا يقدُمُها النَّصر، ويتقدَّمها من أسر العِدا وغنائمهم ما يُربي عن الحصر))[3].

---

(1) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص434.

(2) المصدر نفسه، ص435.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 372/7.

3.4 صورة المغول النفسيّة بعد الهزيمة

تحدّث الكتّاب في رسائلهم عن الحالة النفسيّة التي أصبح عليها المغول، بعد هزائمهم أمام جيش المسلمين، فأشاروا إلى ذلّهم وهوانهم، وتبدّل أحوالهم من قوةٍ وعظمةٍ إلى مرضٍ وسقمٍ وخيبة آمال، كما يبدو ذلك في قول محيي الدّين بن عبد الظّاهر في وصفه للتّتار الذين غرّهم الشيطان في واقعة عين جالوت، حيث يقول: ((... فاعتاضوا عن الصحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلةُ زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم في نحورهم – إلى أن يقول –: ((فأقلعت بهم طرائق الضّلال وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة ...))[1].

ويصف لنا بيبرس المنصوريّ أسارى التّتار في الواقعة نفسها، حيث كان الوصف يوحي بالمذلّة والهوان التي تنتاب الأسارى، فالأسلحة منكوسة، والطبول معكوسة، وشعف القتلى محمولة، إذ يقول: ((... وأسارى التّتار بين يدي المواكب ما بين ماشٍ وراكب، وسناجقهم بأيديهم منكوسة، وطبولهم على أكتافهم معكوسة، وشُعف القتلى منهم محمولة ...))[2].

كان للانتصارات المتوالية التي حقّقها المماليك على أعدائهم المغول الأثر الكبير في إكسابهم الثّقة العالية بالنّفس، وبالمقابل أورث أعدائهم خوفاً مستمرّاً، فالمغول الذين اشتهروا بسفك الدّماء، وإثارة الرُّعب في قلوب النّاس، أصبحوا بعد انتصارات القادة المسلمين يشعرون بالذلّ والهوان والتحقير، يهابون رؤية الدِّماء، ويخافون من خوض المعارك مع الأبطال المسلمين، حيث يقول محيي الدِّين: ((... ولمّا أذلّ الله ببأسها طوائف التّتار في أقاصي بلاد العجم، وجعل حظ قلوبهم الوجع من الخوف ونصيب وجوههم الوجم، وأخلى الله من نسورهم الأوكار، ومن أسودهم الأجم، وقُصرت بهم هممهم حتّى صاروا يخافون الصُّبح إذا هجم، والظنّ إذا رجم،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 7/386-387.

(2) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص103.

وصارت رؤية الدِّماء تفزعهم، فلو احتاج أحدهم لتنقيص دم المريض، لأحجم من خوفه وما احتجم...))[1].

وقد عبَّر ابن تيميّة عن خوفهم في رسالته إلى النَّاصر بأنَّه وصل حدّاً جزعوا فيه من أحد الأمراء خرج إلى الصَّيد، ((حتّى صاروا يريدون أن يظهروا زيَّ المسلمين لئلا يُؤخذوا))[2].

ويصف ابن عبد الظّاهر الرُّعب الذي حلَّ في نفوس التّتار عند رؤيتهم للجيش الإسلامي قبل فتح قيساريّة الرُّوم، فقد ((رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلّوا، وسُقط في أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلُّوا، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾[3]، وعلى الموت يتراسلون))[4].

ويعطينا ابن عبد الظَّاهر صورةً طريفةً لأسارى قيساريّة الرُّوم، فهم يتوافدون على أمواتهم، يتعرَّفون عليهم، ويستذكرون ما كانوا عليه من شجاعةٍ وإقدامٍ في المعركة، إذ يقول: ((وأقبل بعضُ الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأخبار شجاعتهم يتواصفون، فكم من قائل: هذا فلانٌ وهذا فلان، وهذا كان وهذا كان، وهذا كان يُحدِّثُ نفسَهُ بأنَّهُ يهزمُ الأُلوف، وهذا يُقرِّر في ذهنهِ أنَّهُ لا تقفُ بين يديه الصُّفوف))[5].

ويركِّز الكتّاب التصوير على محاولات المغول المتكرِّرة في الفرار إلى نهر الفرات بعد هزيمة مرج الصُّفر؛ ولعلَّ السبب في ذلك ما أصاب المغول من قتلٍ ذريعٍ هناك، فقد ركبهم بلاء الله من المسلمين الذين حصدوا رؤوسهم عن أبدانهم[6]، ذلك أنَّهم وصلوا إليه وهو في غاية ازدياد، والذي عبره منهم هلك[7]، وقال صلاح الدِّين

---

(1) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص309-310.

(2) ابن تيميّة: رسالة ابن تيميّة إلى النَّاصر، ص17.

(3) سورة الصَّافّات: آية (27).

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 164/14.

(5) المصدر نفسه، 168/14.

(6) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص936.

(7) انظر ابن الورديّ: تتمّة المختصر، 244/2.

الصفديّ: حكى له جماعةٌ ((أنَّهم كانوا يأتون إلينا عشرين عشرين، وأكثـر أو أقـل، ويطلبون منَّا أن نعدِّي بهم الفرات في الزوارق إلى ذلك البرِّ، فما نعدِّي بمركبٍ إلاَّ ونقتلُ كُلَّ من فيه، حتَّى إنَّ النِّساء كنَّ يضربهم بالفؤوس، ونذبحهم، فما تركنا أحداً منهم يعيش))[1].

ويصوِّر علي بن سوادة ما أصاب المغول من خذلان نفسي في معركة مرج الصُّفر كما أصابتهم الخيبةُ والذلُّ، والخوف والألم، إذْ يقول: ((... فحلَّ بهم البلاء من كلِّ جانب وخسرت صفقة المخذولين، وانقلبوا على أعقابهم خائبين مغلوبين ونُكِّست أعلامهم، وبطل إقدامهم، وارتعدت فرائصهم، وزلزلت أقدامهم واشتدَّ بهم الخوف والوجل، وأيقنوا بالهلاك وحلول الأجل ...))[2].

ولشدَّة المخاوف التي غمرت نفوس المسلمين في مرج الصُّفر، التجأ المغول إلى الجبال العالية الحصينة للاختباء فيها عن عيون المسلمين، ولكنّها لم تحميهم من أسلحة المسلمين التي تقف لهم بالمرصاد، تعيق تحرُّكاتهم، وتنوشهم أينما تحصَّنوا، فقد رُوي أنَّهُ أثناء المعركة نزل ((التَّتر على جبلٍ هناك بطرق مرج الصُّفر، وأشعلوا النيران، وأحاط المسلمون بهم، وأصبح الصباح، وشاهد التّتر كثرة المسلمين، فانحدروا من الجبل يبتدرون الهرب، وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظمية، وكان في طريقهم أرض متوحّلة، فتوحَّل فيها كثير من التَّتر، فأُخِذَ بعضُهم أسرى، وقُتِلَ بعضُهم))[3].

ولم يقتصر أمر المغول على الفرار إلى الجبال العالية، بل نراهم كانوا يلقون بأنفسهم عن الدَّابة إنْ تعرَّضوا للأسر، ويضربون برؤوسهم الحجارة، ولا يسلِّمون أنفسهم للقيد[4].

وكذلك الحال بالنسبة لأحلافهم الأرمن، فبعد مرج الصُّفر عام 702هـ ((حلَّ بالنّيل منهم الويل، وما شمَّر أحدٌ من الجنود الإسلاميّة عن ساعدٍ، إلاّ وشمَّر هو من

---

(1) الصفديّ: الوافي بالوفيات، 361/4.

(2) ابن حبيب: تذكرة النبيه، 218/1.

(3) أبو الفداء: المختصر، 49/4.

(4) انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 384/12.

الذلِّ الذّيل، ولا أثارت الجيادُ من الجيل عِثيراً منعقِداً إلاَّ وظنُّوه مساءً قد أقبل أو ليل))[1].

ويشير ابن عربشاه إلى الذلِّ والمهانة التي أصبح عليها جيش تيمورلنك؛ فدمائهم تملأ الأباطح، ولحومهم ينهش بها كل كاسر، حيث يقول: ((... فقصدوا المدينة من الباب المفتوح، وهم ما بين مهشوم ومجروح، والسُّيوف تشقّهم، والرِّماح تدقُّهم، وقد سالت بدمائهم الأباطح ونثر من سائر لحمهم كلّ كاسر وجارح...))[2].

4.4 صورة القائد المغولي المهزوم

يصوِّر النَّثر العربيّ قادة المغول، والمصير الذي آلوا إليه بعد هزائمهم أمام المسلمين، فلم يكن مصيرهم بأحسن حالاً من مصير جيوشهم، وقد صوَّرهم الكتَّاب يذَلُّون، ويؤسرون، ويُقتلون، ويفرُّون من ساحة المعركة، ووازنوا في بعض الأحيان بين حالهم قبل الهزيمة وبعدها، وقلَّلوا من قدرتهم على القتال، وذلك كلَّهُ عرضه الكتَّاب في صور متنوِّعة وساخرة، والصورة التي قدَّمها الكتَّاب لأولئك القادة تكمِّل صورة جيشهم المهزوم، فلا الجيش ولا قادته سلموا من أسلحة المسلمين.

وتظهر أُولى ملامح تلك الصورة في وصف الكاتب محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر لذلِّ وهوان ملوك المغول في واقعة حمص سنة 680هـ، إذْ يقول: ((وقتلنا ملوكهم وغيرهم فعجَّل الله بأرواحهم إلى النَّار وأبت الأرض أن تواري جسداً لهم فقذفتهم في المهامة والقفار. وثنى مولانا السُّلطان العنان، وملوك المغل الأسارى يساقون بين يديه سكارى وما هم بسكارى، وقد أثمرت رؤوس الرِّماح بكلِّ بطلٍ كم يحسن رأساً وجعل على اسم الله في قفول جنوده ما أجرى منهم وما أرسى ممّا ردَّ بأساً وكفى يأساً ...))[3].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 393/7.

(2) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص89.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص224-225.

ويشير ابن عبد الظّاهر إلى المهانة والمذلّة القي انتابت ملوك المغول، حيث يقول: ((... وأن لا تشق لدينا إلاّ أكباد النّار، ولا تجز غير شعور ملوك التّتار، تتوّج بها رؤوس الرّماح ويصعد بها على قمم الصعاد ...))[1].

ولم يكن المسلمون يكتفون بقتل قادة المغول، بل كانوا يعلّقون رؤوسهم على الأماكن العالية زيادة في ذلّهم، فنجد محيي الدّين بن عبد الظّاهر يصوّر المغول المستأمنين الذين قدموا إلى الظّاهر بيبرس سنة 661هـ، وقد شاهدوا رأس كتبغا نوين مقدّم التّتار، المقتول في عين جالوت، وغيره من أكابر المغول معلّقةً على الأماكن العالية[2]، وشاهدوا رؤوس بعضهم وهي ملقاة على التّراب، ومتحرّكة على الأسوار تبعاً لحركة الرّماح المعلّقة فيها، يقول[3]:

فرؤوس على الشّراريف قتلى	ورؤوسٌ على التّرابِ سُجودُ
حين وافى التّتارُ في خِلعٍ منـ	ـكَ وكلٌّ صنائعٌ وعبيدُ
ورأوا منهم رؤوساً على السّورِ	بحكمِ الرّماح أمست تميدُ
هذه قَدْ عَصَتْ وهذي أطَاعَتْ	هكذا هكذا تكونُ السّعودُ

وفي معركة قيساريّة الرّوم يعقد محيي الدّين بن عبد الظّاهر مقارنة بين حال القائد المغوليّ قبل الهزيمة وبعدها، إذ يقول: ((فكم شاهد مولانا السّلطان منهم مَهيبَ الهامة، حَسنَ الوسامة، تُتَفرّسُ في جهامة وجههِ الفخامة، قد فضّ الرّمحُ فاهُ فقرع السّنّ على الحقيقة ندامة))[4].

ونجد ابن عبد الظّاهر يسخر من القادة الرّوم الذين شاركوا المغول في واقعة قيساريّة الرّوم، فقد وقعوا أسارى أذلاّء لدى المسلمين، وفرّ أحدُ قادتهم هارباً تاركاً ولده أسيراً بين يدي المسلمين، حيث يقول: ((... وكان في جملة الأسارى الرّوميّين

---

(1) المصدر السابق، م7، ص359.

(2) انظر شافع بن علي بن عبّاس (ت730هـ): حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهريّة، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر – الرياض، 1976م، ص67؛ انظر ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص179.

(3) المصدر نفسه، ص67؛ المصدر نفسه، ص179.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 168/14.

مُهذَّبُ الدِّين بكلارنكي، يعني أمير الأمراء ولدُ البرواناه، ونور الـدِّين جاجـا أكبـر الأمراء، وجماعةٌ كثيرةٌ من أمراء الرُّوم ومُقدَّمي عساكره، فكان البرواناه أحقَّ بقـول أبي الطَّيِّب:

نجوتَ بإحدى مُقلتيك جريحـةً   وخلَّفتَ إحدى مُهجتيـكَ تـسيلُ!

أتُسلِمُ للخَطِّيَّـةِ ابنـكَ هاربـاً   ويسكنُ في الدُّنيا إليـكَ خليـلُ؟

لأنَّهُ شمَّر الذَّيل، وامتطى – هرباً – أشهبَ الصُّبح وأحمر الشفقِ وأصـفر الأصـيل وأدهم اللَّيل، وثمَّ يُخبر من خَلْفِه بما تمَّ، وهَمَّ قلبه رفيقه حين همَّ))(1).

ولم يكن الرُّعب مخصوصاً بالجند، بل كان نصيب القادة منه عظيماً، فهم أشدُّ تأثُّراً بما يحلُّ بجيوشهم، ومن ذلك وصف ابن عبد الظَّاهر ملك طرابلس بعـد فـتح أنطاكية التابعة له – وقد كان حليفاً للمغول – إذْ قال بعد وصفه لِمَـا حـدث لجيـشه ولأهل طرابلس: ((هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً، قلت فَزِعاً: عليَّ هذا الصوت))(2).

ويعرّض ابن عبد الظَّاهر بملك الأرمن لوقوفه إلى جانب المغول فـي واقعـة طرابلس، ويصف لنا حاله قبل الهزيمة وبعدها، فقد أصبح ذليلاً نادماً علـى معاداتـه للمسلمين، إذْ يقول: ((وانتهت نوبةُ القتلِ بهم والإسار إلى التكفـور ليفـون(3) ملـك الأرمن الذي كان يحمي سرحهم، ويمرِّدُ صرحهم، ويستنطق هتفَ التَّتار، ويـسترجع صدحهم، ... وطالما غرَّ وأغرى، وأجرَّ وأجرى وضرَّ وأضرى، فلمَّا توكَّل مولانـا السُّلطان وعزم فتوكَّل، وتحقَّق أنَّ البلاء به قد نزل وما تشكَّك أنَّ ذلك في ذهن القـدر قد تصوّر وتشكَّل، وأنَّ يومه في الفتكِ سيكون أعظمَ من أُمنتيَّته، وأعظمُ منهما معاداة غَدِه، وأنَّ نصرَ الله لن يُخلِفَه صادقُ وعده، أكل يده ندامةً على ما فرَّط في جنـب الله

---

(1) المصدر السابق، 169/14.

(2) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص309-310.

(3) التكفور: من ألقاب ملوك الأرمن. والمقصود هنا هو: ليفون (ليون) بن التكفور هيثـوم بـن قسطنطين، وقد امتدَّ حكمه من 669-688هـ. القلقشندي: صبح الأعشى، 394/7، حاشـية رقم (1).

وساق الحتفَ لنفسه بيده، فعمَر اللهُ بروحه الخبيثة الدَّرَك الأسفلَ من النّـار، وسـقاه الحتف كأساً بعد كأس لم يكن لهما غيرُ المَلَك من خمَّار))[1].

ومن مظاهر هوان ملوك التتار سعيهم إلى نيل الرِّضـى والـولاء مـن قِبَـل سلاطين المسلمين، يقول محمود شهاب الدِّين الحلبيّ: ((وهزموا جيوشَ التَّتار وهم في أعداد الكواكب، وحصدوهم بسيوفهم ... وهم في نحو المائةِ ألف راكـب، حتَّـى إنَّ ملوك التَّتار الآن ليتمنَّون إرضاءنا وإغفاءنا، ويستدعون ويـدَّعُون للآبـادِ ولاءنـا، ويطلبون المسالمة منَّا، ويودُّون نسمة قبول تصدر إليهم عنَّا))[2].

5.4 صورة القائد المسلم

اتَّصف عصر المماليك بالكرِّ والفرِّ ومجابهة أعداء الأُمَّة، وقد ظهرت نتيجـة لذلك صورة البطل وجيشه المنصور، ولذا احتلَّ الجانب العسكريّ مكانةً عليَّة مرموقة نظراً لحاجتهم الماسَّة لأولئك القادة الأفذاذ. فقد اتَّخذ عصرهم طابع القوّة العـسكريّة، والإغارة على الأعداء وصدّ هجماتهم، ولهذا أولى المماليك الجـيش عنايـة فائقـة، وانعكست هذه العناية على إنتاج الأدباء والكتَّاب، حيث كان الكتَّاب يصفون الأحـداث العسكريّة عن كثب ودراية، فصورَّ الكتَّاب حركات الجيوش والقادة وخذلان الأعـداء في المعارك، وقد مكّنتهم الانتصارات على العدوِّ وفتح الحصون والقـلاع والـبلاد، وكتب البشارات من وصف حركات العساكر والجنود، والقـادة فـي حـصار تلـك الممالك، واستماتتهم في سبيل صدِّ الأعداء، وانتزاع الممتلكات من أيديهم.

وقف في مواجهة الغزو المغوليّ قادةٌ من المسلمين، أحسُّوا بالدَّور الملقى على كواهلهم في ردِّ ذلك الخطر الدَّاهم، وكان مع أولئك القادة كتّـاب سـجَّلوا مـواقفهم، وخلَّدوا بطولاتهم، ووصفوا فروسيتهم وشجاعتهم وثباتهم في أرضِ المعركة، وأشادوا بحرصهم على إقامة فرض الجهاد، وبذل الرُّوح رخيصة في سبيل إعـلاء كلمـة الله تعالى.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 7/393-394.

(2) المصدر نفسه، 7/375.

فقد مدح محيي الدّين بن عبد الظّاهر بيبرس بالحنكة وإقامة فرض الجهاد، قائلاً: ((... فأقام السلطان الظاهر بين خشداشيته كالشمس بين الكواكب وكالأسد بين الأشبال الخادرة، يتدرَّب في غزو الكفار، ويديم الجهاد آناء الليل وأطراف النهار...))[1].

ويشير ابن شدّاد إلى المعنى نفسه من حيث مواظبة الظاهر بيبرس على الجهاد في سبيل الله، بقوله: ((... ألزم على نفسه من المواظبة على الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته، والسُكنى بجواره في بحبوحة جنّاته، واجتهاداً في إقامة منار الإسلام وإعلان كلمته بالإعلان والإعلام ...))[2].

ويؤكِّد الكتّاب ومنهم ابن شدّاد على حبِّ البطل المسلم لإقامة فرض الجهاد، وبذل الرُّوح رخيصة في سبيلِ إعلاء كلمة الله، يقول ابن شدّاد في وصف الظّاهر بيبرس: ((لمّا علم أنَّ الجهاد من قواعد الإسلام الخمس، وأنَّ الظفر بالأعداء لا يُنال إلاّ بشقِّ النَّفس، وأنَّ الله تعالى فرض الجهاد على عباده، وأجزل الأجر لمن بذل فيه غاية جهده واجتهاده، وأحكم سبب الإيمان باتصال سببه، وجعله أحد أركان الدِّين الذي لا يتمُّ الإسلام إلاّ به، ورغّب فيه كلَّ الترغيب، وخصَّ المرابطين فيه بأوفى نصيب، وأنزل في وصفه آيات بيِّناتٍ وأوضح من مفصّل تفضيله جملاً كافيات، وحرَّض عليه عباده المخلصين ووعدهم عليه النَّصر لقوله تعالى: ﴿وكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِيْن﴾[3] بذل نفسه النفيسة في مواطن القتال، وسبق الأقران إلى النزال، وصبرت عارفة لذلك نفسٌ حرّة وأثبت في مستنقع الموت رجله متيقّناً من الله النصرة ...))[4].

لقد كان الاهتمام الوافر بالجهاد من أهمِّ الصِّفات التي أضفاها الكتّاب على القادة المماليك، ويبدو أنَّ ما حقَّقه المماليك من انتصارات رائعة على الأعداء مهَّد السبيل أمام الكتّاب ليبالغوا في ذلك. قال محيي الدِّين بن عبد الظّاهر يذكر اهتمام قلاوون بالجهاد في رسالة بشرى إلى ملك اليمن: ((كانت غزوات مولانا السلطان ملك

---

(1) ابن عبد الظّاهر: الروض الزاهر، ص47.

(2) ابن شدّاد: تاريخ الملك الظّاهر، ص30.

(3) سورة الرُّوم: آية (47).

(4) ابن شدّاد: تاريخ الملك الظّاهر، ص317.

البسيطة ... قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفه للنصر كم جاءت هي والقدر على قدر، وقد صارت سِيَرها وسَيْرها: هذه شدو في الأسمار، وهذا جادة تستطيب منه حُسن الحدو السّفار، فكم قاتلت من يليها من الكفّار))[1].

ويظهر العادل كتبغا بصورة البطل المسلم المحبّ للجهاد، المُقْدِم عليه بنفس شريفة أبيّة، يلقى عدوه دون رهبةٍ، يصابر ويرابط كما يقول شهاب الدِّين الحلبي: ((... وفي إقامة الجهاد بنفسه الشريفة وكتائبه، ولقاء الأعداء كيف شاء من تسيير سراياه، وبعث مواكبه، وفي مضايقة العدو حصاره ومصابرته وأنظاره...))[2].

وقد لقِّب الظَّاهر بيبرس بأبي الفتوحات لكثرة غزواته وفتوحاته، يقول ابن إياس الحنفيّ: ((... وكان كثير الغزوات مشهوراً بالفروسيّة، وله إقدامٌ في الحرب، وكان كثير الأسفار في الصَّيف والشِّتاء، وكان يلقَّب بأبي الفتوحات لكثرة فتوحاته للبلاد والثغور ...))[3].

كما امتاز المنصور قلاوون بكثرة فتوحاته وغزواته التي أصبحت عبرةً وعظةً للنَّاس، ممّا جعل محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر يزعم أنَّ الله أخرَّ الفتح ليتمَّ على يديه، واختصَّهُ به لأهليته وقدرته وصلاحه، إذْ يقول في رسالته بفتح طرابلس: ((وأخَّرَ الله مُدتها إلى خير الأزمان، وفتحها على يد سلطاننا الذي حقّق الله به آمالاً لا تنفذ منه إلاَّ بسلطان))[4].

والقائد المسلم قد زلزل ممالك الأعداء، وضعضع ملكهم، ولاقاهم لقاء البطل القويّ لأعدائه دون خوف أو وجل، إذْ يقول شهاب الدِّين الحلبيّ: ((... وزلزل ممالك أعدائه بما نبعثُ من سرايا رعبه إليها، وثبت به أركان الأرض التي ستحتوي ملْكَهُ في طرفيها، وضعضع بسلطانه قواعد ملوك الكفر ...))[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 393/7.

(2) المصدر نفسه، 49/10.

(3) ابن إياس الحنفيّ: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص341.

(4) النويري: نهاية الأرب، 1031/1.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 53/10.

ونجد الظَّاهر بيبرس يرسل كتاباً إلى الأُمراء بمصر، يمثِّل فيه البطولة بمعناها الحقيقيّ، بطولة الفرسان، الشجعان، حيث يؤكّد فيه على استعداده التام للجهاد والحروب، إذْ يقول: ((... وأنا والله لا أبيت إلاّ وخيلي مشدودة، وأنا لابس قماشي حتّى المهماز ...))(1).

ويشير الظَّاهر بيبرس إلى ملازمته لجنوده، ومباشرته الحرب معهم، وذلك في كتاب آخر أرسله إلى الأمراء في مصر: ((إنَّا بحمد الله تعالى ما تخصّصنا عنكم براحةٍ ولا دعة، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة، ما منّا إلاّ من هو مباشر الحروب، الليل والنهار، ...، وقد تساوينا في هذه الأمور، وما ثمَّ ما تضيق به الصُّدور...))(2).

وفي فتح طرابلس شارك الأشرف خليل بن قلاوون المسلمين قتال التَّتار، لا بل كان في مقدمة صفوفهم، لا يهاب الأعداء، يقول محيي الدّين بن عبد الظَّاهر: ((قدّر الله تعالى أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشُه إليها كلَّ خبر وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونُها وتلك المخاوفُ كلُّها أمان، وقد اتّخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مُفأجاته لها أمدَّ عِنان، ...، وما زالت جنود الإسلام كذلك، ومولانا السلطانُ لا تُرى جماعةٌ مقدمةٌ ولا متقدمة إلاَّ وهو يُرى بين أُولئك))(3).

ويصورِّ محيي الدِّين ابن عبد الظَّاهر بطولة أحد قادة واقعة قيساريّة الرُّوم، ومشاركته الفعّالة في المعركة، حتّى خرج منها منتصراً مخضَّباً بدماء أعدائه، حيث يقول: ((وكان مولانا الصاحبُ زينُ الدِّين – حرس الله جلاله – لمّا دُعيتْ نزالِ أوّلُ مُسابق، وأسرع راشق وأقرب مُطاعن، وأعظم مُعاون، فذكر من شاهده أنَّهُ أحسن في معركته، وأجمل في كرَّتِه، وأجاد في طعنته، وزأر زئير الليث، وسابق حتّى لم يسقَ حيث، ووقف دريئةً للرِّماح من عن يمينه وشِماله، وخضَّب بما تحدَّر من دمِ عدوِّه أكنافَ سرجه وعِنان لجامه، وكانت عليه من الله باقيةٌ واقيةٌ في تقدُّمه وإقدامه، وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي السلاح، وقد أخذ نصيبه ونصيب

---

(1) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص395.

(2) المصدر نفسه، ص226.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 7/394-395.

فرسه من سالم الجراح، وأراد الله أن لا يُخليه من إسالة دمٍ يُعظِّمُ الله الأجرَ بسائله – فجعله– والمِنَّةُ لله– من بعض أطراف أنامله))[1].

والقيسراني يرى أنَّ البطل المسلم هو من يهاجم الأعداء في عقرِ دارهم، وينكل بهم، إذْ يقول: ((... كم فتح للإسلام معاقل ومدناً، واقتلع من أيدي الكفار قلاعاً وحصناً، كما أرسل جيوشه لغزو المشركين في عقر دارهم ...))[2].

ولطالما ظهر بطل الحروب التتارية، الناصر محمد بن قلاوون، بالفارس الفذّ الذي تحفُّ به الملائكة من كلِّ جانب، تسعفه بالنصر، وتسهّله له، إذْ يقول الدواداري: ((... والنصر أمامه والتوفيق رفيقه، والرفيق الأعلى قد سهَّل طريقه، والملائكةُ قدْ حفَّت أعلامه وصناجقه، وقد توكّل على الله خالقه، وروايح النَّصر قد عطَّرت بشذاها الآفاق، ولوايح القهر قد ظهرت بقدرة العزيز الخلّاق ...))[3].

ويظهر المعنى نفسهُ عند الكاتب علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر في مدحه لبطل مرج الصُّفر الناصر محمّد بن قلاوون، حيث يقول: ((... ودخلها في هذا اليوم والملائكة تحيّيه عن ربه بتحيةٍ وإكرام، وتتلو عليه وعلى جيوشه ادخلوها بسلام ...))[4].

وظهر القائد المسلم النَّاصر محمّد بن قلاوون بصورة القوي العظيم الذي أهلك أعداء الإسلام جميعهم، إذْ يقول القيسرانيّ: ((... المجاهد، المرابط، المظفر، الملك الناصر ناصر الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيّد الملوك والسلاطين، فاتح الأمصار، مبيد الأرمن والفرنج والتَّتار ...))[5].

ونجد الكتَّاب يشيدون بفروسية المنصور، الذي أنقذ الأمَّة وشفى صدرها مشيراً إلى إحياء الخلافة العباسيّة، إذْ يقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((وبعد حمد الله

---

(1) المصدر السابق، 166/14.

(2) القيسراني: النور اللائح والدُّر الصائح في اصطفاء مولانا السلطان صالح، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر – طرابلس، 1982م، 15/2، 62/5.

(3) الدواداري: كنز الدرر، ص82.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1034.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 121/10.

على أن أُحمِدَ عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدّت به للأمّة الظهور وشفيت الصُّدور، وأقام الخلافة العباسيّة في هذا الزّمن بالمنصور كما أقامها فيما مضى بالمنصور، واختار لإعلان دعوتها من يُحيي معالمها بعد العفاء ورسومها بعد الدُّثور...))(1).

ويظهر القائد المسلم بصورة صاحب الهمَّة العالية والعزيمة القويّة التي تنهل السُّيوف منها الحدّة والقوَّة، يقول ابن شدَّاد في وصف الظَّاهر بيبرس: ((وتلك عزيمةٌ تكتسب السيوف مضاءها، وتستفيد الرِّماح الشواجر حكمها وقضاءها))(2).

وممّا قاله علاء الدِّين بن عبد الظّاهر في وصف همّة الملك النَّاصر محمّد، وقيامه بجهاد أعداء الدِّين: ((بايع الله على نصرة هذه الملّة التي لا يحيد عن نصرها ولا يريم، وعاهده على بذل الهمم التي انتظمت في سبيل الله كالعقد النظيم، وخضع لله في طلب النصر ... ، وقال: ربِّ قَدْ بذلتُ نفسي في سبيلِكَ فتقبّلها بقبولٍ حسن، ونويتُ المصابرةَ في نُصرةِ دينِكَ وأرجو أن أُتّبع النيّةَ بعملٍ يعدو بيانَ إنسانٍ في وصفه واللسن))(3).

ويصوِّر تاج الدِّين أحمد بن الأثير البطل المسلم المنصور سيف الدِّين قلاوون بالبطل قوي العزيمة والهمّة قائلاً: ((... ويقوى به قوى العزائم وبمثله الأعداء في أوكارها فيكاد يتجرّد ذيول الهزيمة وتبعث الآمال على تمسكها بالنصر...))(4).

وتصوِّر الرسائل همم الأمراء قادة الجيش وإقدامهم، وإعدادهم العدّة للقاء العدو، فتراهم يضحُّون من أجل دينهم، فلا عزة لهم إلاَّ بعزته. وصفهم علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر بأنَّهم في معركة مرج الصُّفر ((رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماً، وعدوا الممات فيه مغنماً، وقالوا: لا حياة إلاَّ بنصر الإسلام، ...، وما أعددنا العزائم إلاَّ لهذا الموقف، ولا أحددنا الصوارم وخبأناها إلاَّ لنبذلها في السَّفك فنسرف))(5).

---

(1) المصدر السابق، 121/10.

(2) ابن شدّاد: تاريخ الملك الظّاهر، ص318.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 163/14.

(4) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 9/4.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1031.

وقد وصف محيي الدّين بن عبد الظّاهر القائد السلطان المنصور قلاوون بعد فتح طرابلس، وقد اشترك في المعركة بنفسه، وتقدّم جنده، وخاض الصّفوف، وأغار على الأعداء بشجاعة وثبات يحيطون به جندٌ ضرّستهم الحرب العوان ليس لهم همٌّ سوى مطاردة العدو وخذله، سريعو الحركة إلى العدوِّ، فجاء في وصف القائد وجنده قول الكاتب: ((قدّر الله تعالى أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كلُّ خبر وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسته عيونها، وتلك المخاوف كلها أمان ... وفي خدمته جنوده لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة))[1].

وقد صوّر علاء الدّين بن عبد الظّاهر ثبات السّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون في وجهِ الأعداء، فقد أظهر قدرةً عاليةً على القتال دون رهبةٍ أو فزعٍ، غير مكترثٍ بعدد العدو وعدّته، إذ يقول: ((... ومولانا السلطان يردف مواكبه بحملاته، ويقدم فتخشى الأعداء مواقع مهابته، وترجو الأولياء منافع هباته، ويرى غمرات الموت ثمَّ يزورها، ويمرُّ في مجال المنايا فيحلو له مريرها ومرورها، ويقاسم سيوف العدى شرَّ قسمة فعلى عاتقه غواشيها وفي صدورهم صدورها ...)))[2].

كما يصوّر علاء الدّين بن عبد الظّاهر ثبات الناصر في مرج الصّفر وقوّته وصبره، وعدم اكتراثه بكثرة عدوه، إذْ يقول: ((قابل العدو بصدره، وقاتل حتّى أفنى حديد بيضه وسُمره، وخاطر بنفسه والموت أقرب إليه من حبل الوريد، ونكّب عن ذكر العواقب جانباً ولم يستصحب إلاَّ سيفه المبيد))[3].

ومن الجدير ذكره، أنَّ القادة يمثّلون عنصراً مهمّاً، وعصباً حيويّاً في تحفيز الجند، وتحقيق النَّصر، ولذا فإنَّ الكتَّاب جعلوا لهم وصفاً خاصّاً يميّزهم عن غيرهم من الجند، فهم دائمو اليقظة، شديدو الأسر، مرهوبو الجانب، سديدو الرأي، خفيفو الحركة، فجاء في وصف قائد سريّة كاشفة للشّهاب محمود الحلبيّ قوله يصف حركات

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 368/7.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1032.

(3) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1031-1032.

ذلك القائد وشدّة أسره ويقظته ((وهو لا زال أخفّ من مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى من مطالبه من زورة طيف، وأسرع في تنقّله من سحابة صيف، وأروع للعدى في تطلّعه من سلّة سيف))[1].

فقد ركّز الحلبيّ وصفه لذلك القائد على أُمور مستحبَّة في القادة من سرعة الحركة والتخفّي والتمويه، والتنقّل السريع وعدم المكوث في مكانٍ واحدٍ يسهّل على العدو كشفه، وإضافة إلى ذلك جرأته على الأعداء وإرهابهم، وشجاعته في مواطن الإقدام، وأسهب في وصف ذلك القائد، حيث نعته بنعوتٍ كلُّها تجمع بين الشجاعة وسرعة الحركة والتنقُّل.

ويلاقي البطل المسلم عدوّه واثقاً من نصرهِ وهزيمة خصمهِ، إذْ يقول شهاب الدِّين الحلبيّ مادحاً الأمير جمال الدِّين أقوش الأشرفيّ[2]: ((... وإذا رمى في حماية الممالك عدداً سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده، وإذا جرّد جيشاً إلى أعداء الإسلام جرّت قبل اللقاء ذيول هزائمها، ورأت الفرار أمنع لها من صوارمها ... ونثلت ما في كنائنها من سهام ضعفت عن الطيران قوادمها ...))[3].

ويشير الدواداري إلى ملمحٍ إنساني تحلّى به السلطان النّاصر، فقد امتاز بالحنان والرأفة حتّى مع عدوّه المغول، حيث يقول يصف لنا موقفه مع المغول بعد معركة مرج الصفُّر: ((فلمّا نظر الله تعالى إلى ذلّهم وكسرهم، أوحى إلى قلب مولانا السلطان بجبرهم، فحنى عليهم بقلبٍ رؤوف، وأجارهم من حتوف السيوف، وعلم أنّ الإيمان من الكفر قد اشتفى، وأنَّهُ قد قدر وعفا ...))[4].

---

(1) الحلبيّ: حسن التوسّل، ص331.

(2) جمال الدِّين أقوش، ت736هـ، انظر الصفديّ: الوافي بالوفيات، 336/9.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/12.

(4) الدواداري: كنز الدرر، ص87.

6.4 صورة الجيش المسلم

صوَّر الكتَّاب قوة الجيش المسلم وشجاعته، الذي يبدّد شمل التَّتار حتّى يُحيلهم إلى رمادٍ تقذفهُ الرِّياح، إذْ يقول شهاب الدِّين محمود الحلبيّ: ((فصدمتهم جيوشنا المنصورة صدمةً بدّدت شملهم وعلمت الطير أكلهم وحصرتهم في الفضاء وطالبت أرواحهم الكافرة بدَيْن دينها، فأسرفت في الاقتضاء وحصدت منهم سيوفنا المنصورة ما يخرجُ عن وصف الواصف، ومزّقت بقيتهم في الفلوات فكانوا كرماد اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصف* ...))[1].

ويشير علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى قوة الجيش المسلم الذي يسير كالجبال الشامخة، تخيف الأعداء من قوّتها، حيث يقول: ((... والجيوش المنصورة قد أرهفت حدّ سيوفها، وأشرعت أسنّة حتوفها، وهي تسير كالجبال وتبعث كالصدى ما يرهب من طيف الخيال))[2].

والجيش الإسلاميّ بكلِّ فئاتهِ جيشُ قوةٍ وبأس، يشهد المعارك ويُبلي فيها بلاءً حسناً، يقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((... وجيوش الإسلام وكُماته وأمراؤه وحُماته، منهم من قد علمت قدم هجره، وعظم نصره، وشدّة باس** وقوة مِراس، وما منهم إلاَّ من شهد الفتوحات والحروب وأحسن في المحاماة عن الدِّين الدؤوب، وهم بقايا الدُّول ...))[3].

ويذكر الحلبيّ أنّ الجيش الإسلامي مقدامٌ قوي، يخوض الصِّعاب والمشاق في سبيل إعلاء كلمة الله، فهو يصارع البحار ويصطدم بالجبال، قائلاً: ((وليعلم أنَّ جيوشنا في المسير إليه متى قصد عدوّاً سابقت خيولها خيالها، وجازت جيادها ظلالها وأنفت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها، وها هي قد تقدّمت وأقدمت

---

* سورة إبراهيم: الآية (18).

(1) الحلبيّ: حسن التوسل، ص378.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1029.

** وردت هكذا في النصّ الأصلي.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 123/10.

ونهضت لإنجاده، فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت ...))[1].

وهذا الجيش قويٌ مقدامٌ على قمة الأُهبة والاستعداد، أذلَّ أهلَ الكفرِ وفتكَ بهم وأجرى دماءَهم ليرويَ البلدَ الماحلَ، يقولُ شهابُ الدِّين الحلبيّ: ((... وأهمُّ الأمور عندنا أمرُ الغزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلاّ مُمسكٌ بعنان فرسه، مكتحلٌ بسهاد حرسه، لا يأمن العدوُّ مهاجمة خيله في سُراه، ولا مفاجأة خَيَاله في كَرَاه، حِصنهُ ظهرُ حصانه، وجوابه على لسان سنانه، كلَّما سمع هيعةً أو وقعةً طار على متن فرسه يلتمس الموت والقتل في مظانّه؛ وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوَّخوا البلاد، وأذلُّوا أهل العناد، وطهَّروا السواحل وأجروا في كلِّ موطنَ من أنهار الدِّماء ما يُروي البلدَ الماحل، وهزموا جيوش التَّتار وهم في أعداد الكواكب))[2].

ولم يكن الجيش المسلم عظيماً في الحروب فحسب، بل في حالات السِّلم، حيث أشار إلى ذلك محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر بقوله: ((...، فبهروا العيون بومضات الحديد، وتهادت الخيول في أحسن حللها تهادياً يغيظ الكفَّار، ويستوقف النواظر وتحيّر الأفكار، ودخلوا في الطعن بالرِّماح، وأخذ الحلقة، ورمي النشَّاب...))[3].

ويشير علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر إلى العزيمة القويَّة التي تتمتّع بها الجيوش الإسلاميّة، فهي لا تتّخذ حصناً تقاتل من ورائه، وإنَّما تواجه جيوش الأعداء وتحيط بها كالسِّوار، إذْ يقول: ((وحصرتهم العساكر الإسلاميّة بعزائم كالشهاب أو النَّار، ودارت عليهم كالسِّوار والسوار، وصيّرتهم بقدرة الله في ربقة الإسار، وقاتلتهم الجيوش المنصورة غير محتمية بقرى محصّنة ولا من وراء جدار...))[4].

كما وُصِفَ جيشُ المسلمين بالصبر على المشقّات والأهوال، وعدم الشكوى، والسُّرعة في إنجاز المهمّات؛ ذلك لأنَّ الجنود يحملون في قلوبهم بغضاً شديداً للكفَّار وأهله، ويتسابقون إلى الفوز بجزيل ثواب الله وفضله. قال محيي الدِّين في البشارة

---

(1) الحلبي: حسن التوسل، ص378.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 375/7.

(3) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص424.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق13، ص1029.

بفتح طرابلس يصف ذلك: ((جنودٌ لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حزازة، فأمشطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج، ومعارج لا ترافق بها غير الرِّياح الهوج، ...، ولم يحفل أحدٌ منهم بسربٍ لاصق، ولا بجبلٍ شاهق، فقال: هذا منخفض وهذا عالٍ، وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصين))[1].

ويتحمّل الجيشُ الإسلاميّ الصعاب والمشاق، صبورٌ على الشدّة في أثناء المعارك، يقول محيي الدِّين بن عبد الظّاهر: ((... فسلك طريقاً من الأوعار يبساً، وسلك من قُلل الجبال في هضاب كأن كلاً منها ألفٌ حملت من الأنجم قبساً فقاسى العالم في هذا اليوم من الشدّة ما لا يدخل في قياس، وكادوا يهلكون لولا أنَّ الله عزّ وجلّ تدارك النَّاس فتسابقوا ولكن على مثل حدِّ السَّيف، وتسلَّلوا ولكن سلَّ حوافر الخيل كيف، وهبطوا من جبال يستصعبها كلُّ شيْ حتى طارق الطيف، يستصعب الحجر المحلّق من شاهق وقوعه في عقابها، ويستهول النجم الثاقب ترفع شعابها...))[2].

ونجدُ في رسائل الكتَّاب صوراً مشرقةً لجيش المسلمين، منها الكثرة والإقدام والحنكة والصَّبر، فهو ساهرُ الطرف لا يطرق عينيه كرى، متوقِّد العزيمة، صلبٌ يفلُّ الحديدَ ولا يُفل، وتضجر البيض من الضرب ولا يمل. قال محيي الدِّين في رسالةٍ إلى ملك اليمن: ((كم شكت النقوب من مناكبهم زحاماً، والشّرفات من الله عليه، وقدموا نفوسهم قبل إقدامهم رغبةً إليه، ورأوا الجنَّة تحت ظلال السيوف، فلم يروا دونها مقيلاً، وتحقّقوا ما أعدّه الله لأهل الشهادة، فاستحلوا وجه الموت على جهامته جميلاً))[3].

ويمتاز جيش المسلمين بالثبات والاستعداد التّام للتضحية في سبيل الله، فهم واثقون بنصر الله، مؤمنون إيماناً يثبت في مواقف الصَّبر والجلاد أقدامهم، يقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاثية

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 7/394-395.

(2) المصدر نفسه، 14/185-186.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 2/342.

عقبانها في وكور ظُباها، رابضة آسادها في غيل قناها، وما تزلزل لمؤمنٍ قدم إلاّ وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجّة إلاّ وكانت الجمعة لها ناسخة))[1].

ويذكر شهاب الدّين الحلبيّ أنّ الجيش الإسلامي يبيع أغلى ما يملك في سبيل الله، واثقاً من النَّصر، حيث يقول: ((... فتلقّتهم الجيوش المنصورة بنفوسٍ قد بايعت الله على لقاء عدوٍّ الله وعدوِّها، ووثقت بما أعدَّ الله لها من الجزاء رواحها في سبيله وغدوّها...))[2].

ويمتاز جيش المسلمين بالعدد الكبير الضَّخم، والقوّة وصدق الإيمان، وهذا الجيش يمدّه الله بالملائكة، إذْ يقول ابن تيميّة: ((خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد، قد ملأت السَّهل والجبل، في كثرة وقوّة، وعِدَّة وإيمان وصدق، قد بهرت العقول والألباب، محفوفةً بملائكة الله التي ما زال يمدُّ بها الأُمَّة الحنيفية المخلصة لبارئها، فانهزم العدوُّ بين أيديها، ولم يقف لمقابلتها))[3].

والجيش الإسلاميّ ملازمٌ لقائده في مقاتلة أعداء الإسلام، يدعو لقائده بالبقاء، يحبه ويطيعه وينقاد لهُ، حيث يقول محيي الدّين بن عبد الظَّاهر: ((... وأبادت بمرهفه البتَّار جمع التَّتار الطغام، واستخدمت لطاعته جيشين، جيش نهار بكرّ منه مواليه على أعدائه بسابق خيله ومرهف حسامه، وجيش ليل تبسط أولياء دولته أكفّهم للدُّعاء ببقائه في جنح ظلامه))[4].

ويذكر شهاب الدّين محمود الحلبيّ أنّ الجيوش الإسلاميّة تذلّ بلاد التّتار إذا دخلتها وتغيّر أحوالها وأمورها، حيث يقول: ((وما سطَّرنا هذه المكاتبة إلاّ وجيوشنا المنصورة قد وطئت عُقر بلادهم فأذلّتها وأذالتها، وغيَّرت أحوالها وحالتها، وقاسمتهم شرَّ قسمة فلها منها الحصون والمصون والجنان الوارفة الغصون، ولهم منها الخراب والتباب ...))[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 387/7.

(2) النويري: نهاية الأرب، 162/5.

(3) ابن تيميّة: الرسالة القبرصيّة، ص41-42.

(4) النويري: نهاية الأرب، 160/8.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 347/7.

الفصل الخامس

الدراسة الفنيّة

1.5 بنية العمل الأدبي، اللغة والأسلوب، والصورة والخيال

1.1.5 بنية العمل الأدبيّ

بلغت الرِّسالة الفنيّة مرتبةً عاليةً من النُّضجِ الفنيّ في العصر المملوكيّ، وقد حظيت ببعض الأدباء الذين نظّروا لبناء تلك الرسالة، فألِّفت المصنَّفات في أمر بناء الرسالة وخصائصها، وهذا الاهتمام انعكس على الرسائل الفنيّة، حيث التزم الكتَّاب بفنيَّات معيّنة، رسمها لهم نقّاد ذلك العلم. والحديث في هذا الجانب يخصُّ الرسائل الديوانيّة التي يصدرها ديوان الإنشاء، وقد بيَّنت بعضُ الدساتير الأُسس الفنيّة التي ينبغي أن تُراعى في بناء الرسالة الديوانيّة، وقد حفلت تلك الدساتير ببناء المقدِّمات والخواتيم، ولذا تميَّزت تلك المكاتبات ببعض الفروقات التي حُدِّدت، وقعِّدت في بطون تلك الدساتير.

والمتلقِّي لتلك الرسائل يجدُ بعد التفاوتِ بين ما هو مدوَّن وما عليه تلك الرسائل، ولعلَّ السبب يكمن في مَنْ دوَّن ونسخ الرسائل، حيث تمَّ الاستغناء عن بعض الفنيَّات التي اعتمدت في البدءِ والختام، وهذا الأمرُ لم يقتصر على الرسائل في العصر المملوكيّ، بل كان معروفاً قبل ذلك، فلذا أشار محمد الدروبي إلى تلك الظاهرة، فأشار إلى عبث النُسَّاخِ القُدامى في شكل عناصر بناء الرسالة في البسملة والحمدله والأدعية[1].

ومن شروط الرسالة الجيِّدة براعة الاستهلال، واتّساقها مع المقصد الذي تُبنى عليه الرسالة، فعلى النَّاظمِ أو الناثرِ ((أن يأتي في ابتداء كلامه ببيِّنةٍ أو قرينةٍ تدلُّ على مُراده في القصيد، أو الرسالة، أو الخطبة، أو معظم مراده، والكاتب أشدُ ضرورة إلى ذلك من غيره؛ ليبني كلامه على نسقٍ واحدٍ دلّ عليه من أوّل وهلة، عُلِمَ بها مقصده، إمّا في خطبةِ تقليدٍ، أو دعاء كتاب))[2].

---

(1) انظر الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العباسيّ، ص458.

(2) الحلبي: حسن التوسُّل، ص250-251؛ انظر عبد المهدي، عبد الجليل: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة، دار البشير – عمّان، 1989م، ص334.

وكان من محاسنِ الافتتاحات في الرسائل أن يفتتح الكتّاب بقبسٍ من القرآن الكريم، أو نفحةٍ طيِّبةٍ شريفةٍ من السنَّة الشريفة، أو أبياتٍ شعريةٍ بليغة، واشترطوا في هذه الافتتاحات أن تكون دالّة على المعاني المقصودة، ((إن كان فتحاً ففتح، وإن كان هناءً فهناء، أو كان عزاءً فعزاء))[1].

وذكر القلقشندي أنَّ عادة الكتَّاب جرت على أن تشتمل الرسالة على مقدمةٍ يُفتتح بها الكلام، وتكون ((مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض))[2]. ومن خلال اطّلاعنا على المراسلات التي جرت بين المسلمين المماليك والمغول لاحظنا أنَّها ((لم يكن لها نمط واحد محدَّد، بل كان بناء الرسالة معتمداً على الغرض منها، ... وعلى كونها ابتداءً أو ردّاً وقد كانت معظم رسائل الرُّدود تُبنى على الرسائل الواردة إلى السلطنة في افتتاحاتها ومادّتها وخواتيمها...))[3].

وأوّل صور البدء في الرسائل الديوانيّة البسملة، حيث تكتب في مقدمة الرسالة تبرُّكاً بالابتداء، وتيمُّناً بذكرها[4]، فنجد ايلخان غازان في كتابه إلى السُّلطان النَّاصر محمّد بن قلاوون افتتحه بالبسملة قائلاً: ((بسم الله الرَّحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، وميامين الملَّة المحمَّديّة فرمان السُّلطان محمود غازان))[5].

وكان افتتاح ردَّ السُّلطان النَّاصر محمّد بن قلاوون على الكتاب بقوله: ((بسم الله الرَّحمن الرحيم، بقوة الله تعالى وميامين الملَّة المحمَّديَّة...))[6].

---

(1) ابن الأثير، ضياء الدِّين أبو الفتح نصر الله بن محمّد الجزري (ت637هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الوفي وآخر، مطبعة الرسالة، ط1، 1962م، 96/3، 118؛ ابن الأثير الحلبيّ، نجم الدِّين أحمد بن إسماعيل الشافعيّ (ت837هـ): جوهر الكنز، تحقيق محمد زغلول سلاّم، منشأة المعارف – الإسكندرية، (د.ت)، ص218.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 279/6؛ وانظر عبد الجليل: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص336–337.

(3) خالد جبر: الرسالة الفنيّة في العصر المملوكيّ الأول، ص164.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 222/6.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1016.

(6) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1018.

ويبرز التهديد في كتاب غازان، إذ يقول: ((...، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تتداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم))[1].

ويردُّ السُّلطان النَّاصر على التهديد قائلاً: ((... وأمَّا قولهم وإلاَّ فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بالاَّ يصدر إليهم عن ذلك صواب...))[2].

((وهكذا يستمرُّ كتاب غازان بالتهديد والتخويف حتّى الختام وبالأُسلوب نفسه يُردُّ على الكتاب منذ افتتاحيّة الرسالة وحتّى ختامها))[3].

ويفتتح غازان كتاباً آخر إلى السُّلطان النَّاصر قائلاً: ((بقوة الله تعالى وإهداء السَّلام إليكم، إنَّ الله تعالى جعلنا وإيَّاكم من أهلِ مِلَّةٍ واحدة ...))[4].

ويردُّ عليه النَّاصر بقوله: ((بسم الله الرَّحمن الرحيم بقوة الله وإقبال دولة السُّلطان الملك النَّاصر ...))[5].

ونجد كتاب غازان إلى السُّلطان النَّاصر يشتمل على قضايا كثيرة، ردَّ السُّلطان النَّاصر عليها ردَّاً مفصَّلاً لكلِّ فكرةٍ عرضها غازان في كتابه، وقد اختتم كتابه بقوله: ((...، فإذا عاد من الملك الجواب، فليسيِّر إلينا هديّة الدِّيار المصريّة كهدايا الأحباب، لتعلمَ أنَّ بإرسال الهديَّة، وقد حصل منكم في إجابتنا إلى الصُّلح نيَّة، ونهدي من بلادنا ما يليق أن يُهدى إليكم والسَّلام الطيِّب منَّا عليكم إن شاء الله تعالى...))[6].

وكان ردُّ النَّاصر عليه: ((وأمَّا طلب الملك الهديّة، من الدِّيار المصريّة فليس نبخل عليه وقدره عندنا أجلّ مقدار، وجميع ما يُهدى إليه دون قدره، وإن تغاليْنا في

---

(1) المصدر السابق، ج1، ق3، ص1017.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص1023.

(3) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص101.

(4) الدواداري: كنز الدُّرر، ص53.

(5) المصدر نفسه، ص66.

(6) المصدر نفسه، ص56.

الإكثار. وإنَّما الواجب أن يُهدى إلينا من العراق بأصنافها، لنقابل هديَّته إن شــاء الله* بأضعافها، ونتحقّق صدق نيّته وما انعقدت عليه طويَّته، لنفعل بعد ذلك ما يُرضـــي الله عزّ وجلّ وإن كنَّا فاعلين ويكــون محلّــه عنــدنا أشــرف محــل، والحمــد لله رب العالمين...))(1).

وبعض المراسلات المتبادلة بين المسلمين المماليك والمغول افتتحت بآي مـــن الذِّكر الحكيم، ثمَّ يتبعها عباراتُ إرعادٍ وتهديد، فنجد تيمورلنك يفتتح نصَّ كتابهِ إلـــى السُّلطان الملك الظَّاهر برقوق بقوله: ((قل اللهمَّ فاطر السموات والأرض، عالمُ الغيبُ والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، واعلموا أنّا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلَّطون على من حلَّ عليه غضبه، لا نرقُّ لشاكٍ، ولا نرحمُ باكيـــاً، قـــد نزع اللهُ الرحمةَ من قلوبنا، فالويل ثمَّ الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا، فقـــد خربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلّت لنا أعزَّتها، وملكنـــا بالشوكة أزمتها، فإن خيّل ذلك على السَّامع وأشكل وقال إنَّ فيه عليه مشكلاً فقل لـــه: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾** وذلـــك لكثـــرة عـــددنا وشـــدّة بأسنا...))(2).

ونلحظُ من النصِّ السابق وضوح لهجة التجبُّر والقسوة والغُرور والطاغوتيّـــة في خطاب تيمورلنك، وهذه اللهجة تنسحبُ على العديدِ من خطابات ملـــوك المغـــول، سوف نشيرُ إليها آنفاً.

وبالمقابل يفتتح السُّلطان الملك الظَّاهر برقوق كتاب جوابه بآي مـــن القـــرآن الكريم، ثمَّ يتبعها بردٍّ على ما ذكره من ظلمٍ وتعسُّف، حيث يقول: ((﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾***، حـــصل الوقـــوف

---

* وردت في النص (انشاء الله).

(1) الدواداري: كنز الدُّرر، ص70.

** سورة النمل، آية (34).

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص803-804.

*** سورة آل عمران، آية (26).

نلحظُ أنّ الاستهلالَ في الرسالة السابقة يختلف عن أي رسالة أُخرى واردة من ملك مغوليّ، فقد شرع كاتبُ الرسالة بموضوعه مباشرةً دون التمهيد لــه بمــصطلح محدَّد، أو عبارةٍ معيّنة[1] كما في رسالة هولاكو إلى الملك قطــز ســنة 658هـــ إذ يفتتحها قائلاً: ((من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظــم، باســمك اللهــمَّ باســط الأرضِ ورافع السَّماء ...))[2].

ثمّ يهدّد هولاكو قائلاً: ((... يعلم الملك المظفَّر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالدِّيار المصريّة وما حولها من الأعمال، أنّنا جند الله في أرضه، خلقنــا مــن سخطه، وسلَّطنا على من أحلَّ عليه غضبه، فسلِّموا إلينا أُمــوركم تــسلَموا، قبــل أن ينكشف الغطاء فتندموا، وقد عرفتم أنّنا خرّبنــا الــبلاد، وقتلنــا العبــاد فلكــم منّــا الهرب...))[3].

ويشير القلقشندي إلى أنّ كتب المغول قبل دخولهم إلى الإسلام كانت تــصرِّح بالقسوة والعداوة[4]، وهذا يبدو جليّاً وواضحاً فيما عرضته من الرسالتين السابقتين.

ويرى ناظم رشيد في مقاله (من آثار الغزو التتري في الأدب) أنَّ كاتبَ هاتين الرسالتين: رسالة هولاكو إلى النَّاصر صاحب حلب ورسالته إلى قطز، ليس إنــساناً مغوليّاً؟! فمن الذي يصف قومه بالوحشيّة والقسوة، إذْ يقول: ((ألا يرى القــارئ فــي هذه الرسالة أنّ كاتبها يكره التَّتر، ويُبطن لهم الحقد، ويضمر لهم الــشرّ، وإلاَّ كيــف تفسِّر قول هولاكو عن نفسه: "خلقنا من سخطه" و"نحن الكفرة"...))[5].

فالكاتب يجيد الأُسلوب الشائع في كتابة الرسائل من اعتماد المحسّنات والإتِّكاء على القرآن والشعر[6]، كما تجده يسخر من هولاكو ويظهر غرورة وتجبّره، وكأنّــه يُحذِّر السلاطين المسلمين منه[7].

---

(1) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص105.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 63/8.
(3) انظر المصدر نفسه، 63/8.
(4) انظر المصدر نفسه، 63/8.
(5) ناظم رشيد: من آثار الغزو التَّتري في الأدب، ص200.
(6) انظر المرجع نفسه، ص198.
(7) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص105-106.

وكانت بعض رسائل المغول – ولا سيَّما بعد دخولهم الإسلام – تفتتح ((بأن يكتب بعد البسملة "بقوة الله تعالى" ثمّ يكتب بعد ذلك "بإقبال قان فرمان" يعني كلام فلان))[1].

ومن الأمثلة على ذلك نصّ كتاب لغازان يفتتحهُ بقوله: ((بقوة الله تعالى وميثاق الملّة المحمّديّة فرمان السُّلطان محمود غازان...))[2].

لقد اهتمَّ الكتَّاب المسلمون ببناء النُّصوص المتنوِّعة الأخرى – والتي كان للمغول ذكرٌ فيها – ولا سيَّما استهلالها، فقد افتتح معظم كتَّاب هذا العصر رسائل الغزو بالتحميد والخطبة، وقد كان لورود الحمدلة السبب ذاته في ورود البسملة، حيث التبرُّك والتيمُّن، يورد القلقشندي حديثاً شريفاً مرويَّاً عن أبي هريرة ﷺ مفاده قول الرسول ﷺ ((كلُّ أمرٍ ذي بال لا يبدأ بحمد الله فهو أجذم))[3].

ومن رسائل الغزو التي افتتحها الكتَّاب بالتحميد والخطبة رسالة الروض الزاهر في غزوة الملك النَّاصر حيث افتتحها علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر قائلاً: ((الحمد لله الذي أيَّدَ الدِّين المحمَّدي بناصره وحمى حماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد في أوّل الزَّمان وآخره ...))[4].

ويستهلّ الحلبيّ كتابَ تقليدٍ لمتملِّك سيس بالتحميد، إذ يقول: ((الحمد الله الذي خصَّ أيَّامنا الزَّاهرة باصطناع ملوك الملل، وفضل دولتنا القاهرة بإجابة من سأل بعض ما أحرزته لها البيض والأُسل وجعل من خصائص ملكنا إطلاق الممالك وإعطاء الدُّول...))[5].

وفي بعض الأحيان يذكر الكتَّاب التركيب "أمَّا بعد" ثمّ يقدِّم الخطبة، ومن الأمثلة على ذلك كتاب عهد الملك النَّاصر محمّد بن قلاوون الذي أنشأه شمس الدِّين إبراهيم بن القيسرانيّ، إذْ يقول: ((هذا عهدٌ يعمر بك للإسلام المعاهد، وينصر منك

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 64/8.

(2) الدواداري: كنز الدُّرر، ص20.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 224/6-225.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1027.

(5) الحلبيّ: حسن التوسُّل، ص369.

الاعتزام فتغنى عن الموالي والمعاضد – إلى أن يقول – ((من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العبّاس أحمد أمير المؤمنين، إلى السُّلطان الأجلّ العالم، العادل، المجاهد، المرابط، المظفَّر، الملك، النَّاصر، ناصر الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، سيِّد الملوك والسَّلاطين، فاتح الأمصار، مبيد الأرمن والفرج والتَّتار)) – إلى أن يقول – ((أمّا بعد فالحمد لله الذي أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر، وأحلَّ في السلطنة المعظَّمة من استحقَّها بذاته الشريفة وشرف العناصر ...))[1].

أمّا كتب التّهاني بالفتوح، فهنالك بسطٌ في الكلام، فيقوم الكتَّاب على شكر الله عزّ وجلّ لِمَا حقّق من نصر مظفّر، ويمدحون القادة العظام الذين أبلوا بلاءً حسناً في المعركة ويصفون جيش العدو وقوّته وما آلت إليه حالهم بعد هزيمتهم في المعركة.

ويختلف استهلال الأدباء لكتب التهاني بالفتوح، فنجد الكاتب محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر يفتتح كتاب بشرى بالنَّصر في وقعة حمص بقوله: ((أعزَّ الله نصرة المقام العالي المظفَّريّ، الشمسيْ. ولا زالت البشاير تورد على سمعهِ وتوقد على ربعهِ ...))[2].

بينما نجد جمال الدِّين محمّد بن المكرم الأنصاريّ افتتح كتاب بشرى بنصر المسلمين على التَّتار سنة 694هـ إذْ يقول: ((أدام الله نعمة المجلس الفلاني، وأسمعه من أنبائنا السَّارّة ما يُبهج الأيَّام، ويسرُّ الأنام، ويشدُّ أزر الإسلام، ويدخل قلب كلِّ مؤمنٍ بسلام))[3].

ويستهلّ ابن تيميّة رسالته إلى السُّلطان النَّاصر في شأن التَّتار بحشدِ آياتٍ من القرآن الكريم، ثمّ يُتبعها بالسَّلام والتحميد والصَّلاة على سيّد المرسلين ويذكر "أمّا

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 59/10.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص223.

(3) المصدر نفسه، م8، ص191.

بعد"، ومن ثمَّ يشرع بموضوعه إذْ يقول[1]: ((بسم الله الرَّحمن الرحيم ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

ومن ثمَّ يقول: ((إلى سلطان المسلمين، نصر الله به الدِّين، وقمع بـه الكفَّـار والمنافقين، وأعزَّ به الجند المؤمنين، وأذلهم به على القوم المفسدين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فإنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، وهو أهلٌ، وهو على كلِّ شيء قـدير، ونسأله أن يصلِّي على محمّد عبده ورسوله، صـلى الله عليـه وسـلَّم تـسليماً. أمّـا بعد...))[3].

أمّا حسن التخلُّص عند الكتَّاب فاختلف في بعض الأحيان مـن رسـالةٍ إلـى أُخرى، فالمراسلات ما بين المسلمين والمغول اتّخذت نمطاً عاماً في حُسن الـتخلُّص كما في افتتاحها وخواتيمها، فقد تخلَّص الملك النَّاصر في الردِّ على كتـاب الـسُّلطان محمود غازان قائلاً: ((فليعلم السُّلطان المعظَّم محمود غازان أنّ كتابه ورد...))[4].

أمَّا في كتب العهود، فقد تخلَّص الكتَّاب بتركيب "وبعد"، كما فعل محيي الـدِّين ابن عبد الظَّاهر فقد تخلَّص من التحميد في عهد السلطان الملك المنـصور قـلاوون بقوله: ((وبعد حمد الله على أنَّ أحمد عواقب الأُمور وأظهر للإسلام سلطاناً اشتدَّت به للأمَّة الظهور))[5].

وفي رسائل الغزو، نجد علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر قد تخلَّـص فـي كتابـهِ (الروض الزَّاهر في غزوة الملك النَّاصر) بعد التحميد والدُّعاء بقوله: ((وبعـد فـإنَّ الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق – إلى أن يقول – ولمَّا كانـت هـذه الغـزوة المبرورة والحركات التي عدّت حسناتها في صحائفِ القبول مسطورة...))[6].

---

(1) ابن تيميَّة: رسالة ابن تيميَّة، ص9.

(2) سورة التوبة، آية (33).

(3) ابن تيميّة: رسالة ابن تيميّة، ص10.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1018.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 121/10.

(6) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1027-1028.

ومن ألفاظ حُسن التخلُّص التي يُستشعر من خلالها بالانتقال من الافتتاح إلى الموضوع تركيب "ولمّا كان فلان"، فقد تخلَّص محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في رسالته بفتح الظَّاهر لقيساريّة الرُّوم قائلاً: ((ولمَّا كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد – إلى أن يقول – رأى أن يُتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بُلمح يُختار منها من يؤلف – إلى أن يقول – وتالله ما ورَّخ مثلها في التواريخ الأول...))[1].

وفي رسالته ببشرى فتح طرابلس، فقد تخلَّص محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر بقوله: ((المملوك يخدم خدمه – إلى أن يقول – ولمَّا كانت ... غزوات مولانا السُّلطان ملك البسيطة ...))[2].

وكان ختام رسائل العهود والغزوات بالحثِّ على الجهاد والدُّعاء[3]. وفي بعض الأحيان تُختم بالشِّعر؛ كرسالة محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في فتح الظَّاهر لقيساريّة الرُّوم، إذ يقول[4]:

وجلوس في باب دَارِكَ خيرٌ	من جلوسٍ في بابِ إيوان كسرى
والتماحي لنور وجهكَ خيرٌ	لي من أنَّني أُشاهدُ بدرا
لك مدحٌ قد طبّق الأرضَ سُبحَا	ن إلهٍ به إلى النَّاسِ أسرى

بنية الخطبة:

استهلَّ الخليفة العبّاسيّ الحاكم بأمر الله نصَّ خطبته بمقدِّمة اشتملت على التحميد لله وشكره على ما بعث للأمَّةِ العباسيّة من حافظٍ وناصرٍ لها، ثمَّ الشهادتين والصّلاة على سيّدنا محمد ﷺ، قال: ((الحمد لله الذي أقام لآل العبَّاس ركناً وظهيراً وجعله لهم من لدنه سلطاناً نصيراً، أحمده على السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، وأستعينه على شكرِ

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/158-159.

(2) المصدر نفسه، 7/393.

(3) انظر المصدر نفسه، 10/120-124.

(4) انظر المصدر نفسه، 14/187-188.

ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على دفع الأعداء وأشهد أنْ لا إلــه إلاّ الله وحــده لا شريك له وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه))[1].

ومن ثمَّ يحثُّ الخطيب النَّاس على الجهاد: ((أيُّها النَّاسُ اعلمــوا أنَّ الإمامــة فرض من فروض الإسلام والجهاد محتوم على جميع الأنـــام، ولا يقــوم الجهــاد إلاَّ بإجماع كلمة العباد))[2].

ويدلِّل الخطيب على سبب اجتياح المغول العــالم الإســلامي بطريقــة غيــر مباشرة، فالدماء لا تحقن إلاّ نتيجة ارتكاب المعاصــي والآثـــام، إذْ يقــول: ((... ولا سُبيت الحرم إلاَّ بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدِّماء إلاَّ بارتكاب المآثم...))[3].

ثمَّ يشير الخطيب إلى عنف الغزو المغوليّ لمدينة دار السَّلام: ((فلــو شــاهدتم أعداء الإسلام لمَّا دخلوا دار السَّلام، واستباحوا الدِّماء والأمــوال، وقتلــوا الرِّجــال والأطفال...))[4].

ويختتم الخطيب خطبته بالدُّعاء للمسلمين والاســتغفار مــن الله عــزّ وجــلّ ((واستغفر الله العظيم لي ولكم ولــسائر المــسلمين، فاســتغروه إنّــه هــو الغفــور الرَّحيم))[5].

ويستهلُّ ابن المنير قاضي الإسكندرية نصَّ خطبته التي خطبها سنة 658هـــ عندما ملك المغول الشَّام، بالتحميد لله عزّ وجلّ، والدُّعاء لهُ بأن يلطف بعباده؛ نتيجــة المصيبة التي ألمَّت بهم، حيث يقول: ((الحمد لله الــذي يــرحمُ العيــون إذا دمعــت، والقلوب إذا خشعت، والنُّفوس إذا اتَّضعت، والعــزائم إذا اجتمعــت، والموجــود إذا الأسباب انقطعت، والمقصود إذا الأبواب امتنعت، اللطيــف إذا صــدمت الخطــوب وصرعت...))[6].

---

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 188/2.
(2) المصدر نفسه، 188/2.
(3) المصدر نفسه، 188/2.
(4) انظر المصدر نفسه، 189/2.
(5) المصدر نفسه، 189/2.
(6) المصدر نفسه، 208/4.

ثمّ الشهادتين والصَّلاة على الرسول وآله وصحبه أجمعين[1]، ومن ثمَّ يشير ابن المنير الإسكندري إلى الفتنة التي ألمَّت بالمسلمين، ويربطها بما أصاب المسلمين من جهلٍ وضلالٍ قبل إعلان الإسلام، إذْ يقول: ((... والفتنة قد احتدّت، والحاجة قد اشتدَّت، ويدُّ الضلالِ قد امتدَّت، وظلمات الظلم قد اسودَّت، والجاهليّة قد أخذت نهايتها...))[2].

ويختتم الخطيب خطبته بدعوة النَّاس إلى التمسُّك بشريعة الخالق ليصلحوا ما أصابهم من خرابٍ ودمارٍ، إذْ يقول: ((... فالله الله الاعتبار، الاعتبار، فأنتم السُّعداء إذا وعظتم بالاعتبار، أصلحوا ما فسد فإنَّ الفساد يقدمه الدَّمار وأسلكوا الجدد، تنجوا في الدنيا من العار، وفي الآخرة من النَّار، اتَّقوا الله وأصلحوا تفلحوا وسلموا تسلموا، وعلى التوبة صمِّموا واعزموا...))[3].

بنية المقامة:

سار الكازروني على نهجِ المقاميين في استهلال مقاماتهم، وذلك بافتتاحها بالتركيب المألوف "حدَّثنا" مشيراً في بداية المقامة إلى عظمةِ مدينة بغداد، حيث يقول: ((حدَّثنا قاضي تبريز، وهو من ثقات المحدثين ...، قال: كنت لا أريم عن بلدي المألوف ولو رغبت بالأُلوف. وكنت ضنيناً أن أفارق بلدة بتربتها نيطت عليّ التمائم. إلاَّ أنّي كنت أسمع من جواب الأقطار...، أنَّ دار السَّلام هي كعبة الإسلام، وحرم الإمام، ومعدن الكرام، ودار الخلافة ومحل الأمن من المخافة، ...، وقطَّانها أعذب النَّاس أخلاقاً، وأكثرهم حياءً وإطراقاً ...))[4].

ثمَّ يشير إلى نيَّتِهِ بالرَّحيل إلى بغداد ((فخطر ببالي في بعض اللَّيالي، أن ألبس سربالي البالي، وأفارق أشبالي، وأجعل على الدِّين اتِّكالي ...))[5].

---

(1) انظر المصدر السابق، 208/4.

(2) المصدر نفسه، 208/4.

(3) المصدر نفسه، 209/4.

(4) ابن الكازروني: مقامة في قواعد بغداد، ص14.

(5) المصدر نفسه، ص15.

ويصف لنا حال بغداد حال وصوله إليها، حيث كانت مدمَّرة، خاليـة، خاويـة على عروشها: ((فلمَّا اقتعدت راحلتي، وأنضيتها في قطع مسافتي، وافيتها بلدة خالية، وأمَّة جالية ...، قد رحل عنها سكَّانها، ...، فوقفتُ أبكيها وأندبُ ربوعها...))(1).

ويصادف قاضي تبريز أحد سكَّان المدينة، فيصف لهُ ما اقترفته أيدي التَّتـار من قتلٍ وخرابٍ وتدميرٍ في بغداد(2).

ويختتم ابن الكازروني بناء مقامته بالتحميد والصَّلاة على سيِّدنا محمد صـلى الله عليه وسلَّم.

أمَّا مقامة الرسعني، فلم يصل إلينا منها إلاَّ سبعة عشر سطراً، إذْ يقـول ابـن الوردي قبل أن يوردها ((رأيت مقامةً مرصَّعةً وصفها الشيخ الرسعني، وذكـر فيهـا وقعة حلب، ولعلَّها من أحسن ما قيل في ذلك فمنها ...))(3).

فما وصل إلينا من مقامة الرسعني ما هو إلاَّ جزءٌ من لُبِّ المقامة فقط، يـشير فيه إلى ما جرى في حلب من عذابٍ ونكالٍ على أيدي التَّتار، إذْ يقول: ((... هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشَّام وهملت عيون العناء كالغمام ... وحلبت العيون ماءها علـى حلب ... والتفَّ عليها الختل والاختلال ...))(4). أمّا مقدّمة المقامة وخاتمتهـا فغيـر واردة.

وقد حشد الرسعني الألفاظ والمعاني المتكرّرة، مشيراً إلى ما جرى في حلـب، ومدلِّلاً على وحشيّة المغول آنذاك.

2.1.5 اللُّغة والأُسلوب

إنَّ الكتَّاب في العصر المملوكيّ اهتمُّوا أيَّما اهتمامٍ باللّغة والأُسلوب في عرض كتاباتهم، وعند الحديث عن اللّغة يتَّضح للمتلقِّي أنَّ الرسـائل فـي غايـةِ الوضـوحِ والبساطةِ، حيثُ لا يجدُ المرءُ مفردات غريبة في تلك الرسائل إلاَّ في القليل النـادر. وقد ذكر ابن الأثير أنَّ الكاتب يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: اللفظة المفردة، فعلى

---

(1) المصدر نفسه، ص15.

(2) انظر المصدر نفسه، ص15-17.

(3) ابن الوردي: تتمّة المختصر، 308/2.

(4) المصدر نفسه، 308/2.

الكاتب تخيُّرها، ثمَّ نظم كلِّ مفردةٍ مع أُختها لكي لا يكون كلامه نافراً قلقاً، يلي ذلك مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام(1).

وعند مطالعة مجمل الكتابات المتعلِّقة بالغزو المغوليّ نجدها في مجملها تجنح نحو البساطة والابتعاد عن التعقيد، وقد نسب محمود رزق سليم هذه الميزة إلى سهولة البيئة، ووضوح أجزائها، وقلّة تعقيد تضاريسها وجوّها، إضافةٍ إلى لون الثقافة الذي كان سائداً، حيث البُعد عن المغيبات والبحث فيما وراء الطبيعة(2).

وفي الحقيقة لا يمكن وصف جميع ما كتبوا بالسُّهولة والوضوح، ولكنَّ الخطّ العام يغلب عليه الوضوح والبساطة، وقد بدت هذه البساطة في رسائلهم، حيث لا يحتاج المرء إلى إعمال فكره كثيراً في تحليل أبعادها.

فقد اتَّسمت الرسائل الديوانيّة بالوضوح التَّام، والبُعد عن التعقيد وحوشي الكلام. فقد جاء في تقليد للشهاب الحلبيّ قوله: ((وبعد فإنّه لمَّا آتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنّة ممالك الأقطار محيطة، ومكَّن لنا في الأرض، وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنّة والفرض، وجعل كل يوم معرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض ...))(3).

والنَّاظر في تلك الفقرة يجدها في غاية الوضوح والبُعد عن التعقيد، لا بل اعتمد الكاتب ألفاظاً جزلة تُناسب تقريع متملّك سيّس. فالألفاظ في مجملها جزلة متينة، تلاقي عذوبة في الفمِّ، ولذّة في السَّمع(4)، والحلبيّ لا تخفى عليه هذه الأُمور، حيث تمرَّس بهذا الفنّ وتفنَّن.

وكما اهتمَّ الكتَّاب بوضوح أساليبهم، وبُعدهم عن الغموض والغرابة والإبهام، حفلوا باختيار وانتقاء ألفاظهم، فجعلوا لكلِّ مناسبةٍ ألفاظاً تروق لها، مراعين الأحوال والمناسبات، رابطين بين الألفاظ ومدلولاتها. فقد اختاروا الألفاظ الجزلة في موضوعات تقريع الأعداء وتهديدهم، وقد علّق على ذلك ابن الأثير قائلاً: ((فالجزلُ

---

(1) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 142/1.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 413/6.

(3) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص370.

(4) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 168/1.

منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك))[1].

وللتدليل على ذلك، نأخذ فقرةً من رسالةٍ للشهاب الحلبيّ في وصف خور الأعداء: ((وأمَّا الجبان في القول، والقولُ يذهب في الرِّياح، وقد علموا أنَّهم ما أقدموا إلاَّ وكان أحد سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النَّجاح، فكان لهم في غير النجاة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والجازر لا تهوّله كثرة الغنم، ويستكثرون من السّواد ووجود من لا ينفع أشبه شيء بالعدم، فقوّتهم ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حِلِّ العقال، وصبرهم أسرع من الظلِّ في الانتقال))[2].

ومن اللاّفت للنَّظر اختيار الألفاظ في هذه الفقرة الدَّالة على تقريع العدو والاستخفاف به، فمن تلك الألفاظ الجزلة في الفقرة: الاحتشاد، الجازر، هول، السَّواد، العدم. وفي الحقيقة أنَّ جميع الألفاظ توحي بالشدّة والتهديد. وقد تآزرت هذه المفردات في تشكيل صور تثير الخوف في نفس العدو، كصورة الجازر وسط قطيع الأغنام، وصورة فرارهم من أول وهلة، إلى غير ذلك من صور أُخرى في الرِّسالة.

ومن رسالةٍ لمحيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في وصف مسير السُّلطان لفتح قيساريّة، جاء قول الكاتب يصف قوة المسلمين وهزيمة التَّتار: ((وأمّا العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوفٍ وقسيّ وكنائن، وما يلبسونه من خوذٍ ودروعٍ وجواشن، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلّم من استشهد من المسلمين رضوانُ، وتسلّم من قتل من الكفَّار مالك))[3].

ولا تخفى هنا جزالة الألفاظ وفخامة دلالتها على الحدث، فرسم صورة من خلال ترابط وتآلف هذه الألفاظ، توحي بعزّة المسلمين، وذلِّ الكفَّار، وعلى هذا السبيل تسير معظم الرسائل التي تعالج قضايا حربيّة أو جهاديّة.

---

(1) المصدر السابق، 168/1.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص350.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 167/14.

وقد تنبَّه كتّاب ذلك العصر إلى ائتلاف الأُسلوب مع المضامين والأغـراض، فلكلِّ مناسبةٍ قولٌ مناسب، بل سياق مواتٍ. وفي الحقيقة أنّ الحلبيّ وضع منهجاً دقيقـاً في ائتلاف الأسلوب مع الموضوع، ومراعاة الأحوال والمناسـبات، منظِّـراً لأبنـاء عصره الذين يمارسون حرفة الكتابة الرسميّة في المقام الأول.

وحتّى يتصوّر ذلك المفهوم تُجمل آراؤه[1] التي طرحها بشأن ذلك الأمر علـى سبيل الاختصار الذي يفضي إلى الفهم، فقد ذكر أنَّ الكاتب إذا أراد أن يكتـب عـن السلطان إلى أحد نوّابه وقادته وقت الحرب، فعليه الإيجاز، واختيار الألفـاظ البليغـة الدَّالة على القصد مع عدم التهويل لشأن العدو. ولكن إذا كتب في وقت حركات العدو محذِّراً أهل الثغور، فعليه بسط القول، وإثارة الحميّة، وهنا يُحسن بسط القول، وعنـد الكتابة بأمور الفتوحات والتهاني، فيجب شكر الله والثَّناء عليه، وبـسط القـول، وإذا كانت المناسبة لتقريع مَنْ والى العدو بفضل، يذكر ألواناً من أساليب التوبيخ والـتهكُّم والتهديد، ولكنَّ الكاتب إذا تصدَّى لوصف الخيـل أو الـسِّلاح أو الجـوارح أو آلات الحرب والحصون، فعليه بسط القول.

وقد أوضح ابن الصيرفيّ الأسلوب الواجب اتّباعه في مكاتبة غير العـرب، إذْ يقول: ((وليس يُحتاج في مكاتبات أهل اللغات المخالفة لغير المعاني السَّديدة، البريئـة من الاستعارات والكتابات الصائبة لمواضع الحجج، التي تبقـى جزالتهـا ونـضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة))[2]، وقال بأنَّ الكاتب إلى من لا يعرف العربيّـة ((لا ينبغي لـهُ أن يُلـمَّ بالألفـاظ المـسجوعة، ولا ضـرب الأمثـال والتـشبيهات والاستعارات، فإنَّ ذلك إنَّما يُستحسن ما دام مفهوماً في تلك اللغة، وغير منقول إلـى غيرها))[3]. وقد أثَّر رأي ابن الصيرفيّ فيمن جاء بعده من الكتَّاب، ومصداق ذلك أنَّ

---

(1) انظر الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص330-343.

(2) ابن الصيرفيّ، نور الدِّين علي بن داود الجوهري (ت900هـ): قانون ديوان الرسائل، مطبعة الواعظ – مصر، 1951، ص129.

(3) المصدر نفسه، ص129.

نصوص المعاهدات التي عُدت بين المسلمين والغزاة المغــول، خلــت مــن البــديع والزخرفة اللفظيّة، إذْ كان القصد منها وضوح المعاني من أقرب سبيل(1).

امتاز أُسلوب هذا العصر بالإتّكاء على المحسّنات البديعيّــة والاعتمــاد علــى القرآن الكريم والحديث الشريف والشّعر والرَّسائل والأمثال وقصص العرب.

وقد أشار محمّد عبد المنعم خفاجي إلى طريقة الكتَّاب فــي هــذا العــصر، إذْ يقول: ((وقد سار الكتَّاب في هذا العصر المملوكيّ على طريقة القاضي الفاضل))(2).

لقد شاعت طريقة القاضي بخصائصها المعروفة من السَّجع الطويــل الكثيــر الفقرات، ومن المحسَّنات كالطِّباق والجناس ومراعاة النظير والتورية والاستخدام، كما يقول محمّد خفاجي(3).

وأشار كثير من الباحثين إلى تأثير الطريقة الفاضليّة في الكتابــة فــي عهــد المماليك. إذْ يقول محمّد الحبيب بن خوجة: ((وإنَّا مع ذلك لفي حاجةٍ إلى الإشارة إلى ما طُبع به رجال هذا العصر طريقتهم في الترسُّل، فقــد أخــذوا بمــذهب القاضــي الفاضل، وهذا المذهب معناه أنّ الكاتب لا يقتصر على تــصوير المعــاني بالألفــاظ القريبة التي تحضر ذهنه عندما يريد التعبير كما نفعل اليوم، بل نجــده ينتقــي هــذه الألفاظ، ويختار منها الأجود والأصلح لأداء المعنى المراد، ثــمَّ هــو يحــرص كــلَّ الحرص على أن يكون لتأليفهم إيقاعات موسيقيّة ...))(4).

كما أشار محمود رزق سليم إلى مذهب القاضي الفاضل قائلاً: ((ولقــد كــان للقاضي الفاضل عميد الأدباء في العصر الأيوبي أثرٌ بارزٌ في الكتابة والــشعر فــي

---

(1) انظر بدوي: الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبية، ص330.

(2) خفاجي، محمّد عبد المنعم: الحياة الأدبيّة بعد سقوط بغداد حتّى العصر الحديث، دار الجيل – بيروت، ط1، 1990، ص65.

(3) المرجع نفسه، ص66.

(4) ابن الخوجة، محمّد الحبيب: عصر المماليك؛ الترسّل وابــن عبــد الظّــاهر، تــونس، ط1، 1956م، ص42.

العصر المملوكيّ؛ لأنَّه ابتدع للأسلوب طريقته البديعيّة الخاصة التي أساسها الإكثار من المحسّنات))[1].

وتعدُّ ثقافة الكتَّاب في عصر المماليك من أهم العوامل المحدّدة لأساليبهم، ((والحديث عن أثر الثقافة في الرسائل أسلوبياً وموضوعياً لا يلغي أثر البيئة فيها، لكن المطالع الباحث يجد أنَّ أثر الثقافة قد تجاوز أثر البيئة، وبخاصةٍ من حيث الأسلوب))[2].

وقد كان للبيئة دورٌ في تحديد وتطوير الأسلوب آنذاك، فالبيئة المتنوِّعة والجميلة تشحذ قرائح الأدباء، على خلافِ البيئة فقيرة التنوُّع التي تغلق أبوابها أمام الأدباء. يقول محمود رزق سليم في مقارنته ما بين البيئة المصريّة والبيئة الشَّاميّة: ((... أنّ البيئة المصرية قليلة المناظر، متشابهة الأجزاء، ضعيفة بهذا التنوّع في الشكل واللون والثمر، هذا التنوع الذي يفتِّق أخيلة الأدباء، ويفتح أمامها آفاقاً من التصوُّرات المبتكرة، والبيئة الشاميّة أكثر منها تنوُّعاً، ولعلَّ هذا الفرق مضافاً إليه ما انتاب بلاد الشّام من اتّصال بأُمم التّتار والفرنجة وغيرهم؛ كان ذا أثر في ذيوع الوصف في أدب الشَّام مع دقّته ورقَّته بالقياس إلى نظيره في أدب مصر...))[3].

وكان لآراء بعض الكتَّاب والنقَّاد الدور المهم في رسم الإطار العام للأسلوب في هذا العصر، فضلاً عن العامل الثقافي، الذي فرضته طبيعة المرحلة التي واجهت فيها الأمّة أعداءً لهم عقائدهم وثقافاتهم، فعادت إلى الأُصول العربيّة الإسلاميّة[4]، فكان أن نشأ عن ذلك ثقافة موسوعيّة[5] تستند إلى أُصول دينيّة، ولغوية، وأدبيّة.

---

(1) محمود سليم: عصر سلاطين المماليك، 116/6.

(2) خالد جبر: الرسالة الفنيّة في العصر المملوكيّ الأول، ص167.

(3) محمود سليم: عصر سلاطين المماليك، 282/6.

(4) ضيف، شوقي: البحث الأدبي، دار المعارف – القاهرة، 1976م، ص54.

(5) محمود سليم: عصر سلاطين المماليك، 108/5، 110.

3.1.5 الصُّورة الفنيَّة

يعدُّ التخييل من أبرز الوسائل التي يلجأ إليها الأدباء لتكوين صور فنيَّة معبِّرة[1]، وهو ((من أهم الفنون البلاغيّة؛ لأنَّه يتَّصل بالإبداع والخلق الفنيّ))[2]، وقد تكون الصورة الكلاميّة الفنيّة أجمل من تلك التي تبدعها ريشة المصوِّر؛ إذ إن لمّ مكوِّناتها، وتمثيلها أمام عين البصيرة ماثلةً بأشكالها وألوانها، وحركة عناصرها، وعبقها، وظلالها تضفي عليها طابعاً مميّزاً، يحتاج ذوقاً رفيعاً، وقدرة على الرَّبط بين المتفرِّقات، وإعمالاً للفكر للتوصُّل إلى جماليَّتها.

وقبل الحديث عن الصورة والخيال في كتابات الأدباء المتعلِّقة بالغزو المغوليّ في العصر المملوكيّ، لا بُدَّ من التنويه عن أمرٍ لافتٍ للنظر وهو اتّخاذهم الرسالة على أنّها قطعة فنيّة أو قصيدة شعريّة، ولذا أدقّوا في رسم لوحتها، وخاصةً الرسائل الوصفيّة الجهاديّة التي اهتمَّ كتّابها بتصوير المجاهدين، والأعداء وحصونهم قبل الفتح وبعده، وعنوا بتصوير أحداث المعارك وما انجلت عنه من قتلٍ وأسرٍ في صفوف المغول، وصوَّروا الأسلحة والأساليب القتاليّة من حصارٍ وزحفٍ، كما صوَّروا القائد المغوليّ المهزوم وجيشه، وهي صورٌ شارك في رسمِ ملامِحها الفنون البيانيّة؛ كالتشبيه والاستعارة، والبديعية كالطباق والمقابلة. فقد أطلقوا العنان للخيال، فإطلاق العنان يعني الاهتمام باللَّوحات الفنيّة والصور المبتكرة، فلم يكن هدف النثر مجرّد الإبلاغ، بل أخذ الجانب الشعريّ الذي يهتمّ بالصورة الأدبيّة، وتسريح الخيال، وهذا الفهم لقضية الصورة والخيال لا يبتعد كثيراً عن الفهم الجديد لمعنى الخيال، فقد ذكر جابر عصفور أنَّ المدلول اللغويّ المعاصر لكلمة الخيال يشير إلى القدرة على تكوين صورة ذهنيّة لأشياء غابت عن متناول الحسّ[3]، فمصطلح رياضة الخاطر، وقوة

---

(1) انظر الشايب، أحمد: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، 1966م، ص195-197.

(2) مطلوب، أحمد: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، منشورات المجمع العلمي العراقي- بغداد، 1986م، 117/2.

(3) انظر عصفور، جابر أحمد: الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف – القاهرة، (د.ت)، ص13.

القريحة، وتصرّف الفطنة، وغور الذِّهن، واستعداد الفكر، ومطلق العنان، كلّها تشير إلى مفهوم الخيال وسعته.

لقد اعتنى الكتّاب بتصوير الحصون والمدن قبل الغزو وبعده، وتصوير الانتصارات، وأحداث المعارك، وكذلك اعتنوا بتصوير البطل المسلم المجاهد، وتصوير العدو المخذول والسِّلاح.

فقد صوَّر الكتّاب المدن ومنعة الحصون، والقلاع، وقوّتها إذْ أبدع محيي الدِّين ابن عبد الظّاهر في تصوير منعة طرابلس على الفتح، فهي غادة حسناء تعرف حسنها فتدلّ على الملوك، وتتمنَّع وتأبى، وسيّدةٌ كثيرة الخدم، وجلبابها البحر وخمارها السَّحاب، حيث يقول: ((كلّما مرَّت شمخت بأنفها، وتأنَّفت في تحسين منارة منازها، وتزيين ريحانها وعصفها، ومرَّت وهي لا تغازل ملكاً بطرفها، وكلّما تقادم عهدها تكثرت بالأفواج، والأمواج من بين يديها ومن خلفها، إذ البحر لها جلباب، والسَّحاب لها خمار))[1].

لقد كانت الصورة الفنيّة السابقة مستهلمة من واقع المرأة المسلمة آنذاك، المرأة المحجَّبة الصلبة المحصَّنة التي تأبى على الكثير، ((وقد استعان الكاتب في رسم صورته بالإتِّكاء على دلالات لغوية تدلُّ على العزّة والاحتشام كقوله: شمخت، جلباب، خمار))[2].

ويصوِّر الشهاب محمود غيرة المسلمين على الدِّين، وحميَّتهم له، وهجرهم الملاذَّ، وإعراضهم عن أعراض الدُّنيا بقوله: ((والنُّفوس قد أضرمت الحميَّة للدِّين نار غضبها، وعداها حرّ الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها))[3].

ويصوِّر محيي الدِّين بن عبد الظّاهر فرحة المسلمين بانتصارهم على التَّتار في وقعة حمص سنة 680هـ، فهي تشبه وقعة بدر التي كانت بداية لفتوحات إسلاميّة عظيمة، حيث حلَّ البِشْر والسُّرور على النَّاس، وانقلبت أحوالهم من هزيمةٍ إلى انتصار، إذ يقول: ((... وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتيًّا، وكوكب سعدهِ

---

(1) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 254/4.

(2) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص157.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 395/8.

مضياً، ويوم نصره بدريّاً، وأصبح بها أهل التهايم والنُّجود في هناء، وملايكة السَّماء في شكرٍ لسلطان الإسلام ودعاء، وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدَّع، ودموع السحايب أن تتشرَّع، وأكباد البيد أن تتقطَّع...))[1].

وقد استوحى الكاتب الصُّور الفنيّة السابقة من البيئة الطبيعيّة، حيث التهايم والنُّجود، والسَّماء والجبال، والسُّحب ... إلخ، كما اتَّكأ على بعض الألفاظ ذات الدلالات القويّة مثل: تتصدَّع، تتشرَّع، تتقطَّع حتى يدلِّل على صعوبة الحال قبل الانتصار الذي حقَّقه المسلمون في وقعة حمص.

ويصوِّر الدواداري معركة مرج الصُّفر تصويراً فنيَّاً، يبرز فيه عنصر التشخيص، ويتَّكئ فيه على عنصري اللون والحركة، مثل: الأحمر، الأسمر، ضرب، طعان، فرّ، غنّى، رقص، هاجت. إذْ يقول: ((ثمّ التقى الجمعان، وعمل الضرب والطعان، وصبر الشُّجعان وفرَّ الجبان، وعمل الصارم وليمته في الجماجم، وخطر الأسمر يميس في لباسه الأحمر، وغنّى الحسام وانقطع الكلام لمَّا زادت الكلام، ورقصت الخيول على دقَّات الطبول، وهاجت بلابل الشجعان، ... والمهنَّد قد أطفق مسحاً بالسوق والأعناق...))[2].

ويصوِّر علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر مرج الصُّفر قائلاً: ((... واستقرَّ بها الملك في مهادِ السُّكون بعد القلق، وتبدَّلت بها الملّة الإسلاميّة الأمن بعد الفرق، وأضحى بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه، وطلع بها بدر السُّرور كاملاً بعد مغيبه))[3].

ونجد كاتب رسالة جواب الظَّاهر إلى تيمورلنك يصوِّر قوة جيش المسلمين، الذي أصبح كالجزّار لا يهمهُ كمية اللحم الذي يقطع، هذا الجيش الذي يتمنّى الموت ولا يبالي بشيء، إذْ يقول: ((... وأمّا قولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرِّمال، فالقصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يضنيه القليل من الضرم، فكم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، ... واعلموا أنَّ هجوم المنيّة عندنا غاية الأمنية...))[4].

---

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص223.

(2) الدواداري: كنز الدرر، ص85.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1028.

(4) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص806.

ويصوِّر شهاب الدِّين الحلبيّ البطل المسلم وهو يلاقي عدوّه واثقاً من نـــصره وهزيمة خصمه، إذْ يقول: ((... وإذا رمى في حماية الممالك عدداً سبق إلـــى مقاتلـــه قبل السُّيوف وعيده، وإذا جرَّد جيشاً إلى أعداء الإسلام جـــرّت قبـــل اللِّقـــاء ذيـــول هزائمها، ورأت الفرار أمنع لها من صوارمها... ونثلت ما في كنائنهـــا مـــن ســـهام ضعفت عن الطيران قوادمها...))[1].

ويصوِّر محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر تضرّع المسلمين في المـــساجد إلـــى الله تعالى أن ينجز وعده، ويستمطرون رحمته ولطفه، وهي صورة توحي بتلاحم الأمَّـــةِ جمعاء في وجه الغزو المغوليّ، إذ يقول: ((وكان المسلمون في سائر البلاد الإسلاميّة في تلك السَّاعة قد طرقوا أبواب السَّماء، وجرَّدوا سلاح الأنبيـــاء مـــن الـــدُّعاء، ولا مشهد، ولا مسجد في تلك السَّاعة في القاهرة، ومصر، ودمشق، والأقاليم إلاَّ وصفوف المتهجِّدين في ذلك الوقت قائمة، متزاحمة بالمناكب))[2].

وترى في تصويرهم الأسلحة صوراً بديعة قوامها التشخيص، وقد اســـتخدموا تلك الصور في التهديد أحياناً، فالسيوف جوعى وعطشى إلى أجساد الأعداء ودمائهم، وهي ضيفٌ لا فكاك منه، ولا سبيل إلى قضاء حاجته من الطعام والشَّراب. قال محيي الدِّين مهدِّداً بيمند – حليف المغول – بعد فتح عكّار وأنطاكية: ((وتعلم أجساد فرسانك أنَّ السُّيوف تقول: إنّها عن الضيافة لا تغيب، لأنَّ أهل عكّار ما سدُّوا لها جوعـــاً، ولا قضت من ريّها بدمائهم الوطر))[3].

ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لها في رسالة التهديد إلى ملك سيس الأرمني بعد انتصار المماليك على المغول عام 702هـــ، وقد جاءت صـــورتها فـــي رســـالته رهيبة. قال يهدّده بعد أن طلب منه الإقلاع عن مساعدة المغول والدخول في طاعـــة النَّاصر: ((والسُّيوف الآن مصغية إلى جوابه، لتكفَّ إن أبـــصر ســـبيل الرَّشـــاد، أو تتعوَّض برؤوس حماته وكماته عن الأغماد إن أصرَّ على العناد))[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/12.

(2) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 224/7.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 446/2.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 262/8.

وقد اتَّكأ علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر على عنصر التشخيص والتجسيد في رسم صورةٍ فنيّة جميلة للأسلحة، فالسُّيوف تقسمُ أن لا تقرَّ إلاَّ في الرؤوس، والرِّماح ترتوي من دماء الأعداء، والسِّهام لا تستقرُ إلاَّ في نحور الأعداء، إذْ يقول: ((هذا والسُّيوف قد فارقت الأغماد، وأقسمت أنّها لا تقرّ إلاَّ في الرؤوس، والأسنَّة قد أشرعت وآلت أنّها لا يُروى ظمؤها إلاَّ من دماء النُّفوس، والسِّهام قد التزمت أنّها لا تتّخذ كنائنها إلاّ من النُّحور، ولا تتعوَّض عن حنايا القسيّ إلاّ بحنايا الأضالع، أو لترفعها لا تحلُّ إلاَّ في الصُّدور...))[1].

((لقد اعتمد الكاتب في بناءِ صورتهِ الفنيّة – كما يُلاحظ – على رسم صور جزئيّة مفردة؛ ليخرج بصورةٍ مركَّبةٍ مستعيناً بالفنون البيانيّة من استعارةٍ وتشبيه، مستخدماً المحسّنات البديعيّة كالسَّجع))[2].

ويصوِّر محيي الدِّين خوف المغول في فتح قيساريّة الرُّوم تصويراً جميلاً، فقال بأنَّهم بعد أن رأوا الجيش المسلم: ((رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا، وسُقط في أيديهم ورأوا أنَّهم قد ضلّوا))[3]، كما صوّر خوف بيمند ملك طرابلس بعد إغارة الظَّاهر بيبرس عليها بقوله: ((هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً: عليَّ هذا الصوت))[4]. وقد استمدَّ ذلك من التصوير القرآني، وغير خافٍ ما في كلا الصورتين من سخريةٍ وتهكُّمٍ من العدو.

ويصوِّرهم الحلبيّ بالمخذولين المقبلين كحبَّات الرِّمال، إذْ يقول: ((... وأنّ التَّتار المخذولين أقبلوا كالرِّمال، واصطفُّوا كالجبال، وتدفَّقوا كالبحار الزواخر، وتوالوا كالأمواج التي لا يُعرف لها الأوّل من الآخر ...))[5].

وبرعوا في تصوير الأسرى والقتلى من المغول بعد المعارك، ومن ذلك تصوير الشهاب محمود لقتلى المغول في رسالة النَّاصر إلى غازان بعد عام 702هـ

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1030.

(2) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص155.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 164/14.

(4) المصدر نفسه، 305/8.

(5) الحلبيّ: حسن التوسُّل، ص336.

وقد انتصر عليه. قال: ((فلو رأيت أيُّها الملك عساكرك: إمّا ذليلاً أسيراً، أو جريحاً عفيراً، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[1]، يوم تضاعف فيه المقتول والمأسور، وتصاحب فيه الذئاب والنُّسور، وعاد أصحابك طعاماً للذئاب ...))[2]، وصوَّر الأسرى وهم يقادون وقد ضربت عليهم الذّلّة والمسْكنة بقوله: ((أمّا الرِّجال ففي أعناقهم الحبال والسلاسل والأغلال، فعادت مُغلك كالكلاب في أيدي أُسود الغاب))[3]، وإذا كانت السخرية غرضاً من تصوير الأعداء بعد المعركة، فقد جمع إليها الشهاب الحلبيّ غرض المديح لجيش المسلمين في صورته الأخيرة.

وفي رسالة قلاوون مبشِّراً بالنَّصر على المغول سنة 678هـ، يظهر عنصر التشخيص والتجسيد في رسم صورة للمغول أهل الكفر والإلحاد، فالأرض تأبى أن تحوي أجسادهم، فعملت على قذفهم، يقول فيهم: ((وقتلت ملوكهم من أولاد هولاكو وغيرهم، فعجّل الله بأرواحهم إلى النَّار، وأبت الأرض من أن تواري جسداً لهم، فقذفتهم في المهامةِ والقفار...))[4].

2.5 الأثر الفاضليّ والفنون البديعيّة

1.2.5 السَّجع

إنَّ أوّل محسِّن بديعي تأثَّر به القوم، وأخذوه عن القاضي الفاضل السَّجع، وتجدر الإشارة هنا أن نتعرّف إلى حدّه وآراء النقّاد فيه. فذكر ابن الأثير أنَّ السَّجع ((تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد))[5]، وقريب من هذا قول القزويني حيث ذكر أنّه ((تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد))[6]، وتابعها

---

(1) سورة الفرقان، آية (26).

(2) الدواداري: كنز الدُّرر، 9/121-122.

(3) المصدر السابق، 9/121-122.

(4) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 7/244.

(5) ابن الأثير: المثل السائر، 1/193.

(6) القزويني، جلال الدِّين أبو عبد الله محمّد بن عبد الرّحمن (ت739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، قدّم له وبوَّبه وشرحه علي بن ملحم، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط2، 1991م، ص325.

القلقشندي قائلاً: ((وهو المستقيم لاستقامته في الكلام واستواء أوزانه، وقيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حدٍ واحد ... وهو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن))[1].

وأمَّا بالنسبة لحكم كلمات الأسجاع من حيث الوقوف عليها والتسكين، فيرى الحلبيّ (أنَّ كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز، موقوفاً عيها؛ لأنَّ الغرضَ أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها، ولا يتمّ ذلك إلاَّ بالوقوف))[2].

((وعلى الرَّغم من أنَّ بعض النقّاد قد انتقد السَّجع في الكتابة بشدّة، إلاَّ أنَّ الكتَّاب التزموه منهجاً وأُسلوباً في معظم رسائلهم، ومعاهداتهم، وخطبهم))[3].

أمّا بالنسبة للمراسلات والنُّصوص التي وثَّقت للغزو المغوليّ فمنها ما التزم السَّجع، ومنها ما لم يلتزم به كرسالة ابن تيميّة التي بعث بها إلى السلطان الملك النَّاصر في شأن التَّتار، فنجد ألفاظها تتجرَّد من الزخرفة اللفظيّة والكلام المسجَّع[4]. ومن جملة قول ابن تيميّة مشيراً إلى هزيمة المسلمين في وادي الخزندار: ((فإنَّ هذه الفتنة التي جرت، وإن كانت مؤلمة للقلوب، فما هي إن شاء الله إلاّ كالدواء الذي يُسقاه المريض ليحصل له الشفاء والقوّة، ... فرحم الله عباده برحمته التي هو أرحم بها من الوالدة بولدها، وانكشف لعامّة المسلمين شرقاً وغرباً حقيقة حال هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلَّموا بالشهادتين ...))[5].

لقد سيطر على كتابات الأدباء لا سيَّما المؤرِّخين كما يقول فرانز روزنتال: ((إنّ السجع سيطر على الكتابة التأريخية خلال تراجم الإطراء التي دوَّنها الموظفون

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 1/279-280.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص206.

(3) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص119.

(4) انظر المرجع نفسه، ص155.

(5) ابن تيميّة: رسالة إلى السلطان الظّاهر، ص12.

لأسيادهم، ففي هذه الكتب شعروا أنَّ من واجبهم استخدام مواهبهم في أساليب السجع التي كانت شائعة عند كتّاب الديوان...))[1].

وأكثر ألوان السجع دوراناً في كتاباتهم المتعلِّقة بالغزو المغوليّ ما تكون من فقرتين متَّفقتين في رويٍ واحدٍ، يتلوهما فقرتان تتَّفقان في غيره، دون مراعاة لعدد الألفاظ في الفقرتين أو أوزانها[2].

ومن ذلك ما جاء في مقامة الكازروني، حيث يقول: ((إلاَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى، لَمَّا أرسل عذابه سلب كلاً منهم عقله وصوابه، فنفذ سهم القضاء، وانتشرت جناح الحِمام في الفضاء، فلم تنفع الجُنَّة ولا السِّلاح ولا البواتر ولا الرِّماح))[3].

ومن الأمثلة عليه أيضاً قول ابن عبد الظّاهر: ((وأصبحَ الأعداءُ لا تُرى إلاَّ أشلاؤُهم، ولا تبصرَ إلاَّ أعياؤُهم؛ كأنَّما جزرُ أجسادهم جزائرُ يتخلَّلُها من الدِّماء السَّيل، وكأنَّما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكرٌ تلعبُ بها صوالجةٌ من الأيدي والأرجلِ من الخيل))[4].

ومن أمثلة السَّجع المتساوي قول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((وبات التَّتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتمّ تيقُّظٍ وأعظم حذر، ولم يتحقّقوا قدوم مولانا السُّلطان في جيوش الإسلام، ولا أنَّهُ حضر بنفسه النفيسة ليقوم في نصرةِ دين الله هذا المقام))[5].

ومن السجع الذي غلب على بعض نصوص الغزو المغوليّ التزام الكتَّاب بسجعةٍ واحدةٍ في معظم فقرات كتاباتهم، ومن ذلك ما جاء في كتاب الشيخ تقيّ الدِّين ابن تيميّة، حيث يقول: ((ونزلت فتنةٌ تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل

---

(1) روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1982م، ص242.

(2) ويُسمّى بالسجع الحالي، ومنه الترصيع والمطرف والمتوازي. قال القلقشندي: وعليه عمل أكثر الكتَّاب من زمن القاضي الفاضل وهلمَّ جراً إلى زماننا (صبح الأعشى، 304/2).

(3) الكازروني: مقامة في قواعد بغداد، ص23.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 168/14.

(5) المصدر نفسه، 142/14.

الصَّاحي منزلة السَّكران، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنَّائمِ ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان))[1].

ونقف في بعض الكتابات الأدبيّة على لونٍ آخرٍ من السجع أشار إليه القلقشندي في حديثه عن مواضع حسن السجع وقبحه في الكلام، فذكر أنَّ مواضع حسنه ((أن يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً في سجع))[2]، وهو ليس كثيراً إذا ما قِيسَ بما تقدّم من ألوان السجع.

ومن الأمثلة على ذلك خطبة ابن منير الإسكندريّ التي يقوم فيها: ((... فالله! الله! عبادَ الله! الاعتبار! الاعتبار! وأنتم السعداء، إذا وعظتم بالاعتبار أصلحوا ما أفسد، فإنَّ الفساد مقدّمة الدَّمار، واسلكوا الجدد، تنجوا في الدُّنيا من العار وفي الآخرة من النَّار))[3].

ومن السَّجع الترصيع، عرَّفهُ ابن الأثير قائلاً: ((وهو أن تكون كلُّ لفظةٍ من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكلِّ لفظةٍ من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية))[4]. وقد عدَّهُ ابن الأثير من محاسن النثر ومثالب الشعر[5]، وخصَّهُ بعض البلاغيين بالشِّعر[6]. وقد يُجمع إلى الترصيع الجناس فيكون أرفع وأجمل[7]. قال فيه القلقشندي: ((وهو أحسن أنواع السَّجع وأعلاها))[8].

---

(1) ابن تيميّة: كشف النقاب عن معالم سورة الأحزاب، ص17-18.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 314/2.

(3) اليونيني: ذيل مرآة الزَّمان، 209/4.

(4) ابن الأثير: المثل السائر، ق3، ص361.

(5) انظر المصدر نفسه، ق3، ص264؛ وانظر الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص207.

(6) انظر العسكري، أبو هلال العسكريّ (ت395هـ): كتاب الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 1984م، ص375.

(7) انظر الوطواط، رشيد الدِّين محمّد العمريّ: حدائق السِّحر في دقائق الشِّعر، تحقيق إبراهيم الشواربيّ، القاهرة، 1945م، ص92.

(8) القلقشندي: صبح الأعشى، 176/13.

ومن ذلك قول الكازروني: ((... وافيتها بلدة خالية، وأمَّة جالية، ودمنة حائلة، ومحنة جاثمة، وقصوراً خاوية، وعراصاً باكية...))[1].

ومن ذلك أيضاً وصف ابن عربشاه للخوف والفزع الذي حلَّ بالعباد، إذ يقول: ((فلو رأيت النَّاس وهم حيارى ﴿سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ * أبدانهم راجفة، وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافتة، وأبصارهم باهتة، وشفاههم يابسة، وصورهم بائسة))[2].

2.2.5 الجناس

لقد ولع الكتَّاب بالجناس وعدّه بعضهم عمدة المحسّنات البديعيّة كالصَّفديّ، فقد اعتمد الكتّاب بمصر والشَّام في عصر المماليك على فنّ الجناس لتزيين رسائلهم، وتبدو عنايتهم به واضحة؛ حيث لم تكد رسالة تخلو منه، ويمكن القول بأنَّه ((أضحى إحدى دعائم الأسلوب في عصر المماليك))[3].

ذكر ابن الأثير أنَّ الجناس سبعة أقسام، ولكنَّ واحداً فقط من السبعة يُمثِّل حقيقة التجنيس، والأقسام الأخرى مشبّهة به، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظه في تركيبها ووزنها، وحدّ التجنيس عنده: اتّفاق اللفظ مع اختلاف المعنى[4]، ومعنى اتفاق اللفظ أن تتماثل حروف الكلمة في العدد، والترتيب، والشكل.

ومن صور الجناس التي وقف الكتَّاب عليها الجناس التام، والذي سمَّاه ابن الأثير الحلبيّ بالحقيقي (فهو ما استوت ألفاظه في الخطِّ والوزن والتركيب))[5].

وقد أشار الرازيّ إلى أقسام عديدة للجناس منها التّام، إذْ يقول: ((المتجانسان: إمّا أن يكونا مفردين، أو أحدهما مفرداً، والآخر مركّباً، أو كلاهما مركّباً، فإن كانا

---

(1) الكازرني: مقامة في قواعد بغداد، ص15.

* سورة الحج: آية (2).

(2) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص290.

(3) محمود سليم: عصر سلاطين المماليك، 397/6.

(4) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 246/1.

(5) ابن الأثير الحلبيّ: جوهر الكنز، ص92.

مفردين فالمجانسة التامة، إنّما توجد إذا تساويا في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها...))[1].

ومن الأمثلة على الجناس التام قول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند: ((ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويديّة بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك))[2].

ومن الأمثلة عليه أيضاً قول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((... كانت غزوات مولانا السُّلطان ملك البسيطة ... قد أصبحت ذكرى للبشر، ومواقفه للنَّصر كم جاءت هي والقدر على قدر، وقد سارت سِيَرها وسَيْرها: هذه شدو في الأسمار، وهذا جادةٌ تستطيبُ منه حُسن الحدو السفَّار))[3].

ومنه أيضاً: ((صدرت هذه المكاتبة تخصُّه بتحيَّةٍ تتضوّع نشراً، وتتحفه من متجدِّدات الظَّفر بشراً، يملأ الوجود مسرَّة وبشرى ...))[4].

وأكثر صور الجناس التي يقف عليها المطالع لنصوص الغزو المغوليّ الجناس الناقص، وهو ما اختلف فيه اللفظان في نوع الحروف، أو عددها، أو ترتيبها[5].

ومن الأمثلة عليه، قول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر: ((قدَّر الله تعالى أن صرف مولانا السُّلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كلَّ خير وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفسية ... وما زالت جنود الإسلام كذلك ومولانا السُّلطان لا تُرى جماعةٌ مقدّمة ولا متقدِّمة إلاَّ وهو يُرى بين أُولئك))[6].

ومنه قول محيي الدِّين في وقعة حمص سنة 680هـ: ((... ولعمرِ الله أنَّ هذه النصرة ذكرى للبشر؛ لأنَّه كفَّت الملَّة الإسلاميّة عظيماً، وأخذ الله بها للأئمة والأمَّة

---

(1) الرّازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين – بيروت، ط1، 1985م، ص126.

(2) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص312؛ وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، 215/12.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 393/7.

(4) المصدر نفسه، 345/7.

(5) انظر الرازي: نهاية الإيجاز، ص127.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 394/7-395.

ثأراً قديماً، ومولانا أحقُّ بأن يُسرَّ بها سراء كل منير، ويتقدَّم بتعبيرها فإنَّها أشرف ما يُحبَّر وأجلُّ ما به يخبر))[1].

وهنالك ما يُعرف من أنواعه بالجناس المعكوس، حيث يختلف ترتيب الألفاظ في تركيبه[2]، ومن قول ابن عبد الظَّاهر: ((... المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث، ولا يؤخّرها عن وقتها أمرٌ كارث، ولا ينقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث...))[3].

ومنه قول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في وقعة قيساريّة الرُّوم، إذْ يقول: ((... ما خرجنا منها إلاّ إلى جبالٍ قد تمنطقت بالجداول وتعمَّمت بالثُّلوج، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلاّ وهو قائلٌ: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾* أو إلى سبيل من خروج))[4].

3.2.5 الطباق والمقابلة

يُعدُّ الطباق من المحسِّنات المعنويّة التي تضيف إلى الكلام الوضوح والإفصاح، حيث المعنى يستبين عند ذكر ضدّه، ويستقرّ في الذهن، وقد ذكر ابن الأثير أنَّ المطابقة – وقد عنى بها الطباق – في الكلام ((هي الجمع بين الشيء وضدّه؛ كالسواد والبياض، والليل والنهار))[5]، وقد اتّفق معه الحلبيّ حيث أشار إلى أنَّ المطابقة ((أن تجمع ضدّين مختلفين كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والسواد والبياض))[6]، وذكر معاصره القزويني أنَّ المطابقة تعني ((الطباق والتضاد، وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة))[7]، وذكر ابن حجّة أنَّ الطباق

---

(1) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، 225.

(2) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 261/1.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 357/7.

* سورة غافر، آية (11).

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 160/14.

(5) ابن الأثير: المثل السائر، 279/2.

(6) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص199.

(7) القزويني: الإيضاح، ص287.

((الجمع بين الضدّين في كلام أو بيت شعر كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد))[1].

ومهما يكن من أمر هذه الآراء، إلاَّ أنَّها أجمعت على مفهومٍ واحدٍ يكمن في المعنى وضدّه، ((وقد بلغ الاتفاق أن اتَّفق على الأمثلة ذاتها في توضيحهم للمعنى))[2].

ويؤدِّي الطباق وظيفة تحسين المعاني والألفاظ، بالإضافة إلى الاستقصاء والشُّمول، والدِّقة، لذلك نرى الكتَّاب يكثرون منه في المهادنات في تعداد الأماكن التي تنطبق عليها[3].

وقد يؤدِّي الطباق وظيفة المبالغة والتهويل، ومن ذلك قول ابن عبد الظَّاهر في رسالة بيبرس إلى بيمند بعد فتح أنطاكية، يصف ما استولى عليه المسلمون فيها من غنائم: ((استغنى الفقير، وتأهَّل العازب، واستخدم الخديم، وركب الماشي))[4]، وذلك بعد تنبيه بيمند إلى ما خسره بقوله: ((نُهبت لك ولرعيتك الأموال، والحريم، والأولاد، والمواشي))[5].

أمّا المقابلة فهي ((إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة))[6].

لقد اتَّكأ الكتَّاب في هذا العصر على فنيّ الطباق والمقابلة. وتكثر المقابلة في رسائل الصراع مع المغول، كالمقابلة بين حال الإسلام وبين حال الكفر قبل المعركة وبعدها[7]، وحال الحصون قبل الفتح وبعده[8]، والمقابلة بين مجانيق المسلمين

---

(1) ابن حجّة، تقي الدِّين أبو بكر علي الحمويّ (ت837هـ): خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط2، 1991م، 156/1.

(2) سلامة الغريب: الرسائل الفنية في العصر المملوكي، ص341.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 34/14-35.

(4) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص39.

(5) المصدر نفسه، ص39.

(6) العسكري: كتاب الصناعتين، ص371.

(7) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 387/8، 395.

(8) انظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 244/4، 245، 256.

ومجانيق أعدائهم[1]، وفي وصف أفعال المغول، وما آل إليه أمر الأعداء بعد المعركة، ((ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى التعبير عن الصراع والتضاد والتنافر بين المسلمين وأعدائهم، وهذا أمرٌ يعملُ على تنمية تشكيل معالم الصورة الأدبيّة التي يهدف الكاتب إلى تصويرها))[2].

ومن الأمثلة على الفنّين السابقين: إشارة الظَّاهر بيبرس إلى ملازمته لجنوده في أثناء المعركة، حيث يقول: ((إنّا بحمد الله تعالى ما تخصّصنا عنكم براحةٍ ولا دعةٍ، ولا أنتم في ضيقٍ ونحنُ في سعة، ما مِنّا إلاَّ من هو مباشر الحروب، الليل والنهار...))[3].

ويتمثَّل على الطباق أيضاً بقول بيبرس المنصوريّ في وصفه لأسارى التَّتار: ((وأسارى التَّتار بين يدي المواكب ما بين ماشٍ وراكب، وسناجقهم بأيديهم منكوسة، وطبولهم على أكتافهم معكوسة))[4].

وفي نصٍ آخر لمحي الدِّين بن عبد الظَّاهر يصف أسارى قيساريّة الرُّوم، حيث يقول: ((وأقبل بعضُ الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأحبار شجاعتهم يتواصفون))[5].

ويتمثَّل على الطباق المقابلة بقول محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في عهدِ السُّلطان المنصور قلاوون: ((ثمّ الحمد لله الذي جعل الخلافةَ العبّاسيّة بعد القطوب حسنة الابتسام، وبعد الشحوب جميلةَ الاتسام، وبعد التشريد كل دار إسلام له أعظم من دار السَّلام))[6].

وتكثر المقابلة في بيان حال المدن والحصون قبل الغزو المغولي وبعده، إذْ يقول ياقوت الحمويّ: ((إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب، والويل المبيد

---

(1) انظر المصدر السابق، 255/4؛ وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، 397/8.

(2) عبد الجليل عبد المهدي: بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص395.

(3) ابن عبد الظَّاهر: الروض الزاهر، ص226.

(4) بيبرس المنصوريّ: التحفة الملوكيّة، ص103.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 168/14.

(6) المصدر نفسه السابق، 121/10.

والتتاب، وكانت لعمر الله بلاداً موفّقة الأرجاء، رائقة الأنحاء، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة ...))[1].

ويشير ابن الكازروني في مقامتهِ إلى حال النِّساء في بغداد قبل وبعد الغزو قائلاً: ((وهذه القصور التي تراها، والنعمة الظَّاهر أثرها، أين من بناها؟ كانت الجهات بها محميّة الجانب إلى أن حكم فيها الأجانب، فاسترقُّوا كالإماء، واستهينوا كالعبيد، بعد المُلك والثَّراء والنعيم والضوضاء والصيتة، والعلاء والمنزلة الرفيعة العلياء))[2].

ويعتمد الكاتب محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر في وصفه لفرحة المسلمين بانتصارهم على التَّتار في وقعة حمص سنة 680هـ على فن المقابلة، حيث يشير إلى حال النَّاس قبل الانتصار وبعده: ((... وهي النعمة التي عاد بها عمر الإسلام فتيَّاً، وكوكب سعده مضيّاً، ويوم نصره بدريَّاً، وأصبح بها أهل التهايم والنُّجود في هناء، وملايكة السَّماء في شكرٍ لسلطان الإسلام ودعاء، وكادت قبلها قلوب الجبال أن تتصدَّع، ودموع السحايب أن تتشرَّع، وأكباد البيد أن تتقطَّع))[3].

ويتَّكئ محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر على فن المقابلة لبيان حال القائد المغوليّ قبل الهزيمة وبعدها، إذْ يقول: ((فكم شاهد مولانا السُّلطان منهم مهيب الهامة، حسن الوسامة، تُتفرّسُ في جهامة وجهه الفخامة، قد فضَّ الرُّمحُ فاه، فقرع السِّنَّ على الحقيقةِ ندامة))[4].

3.5 التأثُّر بالموروث العربيّ

1.3.5 التأثُّر بالقرآن الكريم

أكثر الكتَّاب في العصر المملوكيّ من الاتّكاء على القرآن الكريم؛ لأنَّهُ يمثِّل في أذهانهم قمّة البيان العربيّ، فهم يعدُّونه المثل الأعلى في البيان وقمَّة لا تطاول،

---

(1) ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ص185.

(2) الكازروني: مقامة في قواعد بغداد، ص18.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م7، ص223.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 168/14.

فيأخذون منه ما يزيد كلامهم حُسناً وطلاوةً، فضلاً عن أنَّ بعض قصص القرآن الكريم يمكن أن تُكثّف في كلمة أو عبارة، فالكاتب يلجأ إلى النصّ القرآني من أجل أن يضفي على نثره شيئاً من القداسة والخلود. ولا شكَّ أنَّ الكاتب في الثقافة الإسلاميّة يتسرَّب إلى وعيه بعض الأثر القرآني عند نسجه لنصّه النثري.

ولقد كان للقرآن الكريم أثرٌ واضحٌ في النثر الذي واكب أحداث الغزو المغوليّ، ((وقد تمثَّل أثره في جوانب عديدة منها: اقتباس الآية كاملة، أو جزءاً منها، ومنها الإشارة إلى بعض قصص القرآن، ومنها حلّ الآية الكريمة مع بقاء شيء من لفظها))[1].

ومن اقتباسات الكتَّاب قول الخليفة في خطبة[2]: ((فشمِّروا عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

ومن اقتباسات محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر قوله: ((وثُرْ لأن تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثأر، واعلم أنَّ الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار ...))[4].

نلاحظ أنَّ قول الكاتب "وما للظالمين من أنصار" جزء من آيةٍ كريمةٍ وردت في أكثر من موقعٍ في القرآن الكريم[5].

ومن اقتباسات ابن الصيرفيّ قوله في وصف حال حلب بعد دخول التَّتار إليها، إذ يقول: ((... وجوامعها ومساجدها عن الأذان والصَّلاة والخُطب خالية، ودورها

---

(1) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص131-132.

(2) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، 189/2.

(3) سورة التغابن، آية (16).

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 124/10.

(5) سورة آل عمران، آية (192)؛ سورة المائدة، آية (72)؛ سورة البقرة، آية (270).

علـــى أرضـــها خاويـــة، ولـــسان حالهـــا يقـــول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ *))[1].

ومن اقتباسات شهاب الدِّين محمود الحلبيّ قوله في وصف كثرة القتلـــى فـــي قيساريّة الرُّوم: ((... واستخبرهم مولانا السُّلطان عن عِدّة قتلى المغل فقالوا: ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ **، فاستفهم من كبيرهم عن عِدَّة المغل كم من قتيل، فقال: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ***))[2].

لقد كان أثر القرآن في كتابات الأدباء واضحاً جليًّاً. فالمطَّلع علـــى الرســـائل والنصوص التي واكبت أحداث الغزو المغوليّ، ولا سيَّما رســـائل الجهـــاد، يجـــد أنّ الكتَّاب أحياناً يدمجون آياتٍ محلولةٍ من السُّورة نفسها، مثال ذلك وصف ابن عربـــشاه ما حلَّ بالدمشقيين من أهوال الغزو المغوليّ، إذ يقول: ((وفرَّقوا بين الوالدة وولـــدها، والرُّوح وجسدها، وذهلت كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت، وجازوا كلَّ نفسٍ بما صـــنعت، وبغير ما صنعت، وفرّ المرءُ من أخيه وأمّهِ وأبيه، وصاحبته وبنيه، وصار لكلِّ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه))[3].

وهذا إشارة إلى قوله تعالى عزّ وجلّ: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۜ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۜ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۜ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۜ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ****.

---

* سورة الحاقة: الآيتان (28، 29).

(1) الصيرفيّ: نزهة النفوس، 2/76-77.

** سورة المؤمنين، آية (113).

*** سورة الكهف، آية (23).

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/184-185.

(3) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص282.

**** سورة عبسَ، الآيات (33، 34، 35، 36، 37).

ومن تأثُّر علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر بالقرآن الكريم قوله في وصف معركة مرج الصفَّر سنة 702هـ، إذ يقول: وقامت الحرب على ساق، والتفَّت السَّاق بالسَّاق...))[1].

وهذا إشارة إلى قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[2].

ويلاحظ أيضاً تأثُّر الكتّاب بقصص القرآن الكريم، فنجد شهاب الدِّين الحلبيّ يكتب عن الملك النَّاصر محمد بن قلاوون، إذْ يقول: ((... إلاّ أنَّ عساكرنا كانت الآن في الممالك والأقاليم التي بيد الكفر: من التّتار المخذولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدِّين، تقتل وتأسر، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر، وتصحبهم حيث حلُّوا طلائع رعبها وتصبّحُهم منها أين طلُّوا ريحُ عاد التي تدمِّر كل شيء بأمر ربها...))[3].

فقد بدا تأثُّر شهاب الدِّين الحلبيّ بقصص القرآن تأثُّراً واضحاً، إذْ يشير إلى قصّة قوم عاد الذين أُهلكوا بالرِّياح، وقد أشار عزّ وجلّ إليهم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[4].

ويتأثَّر الحلبيّ بقصّة سيدنا نوح عليه السلام في رسالة له يصف هزيمة المغول، حيث يقول: ((وحملنا عليهم حملةً ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل، وهل يعصم من أمرِ الله جبل))[5].

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1031-1032.

(2) سورة القيامة، الآيتان (29، 30).

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 347/7.

(4) سورة الأحقاف، الآيتان (24، 25).

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 191/1.

فقد أشار الحلبيّ إلى قصّة نوح عليه السلام، وقد أشار عزّ وجلّ إليهم بقوله: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾[1]. فالأعداء قد أحاط بهم جند المسلمين من كلّ جانب حتّى أصبحوا محصورين بين طوفان تلك الجموع؛ ولمّا كانت قد سُدَّت عليهم الخناق، وتقطّعت بهم السُّبل تبادر إلى ذهنه صورة طوفان نوح وصورة ابنه وقد صعد جبلاً يريد النّجاة، ولمّا أنَّ ذلك الجبل لم يأوه من ذلك الطوفان، فكذلك الحال في اعتصام الأعداء بذلك الجبل لا يقيهم من بأس المسلمين.

وفي معركة مرج الصُّفر يمدح القاضي علاء الدّين بن عبد الظّاهر السُّلطان النّاصر بطل المعركة متأثّراً بقصّة سيدنا يوسف عليه السلام، إذْ يقول[2]: ((... وفتحت له أبواب نصرنا التي يُفضى منها إلى نعمة ونعيم، وشاهدت عيون أهلها فلما رأيْنه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ وقلن حاشَ للهِ ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ ملكٌ كريم...))[3].

ونجد الحلبيّ يتأثّر بقصّة السيدة مريم في كتاب كُتب عن الملك النّاصر محمّد ابن قلاوون: ((... وتُوضح لعلمه الكريمة أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورة على نبأ لا تعيد بذكره، محصورة على خبر لا ينبغي لمثل مجده أن يُمِرَّه على فكرِه، مطلقة عِنان القلم فيما كان ينبغي طيّ خبره، وتعفّي أثره، وإخفاء سببه وتركه نسياً منسياً فضلاً عن التبجّح بذكره والتهنئة به...))[4].

فقد أشار الحلبيّ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[5].

2.3.5 التأثّر بالحديث الشريف

وأثّر الحديث الشريف في الرسائل والمعاهدات لا يختلف كثيراً عن أثر القرآن، وإن كان القرآن أوسع أثراً وأوضح. وقد رأى أكثرُ النقّاد في حلّ الأحاديث

---

(1) سورة هود، آية (43).

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1036.

(3) سورة يوسف، آية (31).

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 345/7.

(5) سورة مريم، آية (23).

أن لا تُغير ألفاظها، فابن الأثير الحلبيّ يوصي بأن لا يؤخذ المعنى مجرّداً عن اللفظ[1]، وقال الشهاب الحلبيّ: ((وإذا كانت القاعدة عند أهل هذه الصناعة أنَّ الأمثال لا تغيّر ألفاظها لاشتهارها بذلك اللفظ، ...، فالحديث أحقّ وأولى))[2]. وذهب ابن الأثير إلى أنَّ الأحاديث قد يؤخذ لفظها أو بعضها، أو يؤخذ معناها و((يُتصرَّف فيه بوجوه التصرُّفات))[3].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أكثر الأحاديث دوراناً في استعمال الكتَّاب في رسائلهم كانت ممّا يتَّصل بالجهاد، وفضائل الصحابة، وعلّة ذلك واضحة فيما يتعلَّق بأحاديث الجهاد؛ إذْ كان العصر عصر جهاد، أمّا أحاديث فضائل الصحابة؛ فيعود أكثرها إلى أنَّ الكتَّاب كانوا يذكرون أربعة الخلفاء بعد الصّلاة على الرسول الكريم في افتتاحيات أكثر الرسائل الديوانيّة.

قال الشهاب الحلبيّ من رسالة يصف المجاهدين: ((وعلموا أنَّ الجنّة تحت ظلال السُّيوف فلم يزحزحهم عن ظلّها الركونُ إلى الدُّنيا الساخرة))[4]. وهو ينظر إلى قوله عليه السلام: ((واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السُّيوف))[5].

وفي نسخة كتاب كُتب عن الملك النَّاصر محمّد بن قلاوون، يقول شهاب الدِّين محمود الحلبيّ: ((فمن أجل ذلك رأينا أنّ اشتغال جيش الإسلام بجانب الكفر هو المهم المقدّم على ما سواه، والغرض الذي نيّتنا فيه إنقاذ أهل الإسلام من كلمة الكفر وتحكّمه "ولكلِّ امرئ ما نواه"[6] – إلى أن يقول – وأيُّ حجة لمن لم يقف موقّف جهاد

---

(1) انظر ابن الأثير الحلبيّ: جوهر الكنز، ص609.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص80، 325.

(3) ابن الأثير: المثل السائر، 127/1.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 122/12.

(5) البخاري، أبو عبد اله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي: صحيح البخاري بشرح الكرماني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1981م، 118/12.

(6) العسقلاني، شهاب الدِّين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت852هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، (د.ت)، 67م، 15/9.

وقد قال رسول الله ص: "من مات ولم يغزُ ولم يحدّث به نفسه مات على شعبة من نفاق..." [(1)])).

فقد بدا تأثُّر شهاب الدِّين الحلبيّ واضحاً بالحديث النبويّ الشريف.

ونجد تأثُّر غازان بالحديث النبويّ الشريف في رسالةِ أمانٍ بعث بها إلى أهل دمشق، يقول فيها: ((... والسَّلاطين موصّوْن على أهالي الذمّة المطيعين، كما هم موصّون على المسلمين فإنّهم من جملة الرعايا، قال ﷺ: (الإمام الذي على النّاس راعٍ عليهم وكلٌّ راعٍ مسئولٌ عن رعيّته))[(2)].

فقد أشار إلى الحديث الشريف ((كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته، والأمير راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته))[(3)].

وفي رسالةٍ بعث بها أحمد تكدار ملك المغول بفارس إلى السُّلطان المنصور محمّد بن قلاوون يخبره فيها بإسلامه، حيث يقول: ((... وأنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله وأنّه تعالى ألقى في قلبنا أن نتّبع الحقّ وأهله ...))[(4)]، فقد تأثَّر كاتب النصّ بقوله ﷺ ((عن عمرو بن العاص قال: قلت: يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدَّم من ذنبي، فقال رسول الله ﷺ "إنَّ الإسلام يُجِبُّ ما كان قبله وأنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها"[(5)])).

وقد تأثَّر علاء الدِّين بن عبد الظَّاهر في وصفه لمعركة مرج الصُّفّر بالحديث النبوي الشريف، إذْ يقول[(6)]: ((... وقابل العدو بصدره، وقاتل حتّى أفنى حديد بيضه

---

(1) مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجّاج القشيري (ت261هـ): صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1929م، م7، 56/13.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1012.

(3) العسقلاني: فتح الباري، م9، ص254؛ مسلم: صحيح مسلم، م6، 213/12.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص979.

(5) أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل (ت241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر – بيروت، (د.ت)، م4، ص204-205.

(6) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1031؛ انظر الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص333.

وسمره، ... واشتدّ أزْراً بأمرائه الذين رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماً، وعدّوا الممات فيه مغنماً ... ويقولون هذا اليوم يصيبنا فيه إحدى الحسنيين وقالت الملائكة للجيوش المنصورة "يا خيل الله اركبي! ويا يد النَّصر اكتبي...")).

حيث تأثَّر بقول الرسول ﷺ: ((يا خيل الله اركبي))[1].

وفي موضعٍ آخر من الرسالةِ نفسها، إذْ يقول: ((... فلا ترى إلاَّ بحراً من حديد، ولا نشاهد إلاًّ لمع أسنةٍ، أو بروق سيوفٍ تصيد الصيد، والسُّلطان قد أرهف ظباه ليسعر بها في قلوب العدى جمراً، وآلى أنّه لا يورد سيوفه الطلا بيضاً إلاّ ويصدرها حمراً، والإسلام كأنّه بنيان مرصوص، ونبأ النَّصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص ...))[2].

إذْ تأثَّر بقول الرسول ﷺ: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً))[3].

3.3.5 التأثُّر بالشِّعر العربيّ

تأثَّر الكتَّاب في العصر المملوكيّ بالشِّعر العربيّ في كتاباتهم، الذي عُرف في زمنهم بحلّ المنظوم؛ لرواجه في عصرهم، وقد نصَّ الحلبيّ على ذلك صراحةً بقوله: ((وكيفيّة الحلّ أن تتوخّى هدم البيت المنظوم، وحلّ فرائده من سلكه، ثمّ يرتّب تلك الفرائد وما شابهها ترتيب متمكِّن، لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالب، وأصحّ سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع، إذا أمكن ذلك من غير كلفة))[4].

والحلبيّ من خلال نصِّه السابق يبيّن كيفيّة توظيف الشِّعر في السياق النثريّ، فالعمليّة ليست يسيرة يتقنها جميع الكتَّاب، بل تحتاج إلى مهارة وحذق، فهي صناعة وإعادة بناء من جديد، وقد ينتج معنى جديد يحتاج إلى سياق آخر مغاير للسياق الأول،

---

(1) أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ): سنن أبي داود، الدار المصريّة اللبنانية – القاهرة، 1988م، م3، ص25، رقم الحديث 2560.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1028.

(3) البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزية البخاري الجعفي: صحيح البخاري، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1992م، م2، 182/3.

(4) الحلبي: حُسن التوسُّل، ص325.

ويشير الحلبيّ إلى ذلك بقوله: ((ويتخيَّر لها القرائن، وإذا تمَّ معه المعنى المحلول في قرينة واحدة، فيعزم له من حاصل فكره، ومن ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء، فإن كان نسيباً وتأتّى له أن يجعله مديحاً فليفعل، وكذلك غيره من الأنواع، وإذا أراد الحلّ بالمعنى، فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول، غير قاصرة عنه، فمتى قصرت ولو بلفظةٍ واحدةٍ فسد ذلك الحلّ، وعُدَّ عيباً، وإذا حلَّ باللفظ فلا يتصرّف بتقديم وتأخير، ولا تبديل إلاَّ مع مراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتناب ما ينقص المعنى، أو يحطّ رتبته، وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حَجْر على المتصرِّف فيه))[1].

ويرى ضياء الدِّين بن الأثير أنَّ حلَّ الشعر يُقسم إلى ثلاثة أقسام وهو ((أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة))[2].

والقسم الثاني: ((أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعزم عن البعض بألفاظ أخرى))[3]، والقسم الثالث: ((فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظٍ غير ألفاظه...))[4].

وقد أشار القلقشندي إلى استخدام الكاتب للشِّعر بقوله: ((اعلم أنَّ للكاتب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات: الحالة الأولى: الاستشهاد: وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتين، أو أكثر خلال الكلام المنثور مطابقاً لمعنى ما تقدّم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبّه عليه "بقال" أو نحوه، كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبويّة، فإنّ الشعر يتميّز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه))[5]، أمّا الحالة الثانية فهي ((التضمين: وهو أن يضمِّن البيت الكامل من الشعر، أو نصف البيت ببعض القرينة))[6]، أمّا الحالة

(1) المصدر السابق، ص326.
(2) ابن الأثير: المثل السائر، ق1، ص129.
(3) المصدر نفسه، ق1، ص130.
(4) المصدر نفسه، ق1، ص132.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 321/1.
(6) المصدر نفسه، 329/1.

الأخيرة وهي ((أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلّها من عُقل الشعر ويسبكها في كلامه المنثور))[1].

ويتّضح من خلال اقتباسات الكتّاب لأشعار المتقدّمين وحلّها، ((أنّهم تأثّروا بمشاهير الشعراء العرب، أو بقصائد مشهورات بأعيانها، كما يلاحظ تأثرهم ببعض الشعراء في أغراض اشتهروا بها، فقد تأثروا بامرئ القيس في وصف الخيل، وبأبي تمّام والمتنبي في وصف الحروب والفتوح))[2].

((ولا ريب في ذلك، فامرؤ القيس شاعر اشتهر بوصفه للخيل والوحوش، كما عُرف الشاعران العباسيّان المتنبي وأبو تمام، بولعهما الشديد في وصف الحروب، والفتوحات، وتسجيل الانتصارات، ولا سيّما أنهما عاشا فترة صراع مع الرُّوم، ممّا جعلهما يكتبان عن الحروب، ويصفان المعارك، ويمدحان الأبطال))[3].

قال الحلبيّ يصفُ خيلاً: ((... ومن كميت نهدٍ كأنَّ راكبه في مهد، ... وكأنَّ نغم الغريض ومعبد في لهواته، قصير المطا، فسيح الخطا إن ركب لصيد قيد الأوابد، ...))[4]. وقوله أيضاً: ((... له من البرق خفة وطئه وخطفه، ومن النسيم لين طروقه ولطفه، ومن الرِّيح هزيزها إذا ما جرى شأوين، وابتلّ عطفه يطير بالفخر، ويدرك بالرِّياضة مواقع الرَّمز ...))[5].

فالكاتب متأثِّر بقول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكُنُاتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل [6]

وقوله أيضاً:

---

(1) المصدر السابق، 1/330-346.

(2) خالد جبر: الرسالة الفنية في العصر المملوكي الأول، ص208.

(3) الحمامرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص142.

(4) الحلبيّ: حُسن التوسُّل، ص345.

(5) المصدر نفسه، ص345.

(6) امرؤ القيس، حندج بن حجر: ديوان امرئ القيس، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط4، (د.ت)، ص51.

إذا ما جَرى شَأْوَين وابتلَّ عِطْفُه ‏ ‏ تقولُ هزيزُ الرِّيحِ مرَّتْ باثــابِ [1]

وفي وصف محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر لخط سير جيش المسلمين لملاقاة المغول في قيساريّة الرُّوم، يبدو تأثُّره بشعر امرئ القيس، إذ يقول[2]: ((... ونزلنا تلك الليلة قريب قرية تقربُ من قيصريّة من حقوق وادي صلعومة شرقي الجبل المعروف بعسيب، ...:

أجارتنا إن الخُطوبَ تنوبُ ‏ ‏ وإنِّي مقيم ما أقامَ عسيبُ

أجارتنا إنّا غريبان هَا هُنَا ‏ ‏ وكلُ غريب للغريب نسيبُ [3]

ويبدو تأثُّر الحلبيّ بالشَّاعر الجاهلي النابغة الذبياني في نسخة كتاب أنشأها عن الملك النَّاصر محمّد بن قلاوون، إذْ يقول: ((هذا وما وضعت الحرب إلى الآن أوزارها، ولا خمدت نار الوغى التي أعدّت جيوشنا المنصورة للأعداء أورارها وما يمضي وقت إلاّ والبشائر متواردة علينا بفتحٍ جديد، ...، وقصارى أمر العدو الآن أنهم ليس لهم بلد إلاّ وقد (أخنى عليه الذي أخنى على لُبدِ) ولا دارٌ إلاَّ وقد أضحت كدار ميّة التي "أقوت وطال عليها سالف الأمد"))[4].

إذْ يشير الحلبيّ إلى قول النابغة في معلّقته:

((يا دار ميّة بالعلياء فالسَّندِ ‏ ‏ أقوت وطال عليها سالف الأمدِ

أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا ‏ ‏ أضنى عليه الذي أضنى على لبدِ))[5]

وقد أنشأ محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر رسالةً طويلة في وصف فتح الملك الظاهر لقيساريّة الرُّوم، تجاوزت الثلاثين صفحة في كتاب (صبح الأعشى)، تعرَّض فيها الكاتب لوصف مسير جيش المسلمين، والمعركة التي دارت بين المسلمين

---

(1) امرؤ القيس: الديوان، ص68.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 174/14.

(3) انظر امرؤ القيس: الديوان، ص357.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 348/7.

(5) الذبياني، زياد بن معاوية بن جنباب النابغة الذبياني (ت18هـ): ديوان النابغة الذبياني، دار صادر – بيروت، ص30-31.

والمغول بصورةٍ تفصيليّة، ونجد أبيات المتنبّي قد تناثرت بين حنايــا الرســالة، مــن الأمثلة على ذلك وهي كثيرة قوله[1]: ((... فسرنا في جبالٍ نشتهي بها سلوك الأرض وأودية تهلك الأشواط فيها إذا مُلئت الفروج من الركض نزور دياراً ما نحب مغناها، ولا نعرف أقصاها من أدناها، واستقبلنا الدَّرب كما قال المتنبي:

رمى الدرب بالخيلِ العتاق* إلى العدا	ومـــا علمـــوا أنَّ الـــسِّهام خيـــولُ
شـــوائل تَـــشْوال العقـــارب بالقنـــا	لهـــا مـــرحٌ مـــن تحتـــهِ وصـــهيلُ
فلما تجلَّـــى مـــن دَلُـــوكَ وصـــنجةٍ	علـــت كُـــلَّ طـــودٍ رايـــةٌ ورعيـــلُ
على طُرُقٍ فيها على الطُّرْقِ رفعـــةٌ	وفي ذكرها عند الأنيس خمـــولُ)) [2]

وقول الكاتب أيضاً يصف أحد أمراء جيش التَّتار قائلاً[3]: ((... فكان البدراناة أحقّ بقول أبي الطيِّب:

نجوْت بإحـــدى مهجتيـــكَ جريحـــةً	وخلّفـــت إحـــدى مهجتيـــكَ تـــسيلُ
أتُـــسلِمُ للخَطِّيَّـــةِ ابنـــكَ هاربـــاً	ويسكنُ في الـــدُّنيا إليـــك خليـــل))[4]

نجد أن الكاتب يصرِّح باسم الشاعر المتنبي في استشهاده، بينما في مواضعٍ أخرى من الرسالة نفسها لا يشير الكاتب إلى اسم المتنبي، كقوله مثلاً[5]: ((... تحملُ همَّنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللِّحاق، وكلٌّ يقول لسلطاننا نصره الله.

أيـــن أزْمَعـــتَ أيهـــذا الهُمـــام؟	نحنُ نبتُ الرُّبـــا وأنـــت الغمـــام[6]

ومرَّ لا يفعل السَّيف أفعاله، ولا يسير في مهمَّةٍ إلاَّ عمَّه ولا وجبل إلاَّ طالـــه: تسايره السواري والغوادي، ولا ينفكُّ الغيثُ من انسكاب في كلِّ نادٍ ووادي:

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 160/14.

* في الديوان (بالجرد الجياد).

(2) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت354هـ): العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب المتنبي، شرح ناصيف اليازجي، دار القلم – بيروت، ط2، (د.ت)، ص370.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 169/14.

(4) المتنبي: الديوان، ص374.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 159/14.

(6) المتنبي: الديوان، ص267.

فباشَرَ وجهاً طالما باشر القَنَا   وبَلَّ ثياباً طالما بلَّها الدَّمُ[1]

وقد استخدم محيي الدِّين صدر بيت للمتنبي، إذْ يقول في الرسالة نفسها: ((... والقنا تقرعُ وموجُ المنايا حولها متلاطمُ، وقيل حقيقة هناك على قدر أهل العزمِ تأتي العزائم))[2].

حيث استفاد الشَّاعر من مطلع قصيدته، التي مدح فيها سيف الدَّولة مشيراً إلى معركة الحدث، إذْ يقول:

على قدرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ   وتأتي على قدرِ الكرام المكارمُ[3]

وقد جاءت بعض أبيات المتنبي محلولة في الرسالةِ نفسها، إذْ يقول[4]: ((فبتنسا بها وانثنينا وخيلنا مبثوثة فوق "الأحيدب" كما نثرت الدَّراهم فوق العروس وحوافرها على الوكور في أعلى القنن تدوس، إذا زلقت تمشي على صلد الصَّفا كالأراقم على البطون، وإن تكاسلت جرّ بعضها بعضاً بالصهيل: "والحديث شجون"؛ وخضنا في أثناء ذلك مخائض سوافح ...))، إذْ يشير الكاتب إلى أبيات المتنبي[5]:

نَثَرتَهُم فوقَ الأحيدبِ كُلِّهِ   كما نثرت فوقَ العروس الدَّراهمُ

تدوسُ بِكَ الخيلُ الوكور على الذرى   وقد كَثُرتْ حَوْلَ الوكورِ المطاعِمُ

إذا زَلِقَت مَشَيَّتها بُبطونِها   كما تتمشَّى في الصَّعيدِ الأراقمُ

أمّا قول الكاتب "والحديث شجون" فهو متأثِّر بقول المتنبي:

يا بدرُ إنَّك والحديثُ شجونُ   من لم يكن لمثالهِ تكوينُ[6]

---

(1) المصدر السابق، ص311.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 161/14.

(3) المتنبي: الديوان، ص401.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 163/14.

(5) المتنبي: الديوان، ص405-406.

(6) المصدر نفسه، ص158.

وفي رسالة ردَّ بها السُّلطان المنصور قلاوون على فرمان ايلخان أحمد تكدار، جاء فيها: ((...، أنَّه إذا كفَّ العدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك، سكنت الدَّهماء، وحقنت الدِّماء، وما أحقّه بأن لاينه عن خلقٍ ويأتي مثله، ولا يأمر ببرّ وينسي فعله))[1].

ويبدو تأثُّر الكاتب واضح بقول الشَّاعر أبي الأسود الدؤلي:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلهُ عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عظيمُ[2]

ويصف علاء الدِّين القائد المسلم في معركة مرج الصفُّر بقوله: ((... وهو خلّد الله سلطانه، يسير الهوينا وينظر بعين خيّرة هذا المحفل، ...))[3].

إذْ يتأثَّر علاء الدِّين بقول الأعشى[4]:

غَرَّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهوينا كما يمشي الوجْيُ الوحلُ

4.3.5 التأثُّر بالمثل العربيّ

استعان الكتَّاب في هذا العصر بالمثل وتأثَّروا به سواء أكان نثراً أم شعراً، وقد أشار القلقشندي إلى أهميّة المثل بقوله: ((اعلم أنَّ الكاتب يحتاج إلى النَّظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثراً، أو نظماً، وانظر في الكتب المصنَّفة في ذلك كأمثال الميداني، والمفضّل ابن سلمى الضبيّ، وحمزة الأصفهاني، وغيرهم...))[5].

((والمطَّلع على رسائل هذا العصر يُلاحظ تأثُّر الكتَّاب بالمثل بشكلٍ كبير، أمّا المدقِّق في رسائل الغزو المغوليّ، فيلاحظ الأثر القليل في استعانتهم بالمثل؛ وربّما يعود ذلك إلى انشغال الكتّاب بكتابة المراسلات بين المسلمين والمغول، والحثّ على

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص984.

(2) الدؤلي، أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل: ديوان أبي الأسود الدؤلي، تحقيق الشيخ محمّد حسن آل ياسين، منشورات مكتبة النهضة – بغداد، ط2، 1964م، ص130.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص1038.

(4) الأعشى، ميمون بن قيس (ت7هـ): ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمّد محمّد حسين، مؤسسة الرسالة، ط7، 1983م، ص6.

(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 346/1..

الجهاد، ووصف المعارك، اعتمادهم الرئيسي على القرآن الكريم، والحديث الشريف بالدّرجة الأولى، ثمَّ يليه الشّعر، ممّا جعلهم يكتفون بالاعتماد على الشواهد الأقوى والأبلغ))[1].

وممّا وجدته من أمثلةٍ على تأثُّر الكتَّاب بالأمثال العربيّة، قول محيي الدِّين بن عبد الظّاهر في وصفِ معركة قيساريّة الرُّوم، حيث يقول[2]: ((ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة، فعارضنا بها ....، نهر يُعرف نهر – قزل صو ....، وهذا النهر صعب المخاض ... لا يجد السَّالك من أوحال حافتيّه إلاّ صعيداً زلقاً؛ فوقف مولانا السُّلطان بنفسه، وجرد سيفه بيده، ... ووقف راجلاً يُعبر النَّاس أولاً فأولاً ... ولم يبقَ إلاّ المرور، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعية، وعليه من الله واقية باقية، فنزل في وادٍ هناك به (("مرعى" ولا كالسعدان"، "ومرأى ولا كشعب بوّان"))[3].

الخاتمة

لقد زحف خطر المغول إلى العالم الإسلاميّ، وجاء يهدِّد بقوّته وغروره وتجبُّره، إذ دمَّر العمران، وخرَّب الأبنية، وسفك الدِّماء، وقتل الأبرياء، ونهب الأموال...، وقد وجدت هذه الأحداث صدىً كبيراً لدى الكتَّاب والأدباء، إذْ رصد النثر الفنيّ العربيّ معظم الأحداث التي دارت بين المسلمين والمغول من وقعات ومراسلات.

وقد دفع العنف الذي أبداه المغول في البلاد الإسلاميّة إلى تقديم الكتَّاب تعليلات مختلفة لذلك الغزو، فذهب بعضهم إلى أنّه قضاء وقدر من الله على عبادِه، ورأى بعضهم أنّه عقاب من الله للمسلمين على حياة الفساد التي كانوا يعيشونها، وصوَّر الكتَّاب عنف الغزو المغوليّ، فعدُّوه مصيبةً، وداهيةً، وشرّاً نزل بالمسلمين، وأعطوا

---

(1) الحمايرة: صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ، ص149–150.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 183/14..

(3) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل – بيروت، ط2، 1987م، 276/2–277. (مثلان يضربان للشيئين لهما فضل ولكن أحدهما أفضل).

صورةً لأحداثه في البلاد الإسلاميّة شبيهةً بيوم القيامة، كما عبَّروا عن الأثـــر الـــذي خلَّفه الغزو المغوليّ في نفوس المسلمين، فصوَّروا ما كان المـــسلمون يعـــانون مـــن مخاوف وقلق مستمر جرَّاء ذلك الغزو.

وتحدَّث الكتَّاب عن عقيدة المغول، فوصفوهم بـــالكفر، والـــشِّرك والـــضَّلال، والرجس، وأشاروا إلى إسلام بعضهم، والصُّورة العامّة التي قدَّمها الكتَّـــاب لعقيـــدة المغول حتَّى بعد إسلامهم، أنَّهم أهل كفر وشرك، اتَّخذوا الإسلام ستاراً لتحقيق مآربهم السياسيّة. وصوَّر الكتَّاب الجيش المغولي القادم لاحتلال بلاد المسلمين، فتحدَّثوا عـــن عدده، ورسموا صوراً متعدِّدة تدلُّ على كثرتهِ وعظمتهِ، وحدَّدوا عدد ذلك الجيش في بعض الأحيان، وبيَّن الكتَّاب بعض أنواع الأسلحة الهجوميّة والدفاعيّـــة التـــي كـــان المغول يعتمدون عليها في حروبهم مع المسلمين، وكشف الكتَّاب عن أطماع المغول؛ فقد كانوا يهدفون إلى التوسُّع باحتلال بلاد المسلمين، ونهب خيراتها، وأشـــاروا إلـــى بعض خطط المغول العسكريّة كالكمائن، والحصار ثمّ الهجـــوم، ووصـــف الكتَّـــاب المغول بالعديد من الصِّفات اعترفوا في بعضها بالصِّفات الإيجابيّة التي كان يتمتَّع بها المغول كالقوة والشَّجاعة في القتال، في حين وصفوهم بصفات سلبيّة كالمكر، والغدر، والخيانة، ونقض العهود والمواثيق. كما صوَّر الكتَّاب أفعـــال المغـــول فـــي المـــدن الإسلاميّة؛ فأظهروهم في صورة قومٍ هدفهم القتل وسفك الدِّماء، فقد ارتكبـــوا أبـــشع المجازر ضدّ المسلمين حتّى غدت البلاد قفراً، وأسروا المسلمين، وسبوا المـــسلمات، وفجروا بهنَّ، ونهبوا الأموال، وعبثوا بالكتب وأحرقوها، وهـــدموا صـــروح العلـــم والمدنيّة، وقتلوا العلماء.

وكشف النثر عن بعض التحالفات التي عقدها المغول مع غيرهم من الأُمم، فقد انضوت الكثير من الأُمم تحت جناح المغول، ورأوا فيهم القوّة التي تمكِّنهم من احتلال بلاد المسلمين، وأخذ الثأر منهم، أمثال: النـــصارى، والفـــرج، والأرمـــن، والتتـــار، والعجم، والروم. وكان الأرمن أكثر تلك الأمم بروزاً في النثر، فدعا إلـــى ضـــربهم، وصوَّر أفعالهم في المدن الإسلاميّة، وقلَّل من شأنهم، وخاصَّة بعد هـــزائم أحلافهـــم المغول.

وصوَّر النثر جوانب من العلاقات بين المسلمين والمغول بعد اعتناقهم الإسلام، فأشار إلى العلاقات الدبلوماسيّة بين بعض حكّام المغول المسلمين وسلاطين المماليك.

وقد أعطى النثر العربي صورةً للمغول بعد هزائمهم المتكرِّرة أمام المسلمين، فصوَّروا الحرب ناراً وقودها المغول، وتحدَّثوا عن قتلاهم ودمـائهم الغزيـرة التـي سالت في أرض المعركة والمصير التي آلت إليه جثث أولئك القتلى، فقـد أصـبحت طعاماً لوحوش الأرض وطيورها، ونعالاً لسنابك الخيول المشاركة في المعارك. كمـا تحدَّثوا عن إبادتهم إبادة تامَّة بعد كل هزيمة لهم أمام المسلمين، وأشاروا إلى أسراهم، وغنائمهم التي وقعت في أيدي المسلمين، كما صوَّروا حالة المغول النفسيّة، فوصـفوا الذُّعر الذي ملأ قلوبهم على أثر هزائمهم أمام المسلمين، وصوَّروا فرارهم من سـاحة المعركة والتجائهم إلى الجبال للتحصُّن فيها بعيداً عن أعين المسلمين، وعرّضوا بهم، ونعتوهم بنعوتٍ تدلُّ على جُبنهم وخوفهم، كما تدلُّ على سـخرية المـسلمين مـنهم، وصوَّر النثر المصير الذي آل إليه بعض قادة المغول بأُسلوب ساخرٍ ينبئ عن شماتة الكتَّاب بهم بعد انكسار شوكتهم، كما صوَّروا القائد المسلم الشُّجاع المقـدام بجيوشـه الجرَّارة التي بدَّدت جماعة التَّتار وأحالتهم إلى رماد يطيّره الرِّياح.

وقد سلك النثر أُسلوباً في مجملِه واضحاً بعيداً عن التعقيد والغموض، فكانـت لغتهم إلى حدٍّ ما سلسلة، واضحة. ونوَّع الكتَّاب في صورهم، فتعـدّدت مـصادرها، فمنها المستمدّ من القرآن الكريم وقصصه، وبعضها من الحديث الشَّريف، إضافة إلى الكمِّ الهائل المتكئ على المصادر الأدبيّة والتراثيّة.

وشكَّلت المدرسة الفاضليّة هاجساً حقيقيّاً في أذهانهم، فولعوا بأُسلوب القاضـي الفاضل، وترسَّموا خطاه في فنون البديع، وحلَّوا بهـا رسـائلهم، فـاهتمُّوا بالـسَّجع والجناس والطِّباق والمقابلة، وبراعة الاستهلال، وحُسن الخواتيم.

كما بدى تأثُّر الكتَّاب في كتاباتهم بالقرآن الكريم، والحديث النبويّ الـشَّريف، والشِّعر العربيّ، والأمثال العربيّة سواء عن طريقة الاقتباس، والاستشهاد، والتضمين وحلِّ المنظوم.

المراجع

ابن الأثير الحلبيّ، نجم الدّين أحمد بن إسماعيل الشافعيّ (ت837هـ)، (د.ت): **جوهر الكنز**، تحقيق محمّد زغلول سلاّم، منشأة المعارف – الإسكندريّة.

ابن الأثير، ضياء الدّين أبو الفتح نصر الله بن محمّد الجزريّ (ت637هـ)، 1962م: **المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر**، تحقيق أحمد الحوفي وآخر، ط1، مطبعة الرّسالة.

ابن الأثير، عزّ الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت630هـ)، 1987م: **الكامل في التاريخ**، مراجعة محمّد الدقّاق، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1.

ابن الصيرفيّ، نور الدّين علي بن داود الجوهريّ (ت900هـ)، 1951م: **قانون ديوان الرّسائل**، مطبعة الواعظ – مصر.

ابن الصيرفي، نور الدّين علي بن داود الجوهري (ت900هـ)، 1970م: **نزهة النّفوس والأبدان في تواريخ الزّمان**، تحقيق حسن حبشي، وزارة الثقافة – القاهرة.

ابن الطقطقا، محمّد بن علي بن طباطبا (ت709هـ)، 1966م: **الفخري في الآداب السّلطانيّة والدّول الإسلاميّة**، دار صادر – بيروت.

ابن العبري، أبو الفرج نمر غريغوريوس الملطي (ت685هـ)، 1983م: **تاريخ مختصر الدّول**، تصحيح وفهرسة الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرّائد اللبناني – لبنان.

ابن العماد، شهاب الدّين أبو الفلاح عبد الحيّ الحنبليّ الدمشقيّ (ت1089هـ)، 1351هـ: **شذرات الذّهب في أخبار من ذهب**، مكتبة القدسي – القاهرة.

ابن الفرات، ناصر الدّين محمّد بن عبد الرحيم (ت807هـ)، 1936م: **تاريخ ابن الفرات**، حقّقه وضبط نصّه قسطنطين زريق، منشورات الجامعة الأمريكيّة – بيروت، م7.

ابن الفوطي، كمال الدّين عبد الرزّاق البغداديّ (ت723هـ)، 1932م: **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، المكتبة العربية – بغداد.

ابن الورديّ، زين الدِّين عمر بن مظفَّر (ت749هـ)، 1996م: **تتمّة المختصر في أخبار البشر المسمَّى تاريخ ابن الورديّ**، دار الكتب العلميّة – بيروت، م2.

ابن إياس، محمّد بن محمّد الحنفيّ (ت930هـ)، 1982م: **بدائع الزهور في وقائع الدُّهور**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب – القاهرة.

ابن تغرِّي بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت874هـ)، 1984م: **المنهل الصَّافي والمستوفي بعد الوافي**، حقَّقه محمّد محمّد أمين، تقديم سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصريّة للكتاب – القاهرة.

ابن تغرِّي بردي، جمال الدِّين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت874هـ)، 1933م: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، ط1.

ابن تيميّة، تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ)، 1946م: **الرسالة القبرصيّة**، مكتبة أنصار السنَّة المحمَّديَّة، ط3.

ابن تيميّة، تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ)، 1976م: **رسالة إلى السُّلطان الملك النَّاصر في شأن التَّتار**، نشرها صلاح الدِّين المنجد، دار الكتاب الجديد – بيروت، ط1.

ابن تّيميّة، تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم الدمشقيّ (ت728هـ)، 2003م: **كشف النِّقاب عن معالم سورة الأحزاب ومقارنتها (بكائنة المسلمين مع التتار في القرن الثامن)**، علّق عليها علي بن حسن الحلبيّ، دار الصميعي للنشر والتوزيع – الرِّياض، ط2.

ابن تيميّة، تقيّ الدِّين أحمد عبد الحليم (ت728هـ)، 1329هـ: **مجموعة فتاوي ابن تيميّة**، مطبعة كردستان العلميّة – القاهرة.

ابن حبيب، بدر الدِّين بن عمر الحلبيّ (ت779هـ)، 1982م: **تذكرة النبيه في أيَّام المنصور وبنيه**، تحقيق محمّد أمين، الهيئة المصريّة للكتاب – القاهرة.

ابن حجّة الحمويّ، تقيّ الدِّين أبو بكر بن علي الأزراري (ت837هـ)، 1874م: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، مطبعة بولاق.

ابن حصري، محمّد بن محمّد، 1963م: **الدرة المضيئة في الدَّولة الظاهريّة**، تحقيق وترجمة ونشر وليم، م، بريز، مطبعة جامعة كاليفورنيا – بركلي.

ابن خلدون، عبد الرَّحمن بن محمّد الحضرميّ (ت808هـ)، 1961م: **تاريخ ابن خلدون**، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ط2.

ابن خلّكان، شمس الدِّين أحمد بن محمّد (ت681هـ)، 1977م: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر – بيروت.

ابن شدَّاد، عزّ الدِّين أبو عبيد الله محمّد بن علي (ت684هـ)، 1983م: **تاريخ الملك الظَّاهر**، تحقيق أحمد حطيط، دار النَّشر: فرانز شتاينر، بفيسبادن، طبع على مطابع مركز الطباعة الحديثة – بيروت.

ابن شدَّاد، عزّ الدِّين محمّد بن علي (ت684هـ)، 1953م: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشَّام والجزيرة**، تحقيق سامي الدَّهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربيّة– دمشق.

ابن عبَّاس، شافع بن علي (ت730هـ)، 1976م: **حُسن المناقب السريَّة المنتزعة من السيرة الظَّاهريَّة**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر – الرِّياض.

ابن عبد الظَّاهر، محيي الدِّين بن عبد الظّاهر (ت692هـ)، (د.ت): **تشريف الأيَّام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي – الجمهورية العربيّة المتّحدة.

ابن عبد الظَّاهر، محيي الدِّين بن عبد الله (ت692هـ)، 1976م: **الرَّوض الزَّاهر في سيرة الملك الظَّاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض.

ابن عربشاه، أحمد بن محمّد بن عبد الله (ت854هـ)، 1305هـ: **عجائب المقدور في أخبار تيمور**، المطبعة العثمانيّة – مصر.

ابن قاضي شهبة، تقي الدِّين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الدمشقي (ت851هـ)، 1977م: **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية – دمشق.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ الدمشقيّ (ت774هـ)، 1987م: **البداية والنهاية**، تدقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية – بيروت، ط3.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين محمّد بن مكرم (ت711هـ)، (د.ت): **لسان العرب**، دار صادر – بيروت.

أبو الفداء، عماد الدِّين إسماعيل (ت732هـ)، 1907م: **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينيّة المصريّة – القاهرة، ط1.

أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت275هـ)، 1988م: **سنن أبي داود**، الدَّار المصريَّة اللبنانيّة – القاهرة.

أبو زهرة، محمّد، 1992م: **الدَّعوة إلى الإسلام**، دار الفكر العربيّ – القاهرة.

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل (ت241هـ)، (د.ت): **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، دار صادر – بيروت.

استارجيان، ك، أ، 1951م: **تاريخ الأُمَّة الأرمنيّة من القرن السَّابع قبل الميلاد إلى نهاية الرُّبع الأول من القرن العشرين**، مطبعة الاتحاد الجديدة – الموصل.

أسعد، بهاء الدِّين محمّد، 1981م: **العسكريّة الإسلاميّة وقادتها العظام**، مكتبة المنار – عمّان.

إسماعيل، اكتمال، 1994م: **الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة للحملات العسكريّة المغوليّة على بلاد الشَّام (1250-1400هـ)**، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق.

الأعشى، ميمون بن قيس (7هـ)، 1983م: **ديوان الأعشى الكبير**، تحقيق محمّد محمّد حسين، مؤسسة الرِّسالة، ط7.

إقبال، عبَّاس، 2000م: **تاريخ المغول**، ترجمة عبد الوهاب علُّوب، المجمع الثقافي– أبو ظبي.

امرؤ القيس، حندج بن حجر (ت80هـ)، (د.ت): **ديوان امرئ القيس**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – مصر، ط4.

أمين، فوزي محمّد، 1993م: **أدب العصر المملوكيّ الأول قضايا الفنّ والمجتمع**، دار المعرفة الجامعيّة – الإسكندريّة.

البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبـــراهيم البخـــاري الجعفـــي، 1992م: **صحيح البخاري**، دار الكتب العلميّة – بيروت.

البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبـــراهيم البخـــاري الجعفـــي، 1981م: **صحيح البخاري بشرح الكرماني**، دار إحياء التراث العربيّ – بيروت.

بدوي، أحمد أحمد، (د.ت): **الحياة الأدبيّة في عصر الحروب الصليبيّة بمصر والشَّام**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – القاهرة، ط2.

براون، إدوارد جرانفيل، 1954م: **تاريخ الأدب العربيّ في إيران من الفردوسيّ إلـــى السعديّ**، نقله إلى العربيّة إبراهيم أمين شواربي، مطبعـــة الـــسَّعادة – مصر.

البغداديّ، صفيّ الدِّين عبد المؤمن عبد الحقّ (ت739هـــ)، 1992م: **مراصد الإطِّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار الجيل – بيروت، ط2.

جبر، خال عبد الرَّؤوف عثمان، 1992م: **الرِّسالة الفنيّة في العصر المملـــوكيّ الأول بمصر والشَّام**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة.

جرَّار، مأمون فريز، 1983م: **أصداء الغزو المغوليّ في الشِّعر العربيّ مـــن القـــرن السَّابع إلى التَّاسع الهجريّ**، نشر وتوزيع مكتبة الأقـــصى – عمَّـــان، ط1.

الجويني، عطا ملك بن بهاء الدِّين محمّد (ت658هـــ)، 1911م: **تاريخ جهانكشاري**، اهتمام وتصحيح محمّد بن عبد الوهاب قزويني، مطبعة بريـــل ليـــدن، جاب أول.

الحجيّ، حياة ناصر، 1984م: **أحوال العامَّة في حكم المماليك**، شركة كاظمة للنـــشر والتوزيع– الكويت، ط1.

الحدَّاد، محمّد حمزة إسماعيل، 1993م: **السُّلطان المنصور قلاوون**، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط1.

الحلبيّ، شهاب الدّين أبو الثّناء محمود (ت725هـ)، 1980م: **حُسن التوسُّل في صناعة الترسُّل**، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الحريّة للطباعة – بغداد.

حمادة، محمّد ماهر، 1986م: **وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغوليّ للعالم الإسلاميّ**، مؤسسة الرّسالة – بيروت، ط3.

الحمامرة، ذكريات سليمان موسى، 1996م: **صدى الغزو المغوليّ في النثر العربيّ من القرن السابع الهجري حتّى أوائل القرن التاسع الهجري**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، تموز.

الحمويّ، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت الحمويّ (ت626هـ)، (د.ت): **معجم البلدان**، دار صادر – بيروت.

خفاجيّ، محمّد عبد المنعم، 1990م: **الحياة الأدبيّة بعد سقوط بغداد حتّى العصر الحديث**، دار الجيل – بيروت، ط1.

الخوجة، محمّد، 1956م: **عصر المماليك: الترسُّل وابن عبد الظّاهر**، منشورات اتّحاد الكتّاب – تونس، ط1.

الدؤلي، أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل، 1964م: **ديوان أبي الأسود الدؤلي**، تحقيق الشيخ محمّد حسن آل ياسين، منشورات مكتبة النهضة – بغداد، ط2.

الدروبيّ، سمير محمود، 2002م: حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكيّ، **مجلة مجمع اللّغة العربيّة الأردنيّ، ع62.**

الدروبي، محمّد محمود، 1999م: **الرسائل الفنيّة في العصر العباسيّ حتّى نهاية القرن الثّالث الهجريّ**، دار الفكر للطباعة والنشر – الأردن، ط1.

دهمان، محمّد، 1990م: **معجم الألفاظ التاريخيّة**، دار الفكر – دمشق.

الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك، 1960م: **كنز الدُّرر وجامع الغرر**، تحقيق هانس روبرت رويمر، إصدار قسم الدّراسات الإسلاميّة بالمعهد الألماني للآثار – القاهرة.

الذبيانيّ، زياد بن معاوية بن جنباب النابغة الـذبيانيّ (ت18هـــ)، (د.ت): **ديـــوان النابغة الذبيانيّ**، دار صادر – بيروت.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدِّين محمّد بن أحمد بن عثمـــان (ت748هـــ)، 1966م: **العبر في خبر من غبر**، تحقيق صلاح الدِّين المنجــد، وزارة الإرشـــاد والأنباء – الكويت.

الذهبيّ، شمس الدِّين محمّد بن أحمد (ت748هـ)، (د.ت): **دول الإسلام**، نشر عبدالله بن إبراهيم الأنصاريّ، إدارة إحياء التراث الإسلامي – قطر.

الذهبي، شمس الدِّين محمّد بن عثمان (ت748هـ)، (د.ت): **ذيول العبر في خبر مـــن ذهب**، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد، دار الكتب العلمية – بيروت.

الرَّازي، 1985م: **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، تحقيق بكري شـــيخ أمـــين، دار العلم للملايين – بيروت، ط1.

رشيد، ناظم، 1980م: من آثار الغزو التَّتري في الأدب خلال القرنين السَّابع والثَّامن الهجريّ، **مجلة آداب الرَّافدين**، تصدر عن جامعة الموصل، **ع12**.

رنسيمان، ستيفن، 1997م: **تاريخ الحروب الصليبيّة**، نقله إلى العربيّة الـسيّد البـــاز العريني، دار الثقافة – بيروت، م5.

روزنتال، فرانز، 1982م: **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة صالح أحمـــد العلـــي، مؤسسة الرِّسالة، ط2.

زقلمة، أنور، 1995م: **المماليك في مصر**، مكتبة مدبولي، مصر، ط1.

زيدان، جورجي، (د.ت): **تاريخ آداب اللغة العربيّة**، مراجعة شوقي ضـــيف، طبعـــة دار الهلال – القاهرة.

السبكي، تاج الدِّين أبو نصر عبد الوهاب (ت771هـ)، 1964م: **طبقـــات الـــشَّافعيَّة الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطنـــاجي، مطبعـــة عيـــسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، ط1.

سرور، جمال، 1960م: **الظَّاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره**، القاهرة.

سرور، محمّد جمال الدِّين، 1947م: **دولة بني قلاوون في مصر**، القاهرة.

سلاّم، محمّد زغلول، (د.ت): **الأدب في العصر المملوكيّ**، نشر منشأة المعارف، جلال حزى وشركاه – الإسكندرية.

سليم، محمود رزق، 1962م: **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ**، مكتبة الآداب – القاهرة، م5.

السيوطي، جلال الدّين عبد الرَّحمن (ت911هـ)، 1968م: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، ط1.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، 1952م: **تاريخ الخلفاء**، مطبعة السعادة – مصر.

الشّايب، أحمد، 1966م: **الأُسلوب**، مكتبة النهضة المصريّة – القاهرة.

الشبيبي، محمّد رضا، 1958م: **مؤرِّخ العراق ابن الفوطيّ، بحث في أدوار التأريخ العراقي من مستهلّ العصر العباسيّ إلى أواخر العصر المغوليّ**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، م2.

الصفديّ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت764هـ)، 1982م: **الوافي بالوفيات**، فرانز شتايز بفيسادث، النشرات الإسلاميّة، جمعية المستشرقين الألمانيّة، طبع في دار صادر باعتناء س.د. رينغ – بيروت.

الصفدي، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت764هـ)، 1992م: **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب**، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير الصمصام، منشورات وزارة الثقافة – سوريا.

الصفديّ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك (ت764هـ)، 1998م: **أعيان العصر وأعوان النَّصر**، تحقيق علي أبي زيد وآخرون، دار الفكر – دمشق، ط1.

الصقاعيّ، فضل الله بن أبي الفخر (ت726هـ)، 1974م: **تالي كتاب وفيات الأعيان**، تحقيق جاكلين سوبله، المعهد الفرنسي للدِّراسات العربيّة – دمشق.

الصيَّاد، فؤاد عبد المعطي، 1980م: **المغول في التاريخ**، دار النهضة العربيّة – بيروت.

ضيف، شوقي، 1976م: **البحث الأدبيّ**، دار المعارف – القاهرة.

عاشور، سعيد عبد الفتّاح، 1976م: **الحركة الصليبيّة**، مكتبة الأنجلو المصريّة – القاهرة، ط3.

عاشور، فايد حمّاد، (د.ت): **العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدّولة المملوكيّة الأولى**، دار المعارف – مصر.

عبد الرّحيم، رائد مصطفى حسن، 1997م: **صورة المغول في الشّعر العربيّ – العصر المملوكيّ**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، تشرين الأول.

عبد المهدي، عبد الجليل، 1989م: **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبيّة**، دار البشير – عمّان.

العريني، السيّد الباز، 1981م: **المغول**، دار النهضة العربيّة – بيروت.

العسقلانيّ، شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت852هـ)، (د.ت): **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.

العسقلانيّ، شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت852هـ)، 1969م: **أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ**، تحقيق حسن حبشيّ – القاهرة.

العسقلانيّ، شهاب الدّين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت852هـ)، 1966م: **الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمّد سيّد جاد الحقّ، دار الكتب الحديثة–القاهرة.

العسكري، أبو هلال العسكري (ت395هـ)، 1984م: **كتاب الصناعتين**، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2.

عصفور، جابر أحمد، (د.ت): **الصّورة الفنيّة في التراث النقديّ والبلاغيّ**، دار المعارف– القاهرة.

علي، محمّد كرد، 1983م: **خطط الشّام**، مكتبة النوري – دمشق، ط3.

العمريّ، أحمد بن يحيى (ت749هـ)، 1993م: **التعريف بالمصطلح الشّريف**، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط1.

العيني، محمود بن أحمد (ت855هـ)، 1987م: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان**، تحقيق محمّد محمّد أمين، الهيئة المصرية العامّة للكتاب – القاهرة.

الغريب، سلامة هليّل، 2003م: **الرّسالة الفنيّة في العصر المملوكيّ (648-784هـ)**، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة.

الغزيّ، كامل بن محمّد بن مصطفى البابي الحلبي (ت1351هـ)، 1928م: **نهر الذّهب في تاريخ حلب**، المطبعة المارونيّة – حلب، م3.

غنيمات، قاسم محمّد، 2003م: **الجيش المغوليّ في الفترة ما بين (615-736هـ)**، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنيّة، آب.

فليح، مناهل فخر الدّين، 1979م: التعليم في ظلّ دولة المماليك، **مجلة آداب الرافدين**، تصدر عن جامعة الموصل، ع**10**.

فيشل، والتر، (د.ت): **لقاء ابن خلدون لتيمورلنك**، ترجمة محمّد وفيق، مراجعة يوسف روشا، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

القرماني، أحمد بن يوسف (ت1019هـ)، 1992م: **أخبار الدُّول وآثار الأول في التاريخ**، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب – بيروت.

القزوينيّ، جلال الدّين أبو عبد الله محمّد بن عبد الرَّحمن (ت739هـ)، 1991م: **الإيضاح في علوم البلاغة**، قدَّم له وبوَّبه وشرحه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط2.

القلقشندي، أبو العبَّاس أحمد بن علي (ت821هـ)، 1987م: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلَّق عليه محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1.

القيسرانيّ، 1982م: **النور اللائح والدُّر الصائح في اصطفاء مولانا السُّلطان صالح**، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر – طرابلس.

الكازروني، ظهير الدّين علي بن محمّد (ت697هـ)، 1962م: **مقامة في قواعد بغداد**، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل مراد، مطبعة الإرشاد – بغداد.

الكتبي، محمّد بن شاكر (ت764هـ)، 1973م: **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر – بيروت.

الكتبي، محمد بن شاكر (ت764هـ)، 1980م: **عيون التواريخ**، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، دار الرشيد – بغداد.

المتنبي، أبو الطيِّب أحمد بن الحسين (ت354هـ)، (د.ت): **العُرف الطيِّب في شرح ديوان أبي الطيِّب المتنبي**، دار القلم – بيروت، ط2.

مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجَّاج القشيري (ت261هـ)، 1929م: **صحيح مسلم بشرح النوويّ**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3.

مطلوب، أحمد، 1986م: **معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوُّرها**، منشورات المجمع العلمي العراقيّ – بغداد.

المقريزي، تقيّ الدِّين أحمد بن علي (ت845هـ)، (د.ت): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، دار صادر – بيروت، 2م.

المقريزي، تقي الدِّين أحمد بن علي (ت845هـ)، 1939م: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشر محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة.

المنصوري، ركن الدِّين بيبرس (ت725هـ)، 1998م: **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيروت، ط1.

المنصوري، ركن الدِّين بيبرس المنصوري الخطائي (ت725هـ)، 1987م: **التحفة الملوكيّة في الدَّولة التركيّة**، قدَّم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانيّة – القاهرة، ط1.

المنصوري، ركن الدِّين بيبرس المنصوريّ الخطائي (ت725هـ)، 1993م: **مختار الأخبار**، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدَّار المصريّة اللبنانيّة، لبنان، ط1.

الميدانيّ، أبو الفضل أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، 1987م: **مجمع الأمثال**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل – بيروت، ط2.

ناجي، هلال، 2002م: سمات العطاء الأدبيّ والفكريّ في القرن الثَّامن الهجريّ، **مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ، ع63**، السنة 26.

النسوي، محمّد بن أحمد (ت639هـ)، 1953م: **سيرة السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي**، دار الفكر العربي – مصر.

النعيمي، عبد القادر بن محمّد الدمشقيّ (ت927هـ)، 1988م: **الدّارس في تاريخ المدارس**، تحقيق جعفر الحسين، مكتبة الثقافة الدينيّة – القاهرة.
النويري، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ)، 1992م: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمّد محمد أمين وآخر، مركز تحقيق التراث.
هايد، ف، 1994م: **تاريخ التجارة في الشّرق الأدنى في العصور الوسطى**، عرّبه من الترجمة الفرنسيّة، أحمد محمّد رضا، الهيئة المصريّة للكتاب – القاهرة، ط1.
الهمذاني، رشيد الدّين فضل الله (ت716هـ)، 1960م: **جامع التواريخ**، ترجمة محمّد صادق نشأت وآخرون، دار إحياء الكتب العربيّة – القاهرة، 2م.
الوطواط، رشيد الدّين محمّد العمريّ، 1945م: **حدائق السحر في دقائق الشّعر**، تحقيق إبراهيم الشواربي، القاهرة.
اليونيني، قطب الدّين أبو الفتح موسى (ت726هـ)، 1954م: **ذيل مرآة الزّمان**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر أباد الدكن – الهند، ط1.